ثقافة المسلم

في وجه التيارات المعاصرة

دكتور عبد الحليم عويس

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

الفصل الثالث

الثقافة الإسلامية والعقائد المعاصرة

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الإسلام والتيارات الاجتماعية الحديثة

الفصل السادس

الإسلام والتيارات الاقتصادية الحديثة

الفصل السابع
الإسلام والنظم السياسية

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي هذا الكتاب

هذا زاد من الثقافة الإسلامية أعتقد أن شبابنا ، وكثيرا من مثقفينا في حاجة إليه ، في عصر أصبحت فيه « الثقافة » مقوماً كبيراً من مقومات الشخصية التاريخية ، والحضارية ، لكل أمة ، وأصبح الصراع الثقافي فيه أبرز صور الصراع .

ومن المعروف أنه نتيجة لظروف تاريخية معينة ... أصبح المسلمون — وهذا شيء محزن حقاً — في موقع من يتأثر أكثر مما يؤثر ، ويتفاعل سلباً ... أكثر من تفاعله إيجاباً ... على الرغم من المكانة المتميزة الرائدة التي وضعهم فيها دينهم ، منذ قال لهم كتابه الكريم : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس [1] » .

وقال لهم : « كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » [2] .

وصار واجبا — ولعله واجب مرحلي — إنشاء الله —

(١) البقرة ١٤٣ .

(٢) آل عمران ١١٠ .

أن يتخذ الفكر الإسلامي ، موقف المدافع ، مع أن مكانته التي تدل عليها أصوله وتشهد بها عصور ازدهاره وقوته — تضعه في موقف المهاجم المنقذ من التصورات والأوضاع البعيدة عن طبيعة الفطرة الإنسانية . . . تلك التصورات والأوضاع التي سادت فترات كثيرة من فترات المسيرة التاريخية وتسود عالمنا المعاصر ! ! .

* * * *

وقد نظرتُ حولي ، ووضعت أمامي خريطة للتحديات التي يواجهها فكر المسلم ، ثم انتقيت من هذه التحديات ما رأيت أن في مواجهته مواجهة ضمنية لغيره . .

ولم أشأ أن يكون البحث رَصْفاً أكاديمياً لا يفيد منه إلا قلة قليلة . بل نهجت منهجا وسطا حاولتُ أن أجمع فيه بين البساطة والعمق والأسلوب المناسب ، مخالفا — بمنهجي هذا — ذلك النهج الذي يرى فيه بعض الدارسين ، أن الغموض والتعقيد دليل العمق ، وأن كثرة الهوامش تفرض الحقيقة فرضا . . . مع أننا من منطلق إسلامي — نؤمن بأن كثرة القائلين بالرأي أمر لا علاقة له بصواب الرأي أو خطئه « وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله [١] » « وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين [٢] » . . .

(١) الأنعام ١١٦ .

(٢) يوسف ١٠٣ .

وبالتالي ، فقد جاء البحث — فيما أعتقد — صالحاً ليفيد منه أكبر عدد من القارئين ، ومؤهلاً — بعون الله — لخدمة الثقافة الإسلامية في معركتها ضدّ التيارات الهدامة المعاصرة .

وبالله التوفيق

د . عبد الحليم عويس

الفصـل الاول

أساسيات في الثقافة الإسلامية

أ ـ مصطلح الثقافة الإسلامية
ب ـ ضرورة الثقافة الإسلامية
ج ـ الثقافة الإسلامية متطورة دائماً
د ـ الثقافة الإسلامية إنقاذ للإنسانية المعاصرة

مصطلح الثقافة :

استعمل العرب كلمة (ثقافة) بمعنى التقويم والتهذيب من ثقفت الرمح إذا هذبته وقومته ، واستعملوها أيضا بمعنى الحذق والفطنة ، ووردت عندهم بمعنى الوجود ، وبمعنى التمكن والغلبة[1] .

وفي اللغات الأوربية كانت كلمة ثقافة ولا زالت ذات صلة وثيقة بالزراعة ،وتجمعهما كلمة واحدة (Culture) — ومنها زراعة الأرض بعد تهذيبها وإعدادها Agri Culture كما استعملت في اللاتينية بمعنى قريب من المعنى العربي فقيل إنها (Culture Aniwi) بمعنى تهذيب الروح — وبمعنى التهذيب الرباني (Dei Culture) — وقد استعمل اللفظ بمعنى العبادة (Dei Culture) . أي عبادة الله على اعتبار أن عبادة الله صقل للنفس وتهذيب لها .

ومنذ العهد الروماني ارتبط معنى الثقافة بالعلوم الإنسانية ، أي العلوم الشخصية التي تنفصل فيها كل أمة عن الأمم الأخرى ، كعلوم الدين واللغة والآداب التي يدخل فيها الفلسفة ، والفنون

---

(١) ومن ذلك قوله تعالى : «إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء» وقوله : «فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم» وراجع مادة ثقف في لسان العرب .

– أي العلوم غير العملية وغير الطبيعية .

ثم في عصر النهضة الأوربية أصبح اللفظ يطلق على الآداب والفنون [1] ويرى ابن خلدون (٨٠٨ هـ) أن الثقافة تقابل العمران ، وقمة العمران ، أي قمة الثقافة هي الحضارة ، فلا فرق بين الحضارة والثقافة إلا في الدرجة [2] وعند (لوك) أن الثقافة تعني تهذيب العقل أو تهذيب الإنسان .

(Culture of the mind or of man)

وقد اشترك في هذا الفهم لكلمة (ثقافة) مع (لوك) ماثيو أرنولد في كتابه المسمى (الثقافة والفوضى) (١٨٦٩م) فذهب إلى أن الثقافة هي (محاولتنا الوصول إلى الكمال الشامل عن طريق العلم بأحسن ما في الفكر الإنساني ، مما يؤدي إلى رقي البشرية ، وقال إن الدين من العناصر التي أستعان بها الإنسان في محاولته الوصول إلى الكمال) ! ! .

ونحن نميل إلى هذا التعريف الأخير ، فنرى أن أي رقي للعقل الإنساني وأسلوب الحياة هو ثقافة ، سواء جاء هذا الرقي عن طريق علوم عملية أو نظرية ، لكننا نرى أن الإسلام (بخاصته) ليس دينا عاديا يشكل مجرد عنصر من العناصر التي يستعان بها على الكمال ، بل هو المفتاح الأساسي – من وجهة نظرنا – وهو الطريق السهل الموجز الواضح للوصول إلى الكمال الإنساني .

(١) أنظر د /حسين مؤنس : الحضارة (نشر الكويت ص ٣٦٩) .
(٢) أنظر المقدمة طبعة بيروت ٣٥ .

ومع ذلك فنحن لا نرى تعارضا بين هذا الهدف الثقافي الكبير وبين قصر مصطلح « الثقافة » على العلوم الإنسانية . باعتبارها العلوم الأكثر تأثيرا في الرقي الإنساني الحضاري من الجانب الروحي . وباعتبارها - كذلك - العلوم التي تنفصل فيها أمة عن أمة . وتشكل معالم الشخصية الذاتية . ولا تتسع فيها المساحة . بحيث تكون متشابهة أو واحدة بين كل الأمم . كما هو الشأن في العلوم التطبيقية .

بل إننا لا نرى تعارضاً بين التعريفات النوعية للثقافة . وهي تلك التعريفات التي يركز فيها المتخصصون في العلوم المختلفة - على جوانب تنتمي إلى تخصصهم الدقيق .

فما يراه علماء الإنسان من أن الثقافة باعتبارها الركن الركين في فهم الإنسان والجماعات - تمثل « أساوب الحياة في مجتمع ما ، بما يشمله هذا الأساوب من تفصيلات لا تحصى من السلوك الإنساني [1] » - هو فهم صحيح . لا يتعارض مع ما يراه علماء الاجتماع من أن الثقافة يقصد بها الأنماط الدائبة التغير للسلوك الإنساني المكتسب [2] . . . وهذا لا يتعارض مع أي تعريف « نوعي » آخر . . بل هي تعريفات يكمل بعضها بعضاً . وهي تنبع من التركيز الجزئي على بعض الجوانب ، بحيث تطغي على بقية الجوانب ، لكنها عند اجتماعها يكمل بعضها بعضاً كما ذكرنا .

---

(١) ابراهيم خورشيد : مفهوم الثقافة - مجلة الفيصل عدد (٢٠) .

(٢) الموضع السابق .

وحتى بين الثقافة والحضارة والمدنية ، — فاننا نرجح أنه لا يوجد أدنى تعارض ، لأننا نعتبرها جميعاً مظهر الرقي الإنساني ، ودليل مستواه . وكل ما يغذي رقيّ الحياة من روافد هو ثقافة وحضارة ومدنية ، وكل ما يعارضها هوجهل وتخلف ، حتى ولو تلفّع بأردية براقــة تستّر ما وراءه من فكر أو سلوك يتسم بضحالة لا تليق بانسانية الإنسان وسموه الفكري والروحي .

الثقافة الإسلامية :

تتدرج بنا التعريفات السابقة إلى التعريف الذي يمكن أن نحدّد به فقهنا للثقافة الإسلامية ، وهو فقه مستقى من بنائها الطبيعي ، ومن هدفها المحدد . ونكاد ننتهي من هذه التعريفات إلى أن الثقافة — في حقيقتها — هي الصورة الحيّة للأمة ، فهي التي تحدد ملامح شخصيتها وقوام وجودها ، وهي التي تضبط سيرها في الحياة ، وتحدد اتّجاهها فيه . . إنها عقيدتّها التي تؤمن بها ، ومبادئها التي تحرص عليها ، ونظمها التي تعمل على التزامها ، وتراثها الذي تخشى عليه الضياع والاندثار ، وفكرها الذي تودّ له الذيوع والانتشار [1] . . . إنها بايجاز كما يقول فون هردر : (هي دم الوجود) أي الدم الذي يجري في شرايين أفراده [2] .

(١) عمر عودة الخطيب : لمحات في الثقافة الاسلامية ١٣ طبع بيروت .
(٢) الحضارة ٣٦٩ .

وقد حرصْتُ على اقتباس تعريف (هردر) في هذا المقام لأربط بينه وبين ما ورد في القرآن تعبيراً عن أن الثقافة الإسلامية هي دم الحياة ، وهو المعنى الذي أفهمه من قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم » فكأن العقيدة الإسلامية والشريعة الإسلامية والأخلاق الإسلامية وما يحيط بها من فكر إسلامي – إنما هي الحياة . . وليس استيعاب مجموع ذلك إلا ما يمكننا أن نسميه بروح الثقافة الإسلامية . أو قلب الثقافة الإسلامية وعقلها .

إننا نستطيع أن نعتبر العلم تراثا إنسانياً عاماً . . فلا يقال هذا طبٌ انجليزي وذاك طب عراقي ، وتلك كيمياء مصرية ، وهذه جيولوجيا سعودية . . . لكن في مقام الثقافة نستطيع أن نقول ، بل يجب أن نقول : إن هذه ثقافة إسلامية وتلك ثقافة هندية وثالثة ثقافة شيوعية . . . كما أننا (متفرعين من الثقافة) نستطيع أن نقول : هذا أدب عربي ، وذاك أدب روسي . . . وشعر ألماني . . أو أمريكي . . . وهكذا .

وهذا أكبر الفوارق بين ما هو ثقافة ، وما هو حضارة . مع اشتراكهما في الهدف العام ، ومع أن الخلاف بينهما خلاف في الدرجة لا في النوع كما ذكرنا . . .

وانطلاقاً من هذا يصح لنا أن نعرف الثقافة الإسلامية . . . بقيدها ذاك ، أي بصفتها الإسلامية . . . فنقول : إن الثقافة الإسلامية هي الشخصية الإسلامية التي تقوم على العقيدة والشريعة والأخلاق المستقاة من مصادر الإسلام الأساسية ، وهي –

بالتالي – مجموعة الصفات والمقومات الفكرية والخلقية التي تشكل الإنسان المسلم وفق ركائزه الإسلاميه الآنفة الذكر، سواء كان هذا التشكيل على مستوى الصفات الفردية أم الفلسفة الاجتماعية أو النظرة الكونية.

ضرورة الثقافة الإسلامية :

في هذا العصر الذي يعج بشتى التيارات والأفكار، وتكاد فيه الآراء والاتجاهات تفرض نفسها فرضا على كل إنسان، بقوة المذياع والتلفاز والصحافة.. في هذا العصر الذي يسميه البعض عصر الصراع «الأيديلوجي»، والذي يبلغ فيه صراع الكلمة أقصى مداه على امتداد الكرة الأرضية!!.

أجل... في هذا العصر، الذي ترُصد فيه مئات الملايين من أجل الغزو الحضاري والثقافي، وتقام فيه جيوش غزاة الفكر وناشري المذاهب، والتصورات...

في هذا العصر... تبدو الثقافة الإسلامية ضرورة وجود بالنسبة للإنسان المسلم.

ولم يعد ممكنا أن نغلق على الشباب المسلم، أو المثقف المسلم الأبواب، ونظن أننا يمكن أن ننام مطمئنين، وأن «لصوص» الفكر لن يستطيعوا اقتحام الأبواب.

إن الفكر يدخل في هذا العصر مع الهواء... مع موجات الأثير، ويسير معك في السيارة، ويقتحم عليك غرفة النوم... عارضاً نفسه بأكثر الألوان تشويقاً وجذباً.

والحل الوحيد إذن أن يقاوم الفكرُ الإسلامي ، الفكر الإلحادي ، وأن نبني من عقيدتنا وشريعتنا وقيمنا وتراثنا وفكرنا « ثقافة إسلامية » لا تقف معنا في دحض الهجوم الفكرى الضارّ فحسب ، بل تصلح ، بما فيها من عناصر الصمود والبقاء والصلاح – في أن تدفعنا لتقديم فكرنا للعالم كله . . باعتباره فكراً قوياً قادراً ، وليس باعتباره فكراً خائفاً متوارياً يخشى على نفسه لفحة البرد ، أو لفحة الحر ، أو ميكروباً هزيلاً .

* * *

وبين هذا الركام والتّيه من التصورات التي تدفعها حضارة العصر ، وتجلب معها القلق والاضطراب الفكري والضياع ، وتفقد الإنسانية طعم الحياة ، وتجعلها تعيش في شبه غابة يدور فيها الصراع بين القُطعان ، وتدفعها رغائب مادية بحته ، ولا بقاء فيها إلا للأقوى والأكثر مكراً ودهاءً ولا أخلاقية .

بين زحام هذه التصّورات التي توشك أن تُفقد الإنسان المسلم ذاته وهويّته فكراً وسلوكاً ، تبدو أهمية ، بل وضرورة الثقافة الإسلامية .

إننا أمة لنا خصائصنا المميزة ، ولنا كياننا الحضاري ، ولنا تاريخنا العريق ، الذي يحمل أروع صفحات المجد والعزّة ، وإن لنا من الأيادي على البشرية مالا ينكره إلا جاحد ، ولا زالت المباديء والأصول التي صنعت لنا هذا التاريخ موجودة بيننا وقادرة باذن الله على أنتضعنا في نفس المكان الذي كنا فيه أيام الراشدين ، وأيام الأمويين ،في المشرق والأندلس ، وأيام

العباسيين وأيام الأيوبيين والمماليك ، والعثمانيين فاتحي القسطنطينية .

بل إننا حين نقف في عالم اليوم ، مدثرّين بهذا الكيان الحضاري ، متفاعلين به فاننا سنحظى باحترام العالم نفسه . . . إنه عالم مفكر يحترم أصحاب الفكر الأصيل وليس المستورد الدخيل . . . إنه يحترم من يصارعونه ، لا من يقلدونه تقليد القرود .

وبالتالي فالثقافة الإسلامية هي فكرنا ، وهي سلاحنا في الصراع العالمي « وهي الدرع الواقي والحصن المنيع الذي يمنع عنا أخطار المجابهة الفكرية والتحدي الحضاري الذي يهدد كيان أمتنا وشخصيتها . ومن واجب كل فرد منا أن يتحسس مخاطر هذه الظاهرة ، فيحمي نفسه وأسرته ومجتمعه من ذلك الخطر الذي تحرص الحضارة المعاصرة على ترسيخه في أذهاننا ، متمثلا في توهين القيم الروحية والفكرية التي تقوم عليها ثقافتنا ، مستخدمة في ذلك جيشاً لجباً من المستشرقين الذين يلبسون مسوح الرهبان والقديسين ، فيطوفون الأقطار الإسلامية ، ويحملون مشاعل المحبة والسلام والوئام ، في الوقت الذي ينخرون – كالسوس – في عظام هذه الأمة ، ليتساقط هيكلها العظمي بعد حين ، وليكون عاجزاً عن مقاومة غزوهم الفكري المدمر [1] » ومثلهم ، وفي نفس المستوى ، جيوش الماديين الجدليين « الشيوعيين » أو الاشتراكيين ، الذين يقفون في موقع آخر يحاولون منه إيجاد

(١) د / محمد فاروق النبهان : مبادىء الثقافة الاسلامية ٧٧ نشر دار البحوث العلمية بالكويت .

ثغرة يرمون منها سهامهم للوصول إلى الهدف المشترك ، وهو الاستيلاء على عقولنا وقلوبنا ومسخ حضارتنا وتاريخنا . . . وتحويلنا إلى أشباه مثقفين ، نلوك ثقافة تختلف في روحها وبنائها الفكري ومثلها وقيمها وأهدافها عن ثقافتنا الإسلامية .

* * *

وعلى ضوء هذه الضرورات التي توجب الاهتمام بالثقافة الإسلامية ، نستطيع أن نحدد الأساسيات التي تقوم بها الثقافة الإسلامية للأمة الإسلامية في العصر الحديث ، وفي معترك الصراع الفكري .

إنها تستطيع تقديم التصور الإسلامي الشامل والنظرة الكلية للحياة ، بما يدور فيها من نشاط مختلف يرتد كله إلى أصول واحدة .

وهي تقدم هذا التصور من خلال تجربة الإسلام الحضارية المتكاملة .

وهي كفيلة باحياء الانتماء للإسلام ولأمته ، وتزكية روح العمل به ، وبيان دوره الأساسي في علاج واقع الأمة الإسلامية[1]

وهي – كذلك– تصل حاضرنا ومستقبلنا في عالم المتغيرات ، والتكنولوجيا المتطورة ، بماضينا الزاخر الدافع لمستقبل وضيء ماديا وروحيا . تتوازن فيه أساسيات الحياة وتتعاون ولا تتناقض .

ومن هذه الأهداف – وغيرها – تستمد الثقافة الإسلامية

(١) أنظر د/أحمد العسال مقال مادة الثقافة الاسلامية مجلة المسلم المعاصر عدد ١٥ .

مكانتها وأهمية دورها في حياة المسلم المعاصر .

الثقافة الإسلامية متطورة دائماً :

لا مراء في أن أصول الثقافة الإسلامية وركائز تصورها ثابتة ، لأنها حقائق كلية كبرى وضعها الخالق . . سبحانه . . صالحة لكل زمان ومكان ، وقادرة على قيادة كل مراحـــل التاريخ .

لكن هذه الأسس وهذه الركائز تتفرع عنها قضايا معاشية أو تطبيقية سلوكية في مجالات الاجتماع والاقتصاد والسياسة — وبالتالي فان على الثقافة الإسلامية أن تعدّ من الوسائل المعاصرة ، ما يمكّن من تطبيق هذه الأصول الكلية الإسلامية . . وبالتحديد تلتزم الثقافة الإسلامية بتطوير حركة الفكر الإسلامي بحيث يتمكن العقل الإسلامي من تطبيق النظم الإسلامية في مجالات الحياة المختلفة ، اقتصادية واجتماعية وسياسية .

ولا يكفي أن ترفض الثقافة الإسلامية المفاهيم المتعارضة مع الإسلام كما نصتْ على ذلك أصولها ، بل يجب أن تقدم « البدائل » التي تظهر إمكانية التطبيق للمبادىء الإسلامية .

فاذا رفض الإسلام « الربا » ، وبالتالي البنوك الربوية — وجب على الثقافة الإسلامية أن تقدم أسس إقامة بنوك إسلامية لا ربوية تدرّ عائداً طيباً ، وتقوم بالخدمات المصرفية دون اللجوء إلى التعامل الربوي ، وإذا رفض الإسلام الفنون والآداب العابثة اللا هادفة ، وجب على الثقافة الإسلامية أن تقدم البديل

في إطار نماذج فنية تتوافر لها كل مقومات النجاح الفني شكلاً ومضموناً – لكنها مع ذلك تخدم الأهداف الإسلامية في الحيـــاة .

وهكذا في بقية مناحي الحياة .

وما يقال عن هذه الأمور ، ليُثبت تطور مهام الثقافة الإسلامية – يقال من جانب آخر ، ويثبت – كذلك – تطورها .

فان الثقافة الإسلامية ، بينما تقوم بواجب بناء الإنسان المسلم وتقوم في الوقت نفسه بواجب الدفاع عن حصنه ضد التيارات المعادية . . وبما أن هذه التيارات يمكن أن تتطور وتلبس أثوابا جديدة ، أو تتلفّع بشعارات براقة ، أو تظهر لها ذيولٌ أو واجهات جديدة – فان على الثقافة الإسلامية أن تطور وسائلها الدفاعية ، وأن تستعدّ لكل خصم جديد يريد أن يزيف العقل المسلم أو يتلبّس بالوجدان الإسلامي ، أو يشوّه تكاملية ونقاء التصور الإسلامي المنسجم الشامل .

إن الشيوعيين في المشرق الإسلامي – مثلا – قد أغفلوا كلمة الشيوعية في حوارهم وهجومهم على الإنسان المسلم ، وأحلّوا كلمة « الاشتراكية » محلها . . . ثم لما فشلت اشتراكيتهم ، أطلقوا على أنفسهم شعار « اليسارية » ، ويزعمون أنه يعني الأسلوب الثوري المعارض . . . وليس له علاقة برفض الدين أو المادية الجدلية بل هو أسبق زمانا من الشيوعية ، فكل هذه الأساليب يجب أن ترصدها الثقافة الإسلامية ، وأن تُحصّنَ الإنسان المسلم ضد ألوانها الماكرة .

إن تطور الثقافة الإسلامية حقيقة من حقائق بنائها الداخلي ، وهذا هو الذي يعطيها بعداً تتفرّد به عن بعض العلوم الإسلامية كالتوحيد والحديث والتفسير،ولئن اشترك الفقه معها في نفس الخصيصة ، فان فرقاً أساسياً يبقى قائما بينهما هو أن الفقه يواجه تطور الحركة الداخلية للحياة الإسلامية .

أما الثقافة الإسلامية ، فمهمتها أن تقف كحارس يحمي الجبهة الخارجية ، وترد الأعداء المتربصين ، وتساعد « الفقه » في الوقت نفسه على أداء رسالته وتطوير المجتمعات الإسلامية ، وتقدم لفروعه التصورات الكلية والأبنية التطبيقية . . .

إنها الزاد الضروري لكل مسلم معاصر يريد أن يعيش وفق الصياغة الإسلامية للحياة ، ويملك الإرادة الإيمانية التي يواجه بها التصورات المعادية ، مسلحاً بأصول الإسلام الثابتة ، وثقافته الإسلامية المتطورة .

الثقافة الإسلامية إنقاذ للإنسانية المعاصرة :

من بين الثقافات المعاصرة ، في عالمنا الذي تتلاطم فيه أمواج الثقافات من يسار إلى يمين — تقف الثقافة الإسلامية حاملة راية الإنقاذ للبشرية .

أجل . . . إن زماننا — كما يقول « رايت ملس » — لهو زمان القلق وعدم الاهتمام واللامبالاة بصورة لا تسمح للعقل أن يفعل مفعوله الهادىء ، ولا تسمح للحياء أو الشعور الرقيق

النبيل أن يفعل مثله .

وقد اضطرب أمر الفكر الإنساني ، لكثرة ما حُشر فيه من زيف ، وما زين فيه من باطل ، وما انحرف فيه الإنسان عن الفطرة — حتى أصبح الوصول إلى الحق وإلى الحلول الصحيحة المطابقة للسنن الكونية والاجتماعية — أمراً متعذرا غاية التعذر ..

ولقد ساعد على ذلك تلك الوسائل الإعلامية الرهيبة القائمة على استغلال أحدث أساليب الدعاية ، من تحليل ، وتركيب ، قائمين على « أن الغاية تبرر الوسيلة » ! !

وبالتالي ، فلم يعد بالإمكان تخليص الأفكار الحديثة من الجراثيم التي دخلت إلى بِنْيتها الداخلية ، وأصبحت كالسرطان ، لا تنفصل إلا ببتر العضو نفسه ..

ويترجم المفكر البروفسور « بومان » عن هذا المرض الفكري الخطير الذي دخل إلى جسم الحضارة الحديثة ولم يعد بالإمكان إخراجه منها ، فيقول لنا : إنه مهما تختلف محاولات الإصلاح بين كونها جسورة أو خجولة ، بعيدة المرمى أو حذرة ، فإنها — جميعا تتفق على أن الأفكار الموجهة للحضارة أو الثقافة الجديدة « المنشودة » يجب أن لا يبحث عنها في الأشكال العادية أو المألوفة ، بل إن المطلوب عمله ضرورة لهو شيء أبعد مدى بكثير من مجرد إعادة تشكيل أو إعادة تنظيم للآراء السائدة [1] » ...

---

(١) المسلم المعاصر عدد ١٦ مقال خالد اسحاق (الدعوة والالتزام) .

والذي لم يستطع « بومان » الاهتداء إليه . بحكم تكوينه الغربي الذي لم يتلق إلا صورة مشوهة عن الثقافة الإسلامية ، هو أن « الثقافة الإسلامية » — وحدها في الأرض ، وهي ثقافة ، غير حاضرة الحضور الجدير بها في ساحة الصراع الثقافي العالمي — هي الثقافة البديلة لهذه الآراء السائدة ، ولهذه الأشكال العادية .

وما هو مختل في الغرب بسبب من سيطرة « التكنولوجيا » على إنسانية الإنسان ، أو بسبب الانفصام بين الروح والمادة ، أو غياب الأهداف العليا الواضحة أو الصراع بين العقل والدين الكنسي . . .

. . . وهذه الاضطرابات وغيرها التي أودت بوضع الفكر الأوربي الحديث ، تبرأ منها ثقافة واحدة ، وفكر واحد ، في هذا العالم . . . إنها الثقافة الإسلامية .

إنها الثقافة الوحيدة التي تجيب على سؤالين يبدوان متعارضين للنظر العادي بينما هما . . . وجهان لعملة واحدة ، ومع أن ثقافة العصر قد جعلت منهما قضيتين متصارعتين . . . وهذان السؤالان هما :

- ما حدود أن يعيش الإنسان في دائرة نفسه .
- وما حدود أن يعيش الإنسان للآخرين .

وبتعبير آخر : كيف تبقى الذات الإنسانية في مستوييها الفردي والاجتماعي ، عاملة ومؤثرة بتوازن والتزام .

لقد كانت الثقافة في الماضي هي الشخصية الحضارية للأمة بمعنى الكلمة ، فكان من الممكن التعبير عن الأمة بثقافتها ، بل كان من الممكن تقسيم العالم إلى ثقافات . . .

لكن تقدم وسائل المواصلات ، وبخاصة وسائل مواصلات الفكر . . . يضاف إلى ذلك تلك النزعة الغربيّة الرامية إلى فرض وحدة ثقافية غربية مادية على العالم المعاصر . . . هذان العاملان قد أحدثا التحاما وتشابكاً بين ثقافات الأرض ، بحيث اختلطت الأسلاك من هنا ومن هناك ، وأصبح يمرّ من خلالها كلها ، في الصين ، أو في اليابان ، أو في ألمانيا الغربية ، أو الشرقية ، أو الهند أو أقطار العالم الإسلامي — سلك واحد ، يكاد يشعل الشحنات المنبثة في كل الأسلاك ، هذا السلك الذي أحدث هذا الارتباك والتشابك بين الأسلاك ، وأفقد أكثرها ، أجزاء كبيرة من مقومات ثقافته ، هو سلك الثقافة الغربية .

ولما كان تيار الثقافة الغربية ، والتيارات الدائرة في جاذبيته ، قد دخلها جميعا من أمراض الحضارة ، ما يستحيل معه إمكانية الإرسال والاستقبال الصحيحه . . .

فبالتالي ، وجب توجيه خط كهربائي آخر منفصل . . قائم على دعائم أخرى ، وبعيد كل البعد عن مجال الفوضى الفكرية المتشابكة .

ومن هنا تأتي ضرورة الثقافة الإسلامية للإنسان الحديث ! !

والخطر الآخر الخطير الذي أحدثته السيطرة الأوربية الثقافية . في تصورها المادي ، فضلا عن أنها أفقدت الثقافة محتواها الشخصي للأمة — أنها — أيضا — فرّغت الثقافة من محتواها الديني ، بل إن الذهنية المعاصرة أصبحت تفهم الثقافة على أنها شيء منفصل عن الدين . . .

وإنه لمن المحزن حقاً أن يقصد بالثقافة — في المستوى التطبيقي والتنظيمي الحديث — مراكز العناية بالفنون والآداب وحسب ، وربما بنوع واحد من هذه الفنون والآداب ، وأعني به الفنون والآداب العامية أو « الفولكلورية » .

أما ثقافة الأمة الرفيعة ، فهي منزوية في المعاهد ذات الصيغة الأكاديمية .

ولهذا التدهور في تصور وتوجيه مضمون الثقافة . فقدت الثقافة المعاصرة دورها ، كمحيط يتحرك الإنسان في داخله ، وكبويضة ينمو جنين الحضارة في أحشائها ، وينمو معه جميع خصائصه الحضارية .

ومن هنا فان قيد « الإسلامية » في الثقافة ، وارتباط « الثقافة » بالإسلامية — يُعيد إلى الوظيفة الثقافية دورها في التاريخ . وهو إذ يعيدها إلى دورها ، يعيدها عامرة بكل مضمونها الإيجابي والتاريخي الفاعل. . . ويعيد في الوقت نفسه إلى عالم اليوم المستعمر بالغزو التغريبي المدمر الشامل — الأمل في إمكانية بروز ثقافاته المستقلة ، والأمل في أن تظهر في العالم

« ثقافات » حرة متعددة ، غير مقهورة بالثقافة التغريبية التي تتكئ على استعمارين في آن واحد :

١ – استعمار عسكري وسياسي وأخلاقي مـدمر للحضارة البشرية جمعاء . . .

٢ – واستعمار « تكنولوجي » مدمر لإنسانية الإنسان .

إن أخطر ما يواجه العالم المعاصر هو مايسمى « بالواحدية الثقافية » أي أن يسير قطار الحضارة على هوى السائق المخمور الذي يسمى بالثقافة الغربية .

ومعروف نتيجة قيادة سائق هذا شأنه .

ومن هنا تأتي أهمية الثقافة الإسلامية لعالمنا المعاصر إنها الثقافة التي تؤمن بضرورة الصراع والتنوع .

« ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك . ولذلك خلقهم [1] »

« أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين [2] » .

ومن هنا . . فان الإنسانية المعاصرة تستطيع أن تعيش في ظل هذه الثقافة وتعطي عطاءً متنوعاً وتجد دائما الطريق إلى المثل الأعلى ، الذي يشدّ كل الخيوط الثقافية إليه .

---

(١) هود ١١٨ ، ١١٩ .

(٢) يونس ٩٩ .

الفصل الثاني

بناء الثقافة الإسلامية وحدته العضوية، وأجزاؤه

١ – الثقافة الإسلامية وحدة لا تتجزأ
٢ – العقيدة الإسلامية .
٣ – الشريعة الإسلامية
٤ – الأخلاق الإسلامية

الثقافة الإسلامية وحدة لا تتجزأ :

« الدين » — مهما اختلف في تعريفه — هو الانقياد الكلي لله وفق المنهج الذي يحدده سبحانه [1] — وبالتالي فان التكامل بين الاعتقاد والتشريع والأخلاق ضرورة في كل دين .

ومهما يكن الجانب التشريعي قليلا في أى دين ، فإن هذا الدين لا بُدّ وأن يؤدي بالضرورة إلى ربط سلوك الفرد بتعاليم الله ، والا كان الدين مجرد تأثيرات نفسية لا رصيد لها من الواقع ، كما هو الحال الذي آل إليه أمر النصرانية في كثير من حقب التاريخ ، بسبب إهمال القائمين عليها للجانب التشريعي والاعتماد على النصح الأخلاقي الفردي ، وبسبب شيوع ذلك الشعار الخادع بين أوساط المؤمنين بها : « أعط ما لله لله ، وما لقيصر لقيصر — فهذه القسمة الضيزى لا يمكن أنْ يرضى بها الله سبحانه وتعالى ، وليست من طبيعة الدين . . أيّ دين .

« إن ملكوت الله » شاء النصارى أم أبوا ، هو الدنيا والآخرة معاً . ولا يليق بمقامه وقدره « جل جلاله » — أن يشاركه أحد من عباده في كونه دنيا وآخره ! !

---

(١) أنظر في تعريفات الدين : محمد عبد الله دراز : الدين ص ٣٠ طبعة الكويت .

ولذا فالشريعة إنما هي بمعنى من المعاني ، قلت تعاليمها أو كثرت ، جزء من العقيدة الدينية ، وهي هدفها . . . والعلاقة بينهما هي العلاقة التي تربط القلب بالدم .

أما الخلل الذي جاء في التصور النصراني ، فالحقيقة أن مرجعه ليس إلى أنها دين نشاز عن بقية الأديان ، كلا ، فالحقيقة الدينية في أصلها وطبيعتها واحدة .

وإنما يرجع الخلل ، بفعل ظروف تاريخية — إلى سببين أساسيين :

أولهما : أنه لم يوجد إنجيل عيسى نفسه ، وما وجد ، أو ما عرف من الأناجيل المعتمدة لدى فرق شعب الكنيسة ، وهي الأناجيل الأربعة (لوقا ومرقص ويوحنا ومتى) .. هذه الأناجيل ليست أكثر من مذكرات شخصية دونها تلامذة للمسيح عليه السلام بعد مدة من وقوع الاحداث ، وفي جو مضطرب نفسياً واجتماعياً .

وثانيهما : أن النصرانية ليست الا امتداداً في تشريعاتها لليهودية ، ويعتبر العهد القديم « التوراة » الأصل لهذه الأناجيل ، وبالتالي فهو مصدر للنصارى ، كما عند اليهود ، وهو بالتالي يسد العجز الموجود في الجانب التشريعي لدى النصرانية ! !

ومعلوم أن التعريف المعتمد للتوراة هو أنها «المجموعة الدينية والتشريعية الأولى » [1] وهي تضم ثلاثة كتب :

(١) علال الفاسي : مقاصد الشريعة ص ٢٧ نشر الدار البيضاء .

١ - كتاب الملوك (تـوراة موسى الأصلية ، وخمسـة إصحاحات) .
٢ - كتاب الأنبياء (بعض الأخبار) .
٣ - كتاب القضاة أو الفريسيين (العهد القديم) .

وقد أضاف اليهود فيما بعد إلى توراتهم بأجزائها الثلاثة ، كتابين آخرين هما :

التلمود والبروتوكلات .

وقد استمرت الشريعة الموسوية معمولا بها في الأوساط اليهودية ، وتكونت من التوراة ومن الاثار الشفوية مدونة فقهية تعرف باسم « المشنا » ألفها الحبر « يهود احكادوش » الذي عاش بين سنتي ١٣٥ وسنة ٢١٠ عبرية [١] .

فالجانب التشريعي في الدين اليهودي - جانب بارز وغير منكور ، بل وله فقهه واجتهاداته ، التي اعتبر آخرها وأكثرها خطراً وخطيئة هو « البروتوكلات » !!

وما يقال عن دور اليهودية والمسيحية يقال كذلك عن دور الأديان كلها . وصدق القرآن الكريم الذي يقول للمسلمين ، مترجما هذه الحقيقة . :

« شرع لكم من الدين ما وصىّ به نوحاً ، والذي أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين

(١) المكان السابق .

ولا تتفرقوا فيه . كبرُ على المشركين ما تدعوهم إليه . الله يجتبي إليه من يشاء ، ويهدي إليه من ينيب [1] » .

وإذا كانت هذه هي طبيعة البناء الداخلي لكل دين ، فهذه الطبيعة ألصق ما تكون بالاسلام ، **إذ أن هذه « الانفصـــامية »** ليست من طبيعة المباديء الاسلامية ، لا بين العقيدة ولا الشريعة ولا الأخلاق .

« فللعقيدة » جانبها « التشريعي » المؤكد لها في واقع الحياة.

وما يسمى « شريعة » — قد يتدرج أحيانا — في « الأخلاق ».

« والأخلاق » قد تفرض أو تقنن ، وتصير « تشريعاً » .

بل إن الاجحاف بالعقيدة ، أي الإشراك بالله ، قد اعتبره القرآن عملاً منافياً للأخلاق وللتشريع : « إن الشرك لظلـم عظيم » [2] .

والآية الواحدة من القرآن قد ترد ، وهي شاملة لجوانب العقيدة والشريعة والأخلاق دون أيه انفصامية . ولنضرب مثلا بالآية الكريمة :

« قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحسانا .

« ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم .

---

(١) الشوري ١٣ .

(٢) لقمان ١٣ .

« ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ».

« ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون »[1] .

فجمع القرآن في آية واحدة بين الجوانب الاعتقادية والتشريعية والأخلاقية ، ولم تقف الآية بالدين عند ذلك المعنى الضيق الذي حدده الغربيون للدين ، وسارت عليه الكنيسة ، وهو معنى « العقيدة الشخصية أو الوجدانية » ذلك الذي لا يمتّ إلى حقيقة الدين ولا طبيعته بصلة موضوعية[2] .

يقول الفيلسوف الشاعر محمد إقبال « إن الإسلام كوحدة روحية مثالية يتضمن مبدأين أساسين يساعدان الفرد والمجتمع على مسايرة التغير المستمر في العالم الواقعي ، وهما ختم الرسالة ، والاجتهاد في الأحكام » .

فإقبال هنا يبرز فقهه للاسلام في أنه « وحدة روحية مثالية » تقبل التطور ، بينما هي محافظة على هذه الوحدة .

ويقول الشاطبي في الموافقات : « إن القرآن الكريم كلُ الشريعة ، وهو عمدة الملة ، وينبوع الحكمة ، وآية الرسالة » .

أما الداعية الإسلامي أبو الأعلى المودودي ، فيحدد هذه

(١) الانعام ١٥١ .

(٢) انظر د / محمد البهي : الفكر الاسلامي الحديث ٢٢٥ طبعة مكتبة وهبة «الثامنة» القاهرة .

الوحدة تحت عنوان اسماه : « نظام الشريعة كل لا يقبل التجزئة » — بقوله :

« هذه الصورة للحياة صورة متشابكة متكاملة . ولا طبيعة يمكنها البقاء الا وهي متكاملة الاجزاء والفروع كأن وحدتها كوحدة الجسد الإنساني لأن الشيء الذي تعرفونه بالإنسان إنما هو جسد الإنسان الكامل [1] » .

وعلى هذا « فان جزء الشريعة المعبر عنه — حسب المصطلح الجديد — بلفظ القانون ، إنما هو جزء من خطة متكاملة متشابكة للحياة ، وليس هو في حدّ ذاته بشيء مستقل حتّى يكون من السهل فهمه وتنفيذه مع تجزئته عن كله » [2] وما يقال عن الشريعة يقال عن العقيدة وعن الأخلاق ! !

أما المفكر الذي هداه الله إلى الاسلام وتسمى باسم محمد أسد فهو يعبر عن هذه الحقيقة الشمولية التي استهوته في الإسلام بقوله :

« ولا أستطيع اليوم أن أقول أي النواحي قد استهوتني أكثر من غيرها ، فان الاسلام على ما يبدو لي بناء تام الصنعة ، وكل أجزائه قد صيغت ليتمم بعضها بعضا ، ويشدّ بعضها بعضاً . فليس هناك شيء لا حاجة إليه ، وليس هناك نقص في شيء . فنتج عن ذلك كله ائتلاف متزن مرصوص . ولعل هذا الشعور

(١) نظرية الاسلام وهديه مؤسسة الرسالة ١٥٩ .
(٢) المكان السابق .

من أن جميع ما في الإسلام من تعاليم وفرائض « قد وضعت مواضعها هو الذي كان له أقوى الأثر في نفسي [1] » .

العقيدة الإسلامية :

عقيدة المسلم ، تتلخّص في مبادىء بسيطة واضحة لا غموض فيها ولا التواء .

أولا : لا إله إلا الله أي : الوحدانية المطلقة المنزهة عن كل مظاهر الشرك .

ثانياً : محمد رسول الله وخاتم النبيين « عليه الصلاة والسلام »

ثالثاً : الاعتقاد في نبوة كل من وَرَدَ ذكرهم في القرآن من المرسلين **وفي غيرهم ممن لم يرد ذكرهم وصحت نبوتهم :**

أو بتعبير وجيز «الإيمان بمبدأ الوحي والنبوّة» من ناحيتي القوة « الإمكان » والفعل « الوجود » .

رابعاً : الايمان بالكتب السماوية من ناحية أصل التنزيل ونَبْز ما حـرّف منها .

خامساً : الإيمان بالملائكة .

سادساً : الايمان بالبعث والحساب والثواب والعقاب والجنة والنار والقضاء والقدر « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه

(١) الإسلام على مفترق الطرق ١٥ .

والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله [1] » .

* * *

إن الله في عقيدة المسلم لا يشبهه البشر في شيء « ليس كمثله شيء [2] » .

« قل هو الله أحد الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد » .

إنه سبحانه وتعالى :

* خالق كل شيء :

« الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل ، له مقاليد السموات والأرض » [3]

* والعليم بكل شيء :

« الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد ، وكل شيء عنده بمقدار ، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال » [4]

* والمنعم بكل شيء :

« الله الذي جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناءً وصوركم

---

(١) البقرة ٢٨٥ .
(٢) الشورى ١١ .
(٣) الزمر ٦٢ ، ٦٣ .
(٤) الرعد ٨ ، ٩ .

فأحسن صوركم »[1]

• ومبدع كل شيء :

« بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ، وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم ، ذلكم الله ربكم ، لا إله إلا هو خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل ، لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير »[2] .

وتنزيه الله من كل شبهة تجسيم أو تشبيه — حقيقة « أساسية » من حقائق التصور الإسلامي .

كما أن تفرد الله سبحانه بكل حقوق الربوبية الواحدة حقيقة أساسية في هذا التصور — كذلك .

فهو سبحانه بريء من كل ما تنسبه إليه التوراة من أنه كان يتعب ويستريح أو كان يصارع عبده يعقوب ، أو يتمثل في صورة بشر أو يظلم جنساً من البشر لحساب جنس آخر ، أو يجهل بعض الأنبياء . . . أو يحزن أو يندم . . إلى آخر هذا الزيف من التصورات الساذجة التي لا تليق بجلال الله تعالى سبحانه عن ذلك علواً كبيراً .

كما أنه سبحانه بريء من الولد ، وما يتبعه ، قبل وبعد ، من مشاعر وأعمال . . فالخلق كلهم عبيده وعياله ، وهو يصطفي منهم من يشاء ، ومقياس تفاضلهم جميعاً واحد . . .

---

(١) غافر ٦٤ .

(٢) الأنعام ١٠١ ، ١٠٣ .

وحاشاه أن يتّحد مع أحد ، أو أن يقترب إلى درجة ألوهيته أحد . **أو أن يتجاوز أحـــد مهما كان درجـــة عبوديته** سواء كان عيسى أو محمد . أو إبراهيم أبوالأنبياء ، **فكلهم،** عبيده ورسله . وهذا أكبر فخرهم وشرفهم .

* * *

وحاشاه سبحانه وهو الواحد الأحد المتفرد أن يرضى بعبودية المشاعر **ويتنازل** عن عبوديه السلوك ... أي أن **يقبل** الأعمال المتصلة بالآخرة ، ويتنازل عن أعمال الدنيا ... ولأي شيء جاء الدين إذن ؟ ! !

ألم يأت الدين للدنيا . . نظاماً ومشاعر معاً . . ! !

وإن مقتضى وحدانيته الحقة سبحانه أن يفرد بالعبادة . فلا يُركع ولا يُسجد لسواه ، ولا يؤله غيره . . .

وإن مقتضى هذه الوحدانية الحقة — كذلك أن تخضع أعمال الناس لحكمه سبحانه دون شريك ، من « **مجلس قانوني** » **أو** « تشريع بشري وضعي » **لا يحيط بالبناء الفطري الإنساني فالحكم من مقتضى** عبوديته ، وصدق القرآن الكريم : — « **ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون** » — **وهكذا ، فهو توحيد مطلق ممتد ،ومنساب ، في عالم المشاعر والسلوك ، وليس في هذا التوحيد شركاء ولا أنداد** ، **سواء سموا بهذه الاسماء ، أو تلفعوا بأردية قانونية أو جدلية أخرى .**

الشريعة الإسلامية ومصادرها :

تستمد الثقافة الإسلامية « عقيدة وشريعة وأخلاقاً » منابع حياتها الأساسية من مصدرين أساسيين هما :

أ — القرآن الكريم .

ب — والسنة الشريفة ، وهما اللذان اصطلح على جعلهما مصادر التشريع الإسلامي الثابتة .

* * *

أما القرآن الكريم فهو كتاب الله المنزل على محمد بن عبدالله عليه الصلاة والسلام بلسان عربي مبين ، منجماً في مدة ثلاث وعشرين سنة ، والمتعبد بلفظه ومعناه ، ولا يجوز عليه التبديل ولا التحريف (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون [1]) .

ويحتوى القرآن على (١١٤) سورة ، وعلى ثلاثين جزءا ، وستين حزبا ، و (٢٤٠) ربعا ، وعلى نحو (٦٢١٩) آية .

وقد قرأ الرسول عليه الصلاة والسلام القرآن كاملا على الصحابة . كما هو بوضعه في المصاحف قبل وفاته .وبعد ما توفي النبي محمد عليه الصلاة والسلام . أمر أبو بكر الصديق — الخليفة الأول بعد رسول الله — والذي تولى لمدة عامين فقط ثم مات إثرهما — أمر أحد الصحابة وهو زيد بن ثابت بجمع القرآن من الرقاع وسعاف النخل ومراجعته على حفظ الناس ، مع

(١) الحجر : ٩ .

الاستعانة في ذلك بجيل الصحابة كله ، وهو ذلك الجيل الذي كان يتعبد بالقرآن في صلاته وحياته ، وكان من الورع وخشية الله ، مع مراقبة جيل الصحابة كله — ، بحيث يستحيل معهم أي تغيير أو تحريف ، في ذلك الكتاب الذي يقدسونه ، والذي لا زال عهدهم به حيا لم يجاوز عامين بعد وفاته عليه السلام وكان يتعاون على جمعه صحابة صالحون أبرار مع زيد بن ثابت ، مثل علي بن أبي طالب ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن العباس ، وعبد الله بن الزبير .

ثم في عهد عثمان بن عفان (سنة ٣٠ هـ) نسخت من هذا القرآن عدة نسخ (بدون خلافات لهجية قرائية) ووزعت على الأقطار كلها ! !

« ويشتمل القرآن على أحكام في العقيدة والمعاملات وأخرى في الأخلاق والعبادات وآيات الأحكام المتعلقة بالمعاملات فيه ، وهي أقل من غيرها ، وقد قدرها الغزالي وابن العربي بخمسمائة آية ، قال الشيخ خضر بن حسين رحمهُ الله : واقتصروا في تقديرها على هذا العدد لأنهم رأوا مقاتل بن سليمان وهو أول من أفرد آيات الأحكام في تصنيف قد جعلها خمسمائة آية ، وقد نازعهم ابن دقيق العيد في هذا التقدير ، وقال إن مقدار آيات الأحكام لا تنحصر في هذا العدد ، بل هو يختلف باختلاف القرائح والأذهان ، وما يفتحه الله من وجوه الاستنباط ، والراسخ في علوم الشريعة يعرف أن من أصولها وأحكامها

ما يؤخذ من موارد متعددة حتى الآيات الواردة في القصص والأمثال [1] » .

وينقسم القرآن من حيث الإجمال والتفصيل إلى أربعة أقسام :

١ – التشريع المجمل ، وهو معظم العبادات .

٢ – التشريع الذي فيه البيان على نحو ما . كالأحكام المتعلقة بالجهاد والدفاع عن النفس والعلاقات الدولية .

٣ – التشريع التفصيلي ، ومثاله القصاص والحدود والحلال والحرام من الطعام ، وأصول روابط الأسرة والميراث .

٤ – القواعد العامة للتشريع والاجتهاد [2] .

* * *

أما من ناحية « الموضوع » القرآني ، فهو كتاب حياة » « ومنهج وجود » « للإنسان » بالمعنى الممتد للوجود أي « في الماضي والحاضر والمستقبل » . فالماضي هو ما حكاه القرآن عن قصص الأولين منذ بدء الخليقة ، ومرورا بقافلة الصراع بين الأنبياء وأممهم . وحاضرا من ناحية التشريع الصالح في الحياة الدنيا – فضلا عن ملابسات مسيرة الدعوة الإسلامية ، والقيم المستخلصة منها ، ومستقبلا . . فيما يتعلق بالمستقبل الإنساني على وجه الأرض في ظل تدهور القيم الإنسانية ، وفقدان الصلة

---

(١) علال الفاسي ٨٣ .

(٢) بتصرف واختصار من المرجع السابق .

بالله ، وما يلي ذلك من قيامة وحساب وثواب وعقاب وجنة ونار . . .ويتخلل ذلك كله « منهج تربوي » في تلقي الحقائق والتعامل معها والنظر في آفاق الكون والنفس . كما يتخلل ذلك كله نظرية في المعرفة ، التجريبيّ منها والتجريديّ .

وفي الوقت نفسه ثمة إجابات شافية عن كل التساؤلات الكبرى حول « الميتا فيزقيا » وحول الطبيعة البشرية ، وأسلوب التعامل المنسجم مع الفطرة والسنة الكونية — وكل ذلك يرتبط بالمنهج . . أي بالشريعة ، ولا ينفك عن العقيدة ، كما لا يمكن إحداث أي فصل — سواء على مستوى التصوّر أو التطبيق — بين أجزاء القرآن الكريم . « أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ، فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب ، وما الله بغافل عما تعملون » [١] .

* * *

وقد حظي القرآن بعناية كبيرة دلّت عليها الحقائق التي ذكرناها من ناحية جمعه وتدوينه . وليس في البشرية الآن كتاب يدانيه في هذا ، كما يشهد المستشرقون المنصفون أنفسهم ، وحسبنا أن نراجع واحداً من أبرز الكتب الحديثة عن « التوراة والأناجيل والقرآن في ضوء الحقائق العلمية [٢] » لمؤلفه الجراح

---

(١) البقرة ٨٥ .

(٢) اسم الكتاب : دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة طبع دار المعارف بمصر .

الفرنسي العالمي « موريس بوكاي » لنعرف أن القرآن هـو المصدر الوحيد في الأرض الذي يصح أن ينسب بكل ثقة واطمئنان إلى الله سبحانه وتعالى .

وكما اعتنى المسلمون بالقرآن ، عبادة ، وتلاوة ، وحفظا في الصدور ، وكتابة ، ونشرا في الآفاق ، وترتيلا بالصوت — كذلك أقاموا حول القرآن سوراً من العلوم التي تعيش عليه ، وتستمد وجودها منه ، وتصنع مناهجها ، وموضوع بحثها ، من بعدٍ من أبعاده ، وجانب من جوانبه .

* فهذا علم التفسير الذي كان أول من صنف فيه « عبد الملك بن جريح » المتوفي سنة ١٤٩هـ ومن أشهرهم ابن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ هـ ، إذ صنف كتاباً في ثلاثين جزءاً .

ومن مشاهير المفسرين كذلك الرازي صاحب « مفاتيح الغيب » والزمخشري ، والبيضاوي وغيرهم ، حتى وصل التفسير في العصر الحديث إلى أيدي مفكرين كالشيخ محمد عبده، والشيخ رشيد رضا والمراغي ، **ومحمد أبو زهرة**، والشهيد سيد قطب .

* وهذا علم إعجاز القرآن الذي ألف فيه « الجاحظ » صاحب «نظم القرآن» والجرجاني والباقلاني والرماني والقاضي عياض حتى وصل إلى رشيد رضا في الوحي المحمدي، ومصطفى صادق الرافعي في « إعجاز القرآن والبلاغة النبوية » .

• وهذا علم يسمى « علوم القرآن » يتحدث عن أسباب النزول . والناسخ والمنسوخ . . والمحكم والمتشابه ، والقراءات وجمع المصحف وتدوينه ، وما إلى ذلك ، وقد ألف فيه السيوطي صاحب الإتقان في علوم القرآن — قديما ، ومن المحدثين ألف فيه الشيخ الزرقاني صاحب « مناهل العرفان »والشيخ مناع القطان في كتابه « مباحث في علوم القرآن » .

• وقد أخذ فنّ القصة نصيبا من الاهتمام ، فألف فيه كثيرون منهم في العصر الحديث الدكتور مصطفى عبد الواحد (المصري) ، والدكتور التهامي نقره (التونسيّ) صاحب كتاب (سيكولوجية القصة في القرآن) ، والاستاذ عبد المتعال الصعيدي ، وسقط في فهمه وتحليله وتوثيقة أصحاب الاتجاهات المادية ، ومنهم الدكتور محمد خلف الله صاحب كتاب « الفن القصصى في القرآن »

* * *

وهكذا توافر للقرآن الكريم من وسائل العناية والحفظ والفقه والمعايشه — من أجيال الأمة المسلمة ، جاهلهم ، وعالمهم ما لم يتوافر لكتاب سماوي ، كما أن تدوينه المبكر جدا على خلاف بقية الكتب المقدسة ، والتعبّد به في الصلاة وفي سائر الأوقات — كل ذلك — وغيره — قد جعل القرآن الكريم هو الكتاب السماوي الفريد المعجز الذي « لا يأتيه الباطل من بين

يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » [١] .

وكان هذا الكتاب الكريم الذي لا يرقى إليه شك المصدر الأول للتشريع الإسلامي .

السنة النبوية :

والسنة هي —المصدر الثاني للإسلام فكرا وتشريعا — وهي تنتظم كل ما صدر عن الرسول صلى الله عليه وسلم ودخل في باب التعليم والتربية لأمته ، سواء كان قولا منه — عليه السلام — أو فعلا أو تقريرا .

ودورها أنها تأتي بعد القرآن مبينة وموضحة ومؤكدة ، وقد تأتي باضافة فرعية لم ينص عليها القرآن — « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ، ولعلهم يتفكرون » [٢] وقد بقيت السنة محفوظة في الصدور مدة تزيد قليلا عن ثمانية عقود بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أن تسجيلها كتابة لم يكن مرغوبا فيه ، على نحو عام وشائع ، إبان الفترة الأولى حتى لا تختلط في الذاكرة المسلمة مع تطاول العقود — بالقرآن الكريم .

لكن — وعلى مستوى خاص جدا — أبيح لبعض الصحابة تدوين السنة ، مثل إباحة الرسول عليه الصلاة والسلام لعبد الله

---

(١) فصلت ٤٢ .

(٢) النحل ٤٤ .

ابن عمرو بن العاص — تسجيل الحديث ، كما أن هناك صحابة عرفوا — منذ أيام الرسول الأولى — بالتخصص في متابعة الحديث النبوي مثل « أبي هريرة » — أما القرآن فكانت متابعته واجب الأمة كلها .

وفي عهد الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز (٩٩ — ١٠١هـ) ابتدأ جمع الحديث .

وثمة رواية أخرى تقول بأن هذا الجمع بدأ قبل ذلك أيام إمارة عبد العزيز بن مروان لمصر ت (٨٥ هـ) [١] .

* * * *

ويضع الجراح الفرنسي المعاصر « موريس بوكاي » الحديث النبوي في مرتبة « الأناجيل » من ناحية أنها تنسب إلى رواة ينسبونها إلى النبي عليه الصلاة والسلام ، ومن ناحية أنها مثل الأناجيل — وعكس القرآن — في التأخر الذي لحق بتدوينها [٢] .

لكن الذي لم يدركه « بوكاي » — أن منهج الفحص العلمي الذي خضع له الحديث منهج يفوق بمراحل كثيرة المنهج الذي اعتمد في تدوين وتمحيص الأناجيل . . . فالأحاديث أوثق من الأناجيل ، على الأقل لأن الحديث قد دون بعد ثمانية عقود فقط من وفاة الرسول — لكن الأناجيل — لم يعتمد تدوينها إلا

---

(١) أنظر د /فاروق النبهان : مبادىء الثقافة الاسلامية ١٦٨ طبع الكويت

(٢) أنظر كتابه السابق الذكر طبع دار المعارف بمصر .

بعد ثلاثة قرون كاملة (مجمع نيقية ٣٢٠ م) وقبل ذلك كانت أناجيل عادية كأيه أناجيل . ولو أن اعتماد الأناجيل الأربعة التي تعترف بها الكنيسة جاء نتيجة إخضاع نصوصها للمنهج العلمي ، أو المنهج النقدى التاريخي ، كما جرى في الحديث بواسطة « علم الجرح والتعديل » الذي ينظر في « السند ». « بأسلوب النقد التاريخي » الذى يعني تسلسل الحلقات ، وشخصيات الرواة ، وينظر في « المتن » ومدى انسجامه مع القرآن والحقائق الإسلامية ، وهو ما نسميه بالنقد العلمي للنص .

نقول : لو أن اعتماد هذه الأناجيل جاء نتيجة هذا المنهج لكان من الممكن أن نرتفع « بتوثيقها » إلى المستوى الذي تستحقه — لكن الذي حدث في « مجمع نيقية » كان أشبه بقرار عسكري من « قسنطين » بضرورة إيجاد « صلح » بين الوثنية والنصرانية والانتهاء من الخلافات الدينية القائمة على أساس الخلافات بين نصوص الأناجيل التي وصل عددها إلى نحو مائة إنجيل فيما يقول المؤرخون .

ومعروف من مؤرخي الدولة البيزنطية — أن الأناجيل الأربعة التي أقرت ، لم تحظ بأغلبية من المجتمعين ، وإنما فرضت كما ألمعنا — بتدخل خارجي من قسنطين ، فالسنة النبوية — كما نرى — أوثق من الأناجيل عند العرض على أصول المنهج العلمي .

والسنة تعني الطريقة ، أي أنها تنقل إلينا الطريقة التي نتبين بها كيف قام النبي صلى الله عليه وسلم بترجمة القرآن إلى واقع معاش ، وكيف أفرغ الفكرة الإسلامية في القالب العملي ، وكيف شكل مجتمعا إسلاميا على أساس هذه الفكرة ، ثم كيف نظم هذا المجتمع وأبرزه في صورة دولة كاملة . ، وبهذه السنة — أيضا — نعرف وجهة القرآن الحقيقية ، فكأنها انطباق لمبادىء القرآن على الأحوال العملية تزودنا بسوابق ثمينة للدستور الإسلامي وتحصل بها على مجموعة مهمة كبيرة من التقاليد الدستورية [1] .

ومنذ أربعة عشر قرنا من الزمان والسنة تمثل المفتاح الذي يفهم به أسلوب الحياة الإسلامية ويفهم به سبيل العودة إليها ، وطريق النهضة الإسلامية بوجه عام . ، أليست هي « المثال » الذي أقامه لنا الرسول من أعماله وأقواله !! أليست هي التفسير الأول الصحيح للقرآن الكريم !! ومن جانب آخر تقوم السنة بدور ذي ثلاث شعب :

١ — فهي تمرّن الانسان بطريقة فردية منظمة على أن يحيا دائما في حال من الوعي الداخلي والضبط واليقظة « اعبد ربك كأنك تراه » .

٢ — وهي تمرن الإنسان على أن يكون نافعا اجتماعياً ، وإيجابيا في مواجهة العادات والتقاليد ومتماسكا مع مجتمعه

---

(١) أنظر المودودي : نظرية الاسلام وهديه ٢٣٨ .

الصغير والكبير [1] .

٣ – وهي تجعل من إشعاعات الرسالة، الممثلة في سلوك الرسول حقيقة يمكن أن يتمثلها المسلم ، بمعنى أن هذا المسلم العادي الصغير الموجود في تركيا أو باكستان أو الجزيرة العربية أو أندونيسيا ، أو مصر ، أو ايران – يستطيع أن يتمثل – مع اختلاف في مستوى التمثيل شخصية أعظم مثل أعلا في التاريخ .

أليس اكتمال جوانب العظمة في حياة محمد أمراً اعترف به كل الدراسين والمفكرين والمؤرخين – أصدقاء وأعداء – ماداموا قد درسوا بحياد وإنصاف ، حتى ولو لم يؤمنوا به ، ولعل آخر هؤلاء الدراسين الكاتب الأمريكي المسيحي « مايكل هارت » صاحب الكتاب الذي أحدث « كما يقولون » ضجة عالمية ، وترجم إلى معظم اللغات الحية ، ونشر في عشرات الصحف ، وهو كتاب : « الخالدون مائة أولهم محمد رسول الله » فقد جعل هذا الكاتب (محمدا) عليه الصلاة والسلام في الدرجة الأولى كما نرى من عنوان الكتاب ، بينما جعل المسيح في الدرجة الثالثة ، وموسى – عليهم جميعا السلام – في الدرجة الخامسة عشرة ! ! ومع أننا ننكر مثل هذا الخلط في أفكار الكاتب والنظر إلى عظمة الأنبياء ، بنفس منظار عظمة البشر العاديين ، الذين كان بعضهم أذًى للبشرية – إلا أن ما يركّز عليه هنا هو الشهادة الإنسانية العامة المعترف بها لسموّشخصية

(١) بتصرف من محمد أسد ٨٨ .

نبينا محمد عليه الصلاة والسلام ، وهو الشخصية التي تدور حولها السنة ، قولا وفعلا وتقريرا .

* * *

والسنة قسمان : متواترة ، وأحاديث آحاد .

فالمتواتر ما نقل عن النبي صلى الله عليه وسلم برواية جماعة ممن يؤمن تواطؤهم على الكذب ، عن جماعة مثلهم حتى يصلوا إلى الرسول . . .

.. وكل ما ليس كذلك فهو حديث آحاد .

والأحاديث المتواترة نادرة ، وقد أفردها العلماء بالتأليف ، وممن ألف فيها ابن حجر العسقلاني والسيوطي ، ومن المتأخرين محمد بن جعفر الكتاني .

ولا خلاف بين الأئمة في الحديث المتواتر ، ويستدل به في العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق العامة والخاصة ، أما **حديث الآحاد** ، فذهب جمهور الأمة الى **أنه يستدل به فيما عدا العقائد .**

« وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا »[1] «وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم » [2] « من يطع الرسول فقد

(١) الحشر ٧ .
(٢) الأحزاب ٣٦ .

اطاع الله » (1) . وتصرف الرسول عليه الصلاة والسلام ينقسم أربعة أقسام :

١ – تصرف بالإمامة كالإقطاع وإقامة الحدود وإرسال الجيوش ونحوها .

٢ – تصرف بالقضاء كإلزام أداء الديون وتسليم السلع ونقد الأثمان وفسخ الأنكحة .

٣ – تصرف بالفتيا كابلاغ الصلاة وإقامة المناسك .

٤ – تصرف متردد بين هذه الأقسام (2) . [والجمهور على أن هذه الأقسام كلها من باب التشريع والتوجيه] .

أما الجانب المتطور « الاجتهادي » في الحياة كأمور الحرف والمهن وتدبير الحروب والزراعة وطرق المعيشة والبناء وما إلى ذلك ، فهذه كلها أمور غير تشريعية ويصح فيها – وحدها – قول الرسول عليه الصلاة والسلام : « أنتم أعلم بأمور دنياكم » . وقد نبغ في فن جمع الحديث كثيرون اشتهر منهم في عصر الصحابة أبو هريرة ، وعبد الله بن عمر ، وأنس بن مالك ، وأم المؤمنين عائشة ، وعبد الله بن عباس وجابر بن عبد الله ، وأبو سعيد الخدري .

كما اشتهر منهم في عصر التابعين كثيرون منهم سعيد بن المسيب ، والزهري ومحمد بن سيرين . بيد أن أول من صنف

---

(١) النساء ٨٠ .

(٢) أنظر علال الفاسي : مقاصد الشريعة .

في الحديث الصحيح « كفنٍ » قائم على التمحيص « الإمام أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري المتوفى سنة ٢٥٦ هـ » ثم جاء بعده الإمام أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري (٢٦١) هـ وقد التزما بمنهج علمي صحّ أن يقول فيه الإمام ابن تيمية :

« ليس تحت أديم السماء كتابُ أصح من البخاري ومسلم بعد القرآن » .

الأخلاق الإسلامية :

للجانب الأخلاقي في الاسلام دوره الذي لا ينكر ، وحجمه المناسب لأهميته في الحياة .

وليس لنا أن نتوقع تَنْظيراً مستقلا في البناء الإسلامي ، يسمىّ « بالنظرية الأخلاقية الإسلامية » فهذه الانفصالية بين ما هو عقدي وما هو تشريعي ، وما هو أخلاقي ، لا تسمح بها طبيعة « الإسلام » التي لا تقبل التجزئة .

ومع ذلك فنحن نستطيع أن نرصد أسساً وقواعد للأخلاق في الإسلام ، كما نستطيع أن نرصد أسساً وقواعد للجوانبّ التشريعية والعقدية .

* * *

لا أخلاق بدون التزام . . .

إن هذه القاعده تضطرد في المنظور الإسلامي. . لا بالمعنى

الإلزامي القانوني الظاهري ، ولكن بالمعنى « الإلزامي الداخلي » الذي يواجه بقوة داخلية الانحراف العشوائي نحو الشهوات ، أو نحو التقصير في الواجبات الأخلاقية .

« ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله » [1] .

« فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا » [2] .

والقوة الباطنية الملزمة ، هي تلك القوة الموجهة الفطرية ، التي تستطيع أن تميز بين طريقي الخير والشر « وهديناه النجدين » [3] وتضغط لترجيح كفة الخير « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، فان الجنة هي المأوى » [4] إن هذه القوة الباطنية تعتمد على أن في نفس كل إنسان طاقة نورانية يمكن له بالعقل الواعي البصير أن يشعلها « بأن يقرأ في كتاب فطرته النقية — ما سبق أن فطرها الله عليه ، وبعبارة أخرى فانه عندما يرجع أشد الناس إلحاداً إلى سلطة العقل فإنه لا يفعل سوى الإنصات إلى ذلكم الصوت الإلهي الذي يتكلم في داخل كل منا ، دون أن يذكر اسمه ، وهو ينطق صراحة ، عندما يتحدث إلى المؤمن » [5] !!

---

(١) ص ٢٦ .

(٢) النساء ١٣٥ .

(٣) البلد ٨ .

(٤) النازعات ٤١ .

(٥) دراز : دستور الأخلاق في القرآن ص ٣٦

ويتصل بهذه الفكرة الأساسية ، في التصور الأخلاقي في الإسلام وهي فكرة « الإلزام » فكرتان أساسيتان ناتجان عنها ، يستلزم أحدهما الآخر ، وهما : فكرة المسئولية ، وفكرة الجزاء .

فأما المسئولية ، أي التكليف بمعناه الإنساني العام ، فتحدّده تلك الآية القرآنية الكريمة « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، وحملها الإنسان »[1] .

ويرى الدكتور « محمد عبد الله دراز » ، أن هذه المسئولية تتفرع عنها ثلاثة أنواع من المسئولية :

مسئولية دينية ، ومسئولية اجتماعية ، ومسئولية أخلاقية محضه[2] . ويجمع هذه المسئوليات الثلاث تلك الآية القرآنية الكريمة التي تقول « يأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول ، وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون »[3] وأما فكرة الجزاء ، فتأتي كرد فعل طبيعي على الموقف الأخلاقي الذي التزمنا به وتحمّلنا مسئوليته ، بأعبائها الشخصية والاجتماعية .

* وأنواع الجزاء التي يقول بها باحثو الأخلاق الإسلامية ثلاثة :

---

(١) الأحزاب ٧٢ .
(٢) دستور الأخلاق في القرآن ١٤٠ .
(٣) الأنفال ٢٧ .

١ — جزاء أخلاقي يغلب عليه الشعور النفسيّ ، كما أنه قد يساعد مسار النفس على الاستزادة من الالتزامات الأخلاقية ، فيكون هذا أيضاً نوعا من الجزاء ، وكما يقولون فان الحسنة تلد حسنة ، كما أن المعصية تلد معصية . هذا ، بالإضافة إلى تلك السعادة الروحية التي تغمر النفس ، حين تشعر بأنها أدّت واجباً أخلاقياً . ولعل في حديث الرسول عليه الصلاة والسلام ما يؤكد هذا المعنى « إذا ساءتك سيئتك وسرتك حسنتك فأنت مؤمن » [١] !!

٢ — جزاء قانوني : وهو جزاء يتمثل في الحدود التي جاءت بها الشريعة من قصاص ورجم وجلد غيرها . . .

٣ — جزاء إلهي : ويتمثل في نوعين من الجزاء :

أ — جزاء دنيوي عاجل، وان كان غير كامل؛ لأن الدنيا بطبيعتها غير كاملة : « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينّه حياة طيبة » [٢] .
« ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » .

ب — وجزاء أخروي آجل ، يمتاز بالوفاء والكمال : « وإنما توفون أجوركم يوم القيامة » [٣] « إني جزيتهم

(١) أنظر دستور الأخلاق د /عبد الله دراز فصل «الجزاء» .
(٢) النحل ٩٧ .
(٣) آل عمران ١٨٥ .

اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون » [1] .

* * *

ويقف وراء هذا البناء الأخلاقي الإسلامي ركنان أساسيان، يفرقان بينه وبين سائر النظريات الأخلاقية الوضعية ، وهذان الركنان هما :

أ ــ النيّة ، أي الباعث الداخلي .

ب ــ والدافع ، أي الهدف والغاية .

فمهما تكن مادّة العمل جميلة وطيبة المظهر ، فإن افتقاد أي عمل ، عبادةً . كان أو معاملةً ــ للنية السليمة الخيرة ، وللهدف السامي العلوي ، يجعلان أي عمل مهما كان « أخلاقيا » عملاً تجاريا ، لا يمتّ إلى بناء الأخلاق الإسلامية بصلة . قال عليه الصلاة والسلام عن النية : « إنما الأعمال بالنيّات وإنما لكل أمرىء ما نوى » [2] وقال عن الغاية أو الهدف عندما سأله رجل من الأعراب :

يا رسول الله : الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل ليذكر ، والرجل يقاتل ليرُى مكانه فمن في سبيل الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » [3] .

---

(١) المؤمنون ١١١ .

(٢) رواه البخاري .

(٣) رواه البخاري ومسلم .

الفصل الثالث

الثقافة الإسلامية

في وجه العقائد والمذاهب المتصارعة

تمهيد :

١ – النصرانية والتبشير الكنسي

٢ – اليهودية والصهيونية

٣ – الشيوعية (المادية الجدلية)

٤ – الوثنيات والمذاهب الفوضوية

(— تمهيد)

إن تعايش العقائد وتعاصرها على امتداد التاريخ حقيقة إنسانية اعترف الإسلام بها منذ جاء « ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك، ولذلك خلقهم [1] » « قل يأيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد » [2] « وما أكثر الناس ولو حرصتَ بمؤمنين [3] .

وبالتالي فان ما يسمى بالنظرة الواحدية للتاريخ ، أو الوحدة العالمية المرتقبة ، أمر لم يَسَعَ الإسلامُ إليه ، باعتباره خارجاً عن نواميس الكون ، وتخديراً « طوباويا » يشبه أحلام صانعي المدن الفاضلة في التاريخ . . .

وهذا هو التاريخ الماضي الطويل أمامنا . . .

وهذا هو الحاضر أيضاً . . . **كلاهما شاهد على صـــدق الرؤية الإسلامية في رفض النظرة الواحدية !! لكن الذي يؤمن به المسلمون ويسعون بكل جهدهم إليه هو أن تَضعَ عقائد**

(١) هود ١١٨ ، ١١٩ .
(٢) الكافرون ١ — ٣ .
(٣) يوسف ١٠٣ .

الأرض أسساً موضوعية للبحث والحوار فيما بينها . .
وأن يكون أسلوب الحوار العقلي الهادىء الذي ينشد الحقيقة — وحدها — هو الطريق الذي يسير فيه الجميع ، وأن تكون الوسائل شريفةً مطابقة للغايات الشريفة . . لأن العقائد الصحيحة لا يمكن أن تلجأ إلى أساليب كريهة ، تُنَفِّر الناس وتصطدم مع الفطرة وتشوه الغايات .

ونحن المسلمين ، عندما كنا أصحاب حضارة متفوقة مسيطرة — كان بإمكاننا — لو كان ذلك جزءاً من ديننا — أن نظل في حرب مع الناس حتى نرغمهم على عقيدتنا . . لكن وجود أقليات غير إسلامية عاشت ، ولا زالت تعيش ، أطيب حياة في كل بلد إسلامي — دليل قوي على أننا نحن المسلمين لم نفعل ذلك — بل شهد تاريخنا أن التسامح كان صفة أصيلة في كل سلوكنا . . وكما يقولون ، فإن الشذوذ لا حكم له . ويقول قرآننا الكريم : « أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن »[1] ويقول «كذلك زيَّنا لكل أمة عملهم[2] » — ويقول أيضا : « فأما الزبد فيذهب جفاءً وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض[3] » . . وثمة عشرات الآيات التي تبين طبيعة المنهج الإسلامي في التعامل

(١) النحل ١٢٥ .
(٢) الأنعام ١٠٨ .
(٣) الرعد ١٧ .

مع العقائد الأخرى ، وهو — **كما نرى — منهج ، يعتمد وسائل هادئة كريمة ، ويؤمن بأن البقاء للأصلح** . . أي للحق وحده . وبناءً على هذا ، فإن ما بيننا وبين العقائد في الأرض قديما وحديثا ، إنما هو تعايش مسالم — من جانبنا — وهو بحث عن الحق ، وإيمان بالبقاء للحق وحده .

* * *

لكن العصور الحديثة شهدت خللاً في موازين القوى في العالم ليس لصالح المسلمين ، كان من أسبابه أن أهمل المسلمون الأخذ بأسباب القوة المادية والفكرية ، وركنوا إلى الدعة والسكون ، والمفاهيم المغلوطة في حق دينهم . . فأصبح الزهد تواكلاً ، وأصبح القرآن لا يجاوز حناجرهم ، وأخذوا بنصف القرآن وأهملوا نصفه الآخر ، وانفصلوا حضارياً عن عصور ألقهم ومجدهم . . . واختلفوا هل يركنون إلى العقل أم الوحي ، وكأن العقل والوحي ضدان لا يجتمعان وتفشّت أمراض كثيرة من هذا القبيل . . . ففوجىء المسلمون في القرن الثامن عشر بأنهم آخر السلّم الحضاري . وبأن عصر « الرّمح » قد ولّى وحل مكانه عصر المدفع والقنبلة . . .

وأخذ المسلمون موقع المُدَافع ، بعد أن كانوا قادة الأرض يُنْصرون بالرعب. وأجهز عليهم عدوهم بكل ثقله، مستخدما كل الوسائل غير الشريفة ، وأفاق المسلمون على أخطار داهمة ، من تبشير نصراني لا يهاجم بالحجة ، وإنما بالمدفع الاستعماري وبغيره من الوسائل التي سنبسطها في ثنايا البحث ، ومن يهودية

تتعاون مع النصرانية التبشيرية في هذا الغزو ، وتقتسم معها الأسلاب والمغانم ، ومن شيوعية جدلية لا تقل عنها خبثـا وسفكاً لدماء المسلمين وتهجماً على عقائدهم ، ومن وثنيات وفوضويات تحاول- بدورها- أن تغزو **هذا التراث الإسلامي**.

* * *

ومنذ القرن الثامن عشر والمعركة مستمرة تتعدّد فيهـا الأسلحة ، ويفيق المسلمون - في أثنائها - على خطر ليكتشفوا أن ثمة خطرا آخر داهما يقترب منهم . . .

* * *

وفي الصفحات التالية نركز على أبرز هذه العقائد التي تهاجم الثقافة الإسلامية والإنسان المسلم . . .

وفي تصورنا أن أهم هذه العقائد هي النصرانية (التبشير) واليهودية (الصهيونية) ، والشيوعية (المادية الجدلية) و (الوثنيات) وما يتبعها من عقائد فوضوية .

١ - (النصرانية)

اللقاء التاريخي بين الإسلام والنصرانية :

كان لنا نحن المسلمين — منذ ظهو ديننا على وجه الأرض — موقف مشرف من النصرانية . لم يشترك فيه أحد غيرنا من أبناء العقائد الأخرى .

وهذه بديهية من بديهيات التاريخ لا تحتاج إلى كثير من الأدلة وحسبنا أن نستشهد في هذا المجال بالكلمة التي ألقاها الكاردينال (أنريكي تراتكون) مطران مدريد ورئيس أساقفة أسبانيا في مناسبة افتتاح ندوة للحوار المسيحي والإسلامي بمدريد . . . قال : « إن علينا نحن المسيحيين أن نعترف بالانشراح الذى نشعر به إزاء المكانة التي يحتلها في الإسلام عيسى ومريم والدين المسيحى . إن هناك كثيرا من النصوص القرآنية التي تسمي عيسى « مسيحا » و « رسول الله » و « كلمته » ، وتساعد مهمته العالمية ورسالته ، وتؤكد بكارة مريم وقداستها ، وتوصي بمعاملة المسيحيين معاملة أخوية ومحترمة . . .

وإن لمن العدل أن نعترف بأن الإسلام هو بلا ريب الدين (الوحيد) غير المسيحي الذي يعظم المسيح تعظيما كبيرا » .

هذا ما قاله الكاردينال (تراتكون) ، ولعله لا يدري أن هذا جزء أساسيّ من ديننا نتعبَّد به ونعتبر أي مساس بشخص (عيسى وأمّه) إنما هو كفر بالإسلام كله مثل الكفر بمحمد « لا نفرق بين أحد من رسله [1] » . . وقد سار تاريخنا كله نظيفا في هذا الجانب .

إن هذا كله من البديهيات . . لكن المشكلة هي ماذا قدم الجانب الآخر على مستوى الفكر ، وعلى مستوى التجربة التاريخية خلال أربعة عشر قرنا هي عمر الإسلام في الأرض ؟!

من بديهيات التاريخ التي يجمع عليها مؤرخو النصرانية والإسلام أن اللقاء الأول بين الإسلام والمسيحية كان لقاء وديًا غاية الود .

فمن خلال ذلك الرجل الصالح « نجاشيّ الحبشة » الذي آوى اللاجئين المسلمين وحماهم من أعدائهم .

ومن خلال ما ورد في القرآن الكريم بشأن عيسى عليه الصلاة والسلام وأمه العذراء البتول مريم وهو ما سمعه النجاشيّ من فم جعفر بن أبي طالب ، وبكى له حتى اخضلَّت لحيتهُ ، وبكى له أساقفته حتى أخضلوا أناجيلَهم ، ثم قال النجاشيّ كلمته المعروفة الذائعة بين المسلمين : « إن هذا و الذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة » .

---

(١) البقرة : ٢٨٥ .

ومن خلال تعاطف المسلمين مع دولة الروم وتنبؤ القرآن بانتصارها ، وهو ذلك التنبؤ الذي عجب له مؤرخو النصرانية والدولة البيزنطية ؛ لأن كل الشواهد كانت تخالفه ـ من خلال ذلك كله ، فضلا عن موقف المقوقس عظيم القبط في مصر تكونت بداية طيبة كان في الإمكان أن تكون فاتحة خير كبير ، بحيث يكون الأمر « صراع فكر » لا صراع حرب ! !

* * *

ونحن نستطيع أن نقول بكل حيدة علمية مستعينين في حكمنا هذا بكل قراءاتنا للمؤرخين النصارى بالدرجة الأولى : إن المسلمين كانوا دائما أكثر تسامحاً وانصافا مع المسيحيين ، وقد عاشت الأقليات المسيحية في المجتمعات الإسلامية على نحو أرقى عشرات المرات من حياة الأقليات المسلمة التي كثيرا ما اضطهدت أبشع اضطهاد . وعقدت لها محاكم تفتيش في المجتمعات المسيحية ، بل إنه لا وجه للمقارنة بين هذه وتلك كما أن النظرة الكريمة إلى المسيح ، لم تتغير في الفكر الإسلامي لأنها جزء من عقيدة المسلمين على الرغم من كل إساءات المستشرقين المتعمدة (ومعظمهم من رجال الكنيسة) ومغالطاتهم العلمية الفاحشة التي روجوا لها وخدعوا بها الإنسان الأوربي قرونا متطاولة ، وذلك فيما يتعلق بحقائق الإسلام وبشخصية نبيه محمد عليه السلام .

وحتى في العصر الحديث ، ومع انحسار دور الكنيسة الروحي في المجتمعات الأوربية والأمريكية وانهزامها التام في روسيا والصين ودول الكتلة الشرقية التي كانت المسيحية هي السائدة فيها . . . أي بإيجاز مع أن الكنيسة قد غلبت على أمرها في مواقعها الحيوية والأساسية ، فانها ما زالت متشبثة بالحرب الدائمة ضد الإسلام سواء في مجال الفكر أو الحركة .

وهي في ذلك تضع أيديها في أيدي الاستعمار الحديث ، ولعلها تصور له أنها الستار الواقي والجدار القوي الذي يقف ضد الزحف الإسلامي الذي من شأنه أن يحول دون تحقيق الأطماع الاستعمارية في إفريقيا وآسيا ، والذي يمكن كما تتصور الكنيسة — أن يهدد أوربا وأمريكا . !

وهذا دور نربأ بالكنيسة أن تكون قد رضيته لنفسها في هذا العصر الحديث ، وإن كانت كل الشواهد تؤكده ، بل إنها لتؤكد أنكى من ذلك ، حين تدل القرائن كلها على أن الكنيسة تضع يدها حتى في يد الشيوعية الملحدة إذا كان الأمر يتعلق بالإسلام والمسلمين .

أما تواطؤ الكنيسة مع الصهيونية ضد الإسلام في كل بلاد أمريكا وأوربا وافريقيا وآسيا . فأمر لا يحتاج إلى دليل ، مع أن اليهود هم أكثر من أساءوا إلى المسيحية ، وإلى شخص المسيح عليه السلام ، لكنها « السياسة » التي تجعل أصحابها ينسون تحت ظلالها بعض أساسيات الدين .

ولعل المفكرين المسيحيين، وهم الذين اكتشفوا بروتوكلات حكماء صهيون ، لا يزالون يذكرون قول اليهود في بروتوكلاتهم[1] : « لقد اهتممنا بأسقاط هيبة الأكليروس عند الأمميين ، ولقد خطونا خطوة عظيمة في هذا السبيل فأصبح نفوذ الأكليروس على الشعب يتناقص . . ولن يمر القليل من الأعوام حتى يتلاشي الدين المسيحي » .

« ومتى حان لنا أن نمحق قصر الفاتيكان تهجم عليه جماعات تُديرها يدٌ غير منظورة . وإذ ذاك يصبح ملكُ إسرائيل البابا الحقيقي للعالم ورأس الكنيسة الدولية » ! !

ثم تطورت الأمور بين المسيحية والإسلام إلى ما هو أكثر من الحروب العابرة والاتفاقات مع أعداء الإسلام ، وأعداء الأديان كلها . . ضد الإسلام ، باعتباره من وجهة النظر الكنيسة (الخطر الأكبر) . . . أجل تطورت الأمور إلى ما هو أكثر من ذلك فأعلنت الكنيسة في العصر الحديث ـ حرباً عالمية شاملة على الإسلام . راغبة في التخلص منه إلى الأبد ، كما يخيل لها .

وتلجأ الكنيسة في حربها إلى الأسلوب السياسيّ (والميكيافيللي) المعروف ، فهي تستغل كل الوسائل المشروعة وغير المشروعة ضد الإسلام . وهي ـ أيضا ـ مستعدة للتعاون حتى مع الشيطان . . ضد الإسلام .

(١) البروتوكلات بترجمة التونسي ص ٦٨ .

ومع أننا نرى إعلانات بابوية متكررة عن ضرورة « الحوار بين المسيحية والإسلام » - إلا أننا لم نر ولو (لحظة هدنة) واحدة في حرب الكنيسة العالمية على الإسلام . حتى باتت ضرباتها الآن على مقربة من قلب العالم الإسلامي ومركز الإشعاع الروحي للمسلمين .

ففي اليمن الجنوبي تسكت الدول النصرانية ، وعلى رأسها أمريكا ، على المد الشيوعي ، بل ولا نبالغ إذا قلنا إنها تحرسه وتدعمه .

وفي اليمن الشمالي ثمة غزو تبشيري تتبناه أمريكا والسويد وغيرهما ، ويتمثل في عدة مخالب قوية مثل ما يسمى بمكاتب التنمية الدولية الأمريكية أو مشاريع (ساعد نفسك) أو الجمعية السويدية ، أو بيت النشاط الثقافي السويدي ، أو مستشفى جبلة المعمداني في تعز ، أو منظمة « اليونسيف » للتغذية والإغاثة الكاثوليكية ، أو مشروع تطـــوير التعلـيم ، أو فـرقة السلام الأمريكية ، أو معهد السكرتارية في صنعاء ، وهلم جرا من وسائل أو قُلْ مخالب الغزو التطويقي الذي يقف على مقربة من قلب العالم الإسلامي . . من « الكعبة » . وَخَلْفَ هذا الخط الأول للهجوم تقف خطوط أخرى كثيرة مثل القرن الأفريقي . . كالصومال . . وجنوب السودان الذي اشتراه التبشير الفاتيكاني في صفقة من أغرب الصفقات في التاريخ ! !

وتكاد « أرتريا » — كجزء من هذا الخط الثاني — تسقط أمام « مانيجستو » الشيوعي ، بل إنني أومن بأنها سقطت فعلا ، ومعروف أن الشيوعية في الحبشة يؤيدها التبشير ، كما كان يؤيد هيلا سلاسي سواء بسواء ، ما دام الأمر يتعلق بالإسلام .

ثم تأتي خطوط أخرى كثيرة . . لكن أكثر الخطوط الآن تعرضاً للدمار الكنسي هو خط الفلبين وتايلاند وأندونيسيا (في آسيا) وخط نيجيريا ، ومصر في إفريقيا . . .

وسوف نلقي أضواء كافية على نماذج واقعية من هذه الغارة التبشيرية ، بعد أن نعرض بشيء من البسط لقصة الغارة التبشيرية وأبعادها ، وللعقيدة النصرانية وموقف الإسلام منها .

عقيدة النصارى والموقف الإسلامي منها :

للنصارى أن يؤمنوا بما شاءوا « لكم دينكم ولي دين [1] » « لا إكراه في الدين [2] » ، لكننا نحن المسلمين نعتقد أن نصرانية العصر الحديث ، تلك النصرانية ، المنتشرة الآن ليست هي النصرانية التي تنزلت على المسيح — عليه الصلاة والسلام — وإنما هي نصرانية جديدة اتفق عليها في مجمع « نيقية » بضغوط « قسطنطين » سنة ٣٢٠ م . أي بعد ثلاثة قرون من وفاة المسيح ورفعه إلى السماء .

(١) الكافرون ٦ .
(٢) البقرة ٢٥٦ .

وعقيدتُنا أن الله لا والد له ولا شريك ، وأن المسيح عبد الله ورسوله مثله مثل إبراهيم ونوح وموسى ومحمد وسائر الأنبياء المرسلين .

ونحن نبني عقيدتنا على أسس الفطرة ، وعلى تنزيهنا لله سبحانه ، وعلى معقولات الأشياء ، وأدلة التاريخ الصحيح .

وما كنا نقوله على امتداد تاريخنا أصبح فكراً رائجاً بين عقلاء النصارى ، يدل على ذلك آخر كتاب ظهر لمؤلفين نصارى ، واسمه « المسيح ليس إلهاً [1] » وللأسف فان هذا الكتاب لم يترجم بعد حتى كتابة هذه السطور ! !

أما كتاب « موريس بوكاي » الجراح النصراني العالمي الذي كشف فيه تناقضات الأناجيل ، مما يستحيل معه أن تكون صادرة عن مصدر واحد هو « الله » الذي لا يمكن أن يصدر عنه سبحانه متناقضات . . . أما هذا الكتاب فقد ترجم إلى اثنتي عشرة لغة ، ولقي احتراما كبيرا من سائر الأوساط العلمية ! !

إنه من سوء حظ البشرية أن إنجيل المسيح ، أي كلامه نفسه لفظاً ومعنى . . لم يصل إليها . . وإنما الذي نقل إليها هو مجموعة مذكرات شخصيه لبعض تلاميذه الذين لا يرتفع أكثرهم فوق الشبهات .

وقد اختلفت التصورات ، وتقاتلت ، حول ذات الله نفسه ، إلى أن أراد قسطنطين القضاء على الفتن ، فعقد مجمعه

---

(١) الترجمة اللفظية لعنوان الكتاب هى : «وهم الإله المجسم» .

الشهير ، وأرغم القساوسة على الوقوف عند تصور يرضي الجميع ، كحل وسط . فكان هذا الحل الوسط هو تقسيم المسيح عليه السلام بين الألوهية والبشرية . . فهو بشر إله . . أو إله بشر . . تماما مثل الزيت والماء ! !

وهذا في الحقيقة تصور غريب . . لأنه إما خالق فهو إله ، وإما مخلوق فهو بشر . . أما أن يكون إلها وبشراً فهذا خلط عقلي غريب .

وعن مرتبة التوراة (العهد القديم) والأناجيل (العهد الجديد) كمصادر للوحي – يقول موريس بوكاي :

« لم يكن يجرى الحديث (منذ مجمع نيقية) حتى مجمع الفاتيكان الثاني (١٩٦٢ – ١٩٦٥) عن أصالة نصوص التوراة والأناجيل ، باستثناء الاختصاصين النادرين . . . ومن ذلك أنه ما من أحد كان يتجرأ على أن يتشكك في كونها – أي الأناجيل – تنقل إلينا كلام عيسى بدقة وإحكام : فهو – كما كان يقال – نتاج شهود مباشرين لرسالته – ألم تكن الأناجيل تدعى « مذكرات الحواريين » ؟ ولكن لائحة من لوائح مجمع الفاتيكان الثاني في سنة ١٩٦٥ لم تنح هذا النحو بصورة قطعية .

غير أن هذا التصور قد هاجمته بعد سنوات قلائل من المجمع الأخير بحوث أخذت تظهر ابتداء من سنة ١٩٧٠ وهي من إنتاج « لا هوتيين » مسيحيين أنفسهم . فقد قام هؤلاء بدراسة دقيقة للنصوص مستعملين كل العناصر التي تمنحها لهم

المعرفة العصرية في مجال علم اللغة وعلم الآثار ، والتاريخ .. إلخ ..

فقد أصبح الناس اليوم يسلمون بأن الأناجيل الشرعية الأربعة ليست سوى ترجمة لما كانت تعتقده في عيسى جماعات مختلفة لا تتفق فيه — كما يبدو من النصوص — على رأي واحد، لأن أحداثا من رسالته قد عولجت بصورة تختلف باختلاف نظرة أصحاب الأناجيل الناطقين بلسان تلك الجماعات — إن شروح الترجمة المسكونية الأخيرة للتوراة (العهد الجديد ١٩٧٢) وهي عمل اشترك في انتاجه أكثر من ١٠٠اختصاصي من الكاتوليك والبروتستانت لتصرح بذلك دون أدنى التباس أو غموض ، كما تعبر عنه أيضا أعمال مدرسة القدس التوراتية ، هذا إذا اقتصرنا على أهمها فقط .

بيد أن مجمع الفاتيكان كان قد استثنى ، في الحقيقة ، العهد القديم ، إذ أكد في التصريح المجمعي رقم ٤ أن هذه الكتب « تتضمن نقصاً » بل وحتى « باطلاً » وتبين الأعمال الحديثة أنه من المشروع تقويم الأناجيل بمثل هذه التقويمات [١] !!

فكيف نتصور كون هذه الأناجيل لا تنقل إلينا الا الحقيقة التي أوحى بها الله عندما نجد فيها مقاطع لا يقبلها العقل ولا المنطق ولا التاريخ اطلاقاً ؟ — وهي أكثر من أن تحصى ؛!!!

---

(١) نقلا عن محاضرة بوكاى في الملتقى الفكري الثاني عشر بالجزائر م ١٩٧٨

وفي موضع آخر يصل « بوكاي » النصراني إلى النتيجة الحاسمة . . فيقول : « وكانت التوراة ــ العهد القديم ومثلها العهد الجديد ــ قد وفرت مجالاً للتفكير في تعارض صارخ بين بعض مقاطع نصوصها ، وبين المعارف الحديثة ، وما كان جديرا بالبحث عنه هو سبب وجود هذه التعارضات في نصوص تنقل إلينا وحي الله . على أن ما يجرى مجرى اليقين منذ أن حصلت لنا مفاهيم كانت إلى ذلك الحين ، تعوزنا عن أصول نصوص التوراة ، وعن صياغتها التحريرية ، وبلوغها إلينا ، هو أن دور التلاعبات البشرية بها دور كبير جدا ، وأن كثيرا من النصوص هي كتابات المناسبة الظرفية مثل قصة التكوين الكهنوتية ، أو حتى كتابات النضال ، كما يقول سماحة الأب « كننجيسر » في وصفه للأناجيل ، وفي هذه الظروف تجد حالات عدم التوافق مع المعارف العصرية تفسيرها الكامل . والذي كان يمكن أن يدهشنا هو عدم تضمنها لمثل هذه الحالات المتنافية[1] .

* * *

والحق أن ما انتهى إليه « موريس بوكاي » وأمثاله ــ أمر مقرر في تراثنا منذ اشتبك الإسلام مع المسيحية ، وعرض المفكرون المسلمون المسيحية على محك النقد . . . وللإمام ابن تيمية كتاب مستقل في الرد على من بدّل دين المسيح « الرد

(١) الموضع السابق.

الصحيح على من بدّل دين المسيح » حافل بالردود العلمية على ما طرأ من تغيرات وتحريفات بشرية على المسيحية وأناجيلها .

كما أن أبا محمد على بن حزم — أحد مؤسسي علم مقارنة الأديان في العالم — قد انتهى إلى نتائج خطيرة عند ما درس المصادر الأصلية للمسيحية وهي المصادر التي يعترف بها النصارى انفسهم .

ومن مناقشات ابن حزم للنصارى في عقيدتهم قوله :

« ليس في باب المحال أعظم من أن يكون الذي لم يزل يعود محدثاً لم يكن ، ثم كان [1] » ومن ياتُرى دبّر العالم خلال الثلاثة أيام التي يقولون إن التحول قد تمّ فيها ؟

وكيف يمكن أن يصبح الثلاثة شيئاً واحدا ؟ وبأي معنى — إذن — استحق أن يسمى أحدهما أباً والآخر ابناً ، مع أن الإنجيل يقول : سأقعد عن يمين أبي ، وأن القيامة لا يعلمها إلا الأب وحده ، فهذا يوجب أن الأب غير الإبن .

وإن كانت الثلاثة متغايرة فيلزم أن يكون في الابن معنى من الضعف أو الحدوث يوجب أن ينحطّ عن درجة الأب . والنقص ليس من صفة الذي لم يزل [2] .

وأما ما يقول به النصارى من اتحاد الإله مع الإنسان كاتحاد الماء يُلقى في الخمر أو الزيت — فيردّ عليه ابن حزم متسائلا ..

(١) الفصل ١ /٤٩ .
(٢) الفصل ١ /٥٠ .

تُرى أيهما استحال في الآخر الإله أم الإنسان ؟ وأيهما أصبح عرضا والآخر جوهراً ؟ وأيضاً إن كان الإله استحال إنسانا فالمسيح — إذن — إنسان ، وإن كان الإنسان استحال إلها فالمسيح إله [1] ! !

* * *

ومن أساليب مناقشة ابن حزم للنصارى استعراضه لكتبهم وبيان ما يعترض به عليها من الناحية التاريخية والتدوينية (ونحن نستشهد به كنموذج لمفكري الإسلام المتخصصين) :

« والنصارى لا يدّعون أن الأناجيل منزلة من عند الله على المسيح ، ولا أن المسيح أتاهم بها ، بل كلهم لا يختلفون في أنها أربعة تواريخ ألفها أربعة رجال معروفون في أزمان مختلفة . . . أولها تاريخ ألفه « متى اللاواني » بالعبرانية بعد تسع سنين من رفع المسيح ، في نحو ثمان وعشرين ورقة بخط متوسط [2] . والآخر تاريخ ألفه « مارقش الهاروني » بعد اثنين وعشرين عاما من رفع المسيح عليه السلام ، وكتبه باليونانية في أنطاكية ، والثالث تاريخ ألفه « لوقا الطبيب » تلميذ شمعون باطرة ، كتبه باليونانية بعد تأليف مرقص المذكور في حجم إنجيل متى ، والرابع تاريخ . ألفه باليونانية (يوحنا بن سيذاى) بعد رفع المسيح ببضع وستين سنة في أربع

---

(٢) أنظر الفصل ١ /٥٥ .

(١) أنظر الفصل ٢ ٢ .

وعشرين ورقة [1] ثم ليس للنصارى كتاب يعظمونه سوى « الافركسيس » الذي ألفه لوقا ، وكتاب (الوحي والإعلان) ليوحنا ، و « الرسائل القانونية » ورسالتين لباطرة شمعون . ورسالة ليعقوب بن يوسف النجار ، وأخرى لأخيه يهوذا ، ورسائل بولس تلميذ شمعون [2] . . .

وكل كتاب لهم بعد ذلك فهو من تأليف المتأخرين من أساقفتهم وبطارقتهم [3] . وبديهي أن ما ألفه فرد – ونسبه إلى الله – لا يمكن أن يكون في ثقة ما صدر عن الله مباشرة باللفظ والمعنى ، بدليل ذلك التفاوت في الأساليب والمضامين بين هذه الأناجيل ، حتى في العقيدة ذاتها – مع أن **ما يصدر عن الله إنما هو شيء واحد في أسلوبه ومضمونه**،أما ما يصدر عن البشر فحقيق به أن ينزل إلى هذا المستوى من التناقض والتحريف !

* * *

وكنموذج لمدى التناقض في هذه الكتب ، مما يسقطها كلها، ويجعل قول ابن حزم فيها صائبا موضوعياً – يسوق إلينا ابن حزم التصورات المتناقضة للمسيح ، والتي عبرت عنها هذه الكتب . . . فيقول :

---

(1) أنظر الفصل ٢ /٢ ، ٣ . وأنظر في ذلك دراسة الدكتور أحمد شلبي : المسيحية ١٠٣ وما بعدها و ص ١٧٤ وما بعدها .
(2) أنظر الفصل ٢ /٣ .
(3) أنظر المكان السابق وأنظر ص ٦٩ وما بعدها .

« وجملة أمرهم في المسيح عليه السلام أنه مرّةً بنصّ أناجيلهم ابن الله ، ، ومرّة هو ابن يوسف ، وابن داود ، وابن الإنسان ، ومرة هو إله يخلق ويرزق ومرة هو خروف الله ، ومرة هو « في الله » ومرة هو في تلاميذه ، وتلاميذه فيه ، ومرة هو علم الله وقدرته ، ومرة لا يحكم على أحد ولا ينفذ إرادته ، ومرة هو نبي وغلام الله ، ومرة أسلمه الله إلى أعدائه ، ومرة قد انعزل الله له عن الملك ، وتولاه هو ، وصار يولي أصحابه خطة التحريم والتحليل في السموات والأرض ، ومرة يجوع ويطلب ما يأكل ، ويعرق من الخوف ، ويفشل فيركب حماره ويؤخذ ، ويلطم وجهه ويضرب رأسه بالقصبة ، ويُميته الشرط ، ويصلب بين سارقين ، ومايت ودفن ثم قام بعد الموت فلم يكن له من همٍّ بعد أن قام إلا طلب ما يأكل ثم انطلق إلى شغله [1] » .

* * *

ومع كل ذلك ، فنحن المسلمين ندعو الناس إلى الحق بالحسنى ، ونقول لمخالفينا من أهل الكتب « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون [2] »

(١) الفصل /٢ /٦٩ وأنظر د /أحمد شلبي /المسيحية /٨٤ .
(٢) آل عمران ٦٤ .

لكن النصارى لم يرضوا بهذا السلام ، ومنذ ظهر الإسلام وهم يعلنون على الإسلام حرباً عالمية طاحنة ، ويسخرون لذلك كتائب مجندة ومدرعة بأحدث الأسلحة العصرية المادية والفكرية . . . وهذه الكتائب يطلق عليها . . . كتائب التبشير ، ولها — في الحق — خطرها الجسيم على العالم الإسلامي ، وتوشك أن تزلزل قواعده — إذا لم يستيقظ المسلمون على حقيقة ما يدبِّره التبشير لهم .

قصة التبشير :

كان ارتداد فلول الصليبيين منهزمة أمام جيوش المسلمين في الحروب الصليبية باعثاً على التفكير في وسيلة أخرى للقضاء على المسلمين ما دام الصدام المباشر والملح لم يفلح في الإجهاز على هذه الأمة ، بل كان في أكثر الأحايين باعثاً على وحدتها وإظهار معدنها الأصيل . .

ولقد عقدت عدة مؤتمرات ودار جدل طويل حول الأسلوب الجديد الذي يجب اتباعه للغارة على العالم الإسلامي . . ثم تمخضت هذه المؤتمرات وهذا الجدل عن الإيمان بمعادلة بسيطة واضحة :

« إذا كان هدف الغرب من القضاء على المسلمين هو القضاء على الإسلام وقوته السياسية والمعنوية . . . فلماذا لايتجه الغرب مباشرة للقضاء على الإسلام. . وهو الطاقة المحركة للعالم

الإسلامي ، وبهذا يبقى المسلمون بلا طاقة محركة . . أي منطقة فراغ يمكن ملؤها بأي طاقات أخرى كالمسيحية أو الشيوعية » . . .

وكانت هذه المعادلة هي المنهج الذي سار عليه الغرب منذ ارتداد الجيوش الصليبية وحتى اليوم . . . ولم يكن صدامه المباشر مع المسلمين في القرنين التاسع عشر والعشرين إلا مرحلة تأكيدية للقضاء على الإسلام وعلى قوته السياسية والمعنوية . . على أنه في نفس مرحلة الاستعمار العسكري هذه كان يستغل انتصاراته التي كان يطوق بها العالم الإسلامي من أطرافه . . . فيتبعها فوراً بمخطط تبشيري يقضي به على ما يكون قد بقي لدى المسلمين من طاقة إسلامية محركة . . أريد أن أقول : إن « استراتيجية » الغرب قد تبلورت فلم تعد هجوما مباشرا على المسلمين لأن المسلمين — حتى في الحروب التي مُنوا فيها على يد الاستعمار بعديد من الهزائم العسكرية كانوا يعودون بالإسلام — أقوياء من جديد ! !

يقول « رشتز » : « خابتْ دول أوربة في الحرب الصليبية الأولى من طريق السيف ، فأرادت أن تثير على المسلمين حربا صليبية جديدة من طريق التبشير ، فاستخدمت لذلك الكنائس والمدارس والمستشفيات وفرقت المبشرين في العالم ، وهكذا تبنت الدولة حركة التبشير لمآربها السياسية ومطامعها الاقتصادية ، ولقد استطاع « ريمون لول » في عام ١٢٩٩ وعام ١٣٠٠ للميلاد أن يحصل على إذن من الملك يعقوب صاحب أرغونة ليبشر في

مساجد برشلونة محتمياً بالسلطة المسيحية في أسبانيا [1] . . . ! !

ويعتبر هذا التاريخ (١٢٩٩ م) أول عهد الأوربيين بالتبشير كما يعتبر « ريمون بلول » أول من تولى التبشير بعد أن فشلت الحروب الصليبية في مهمتها . . فقد تعلم « لول » اللغة العربية وجال في بلاد الإسلام وناقش علماء المسلمين في بلاد كثيرة [2] .

. . وإلى جانب « لول » كانت السفن البحرية تطوق العرب وتفرض شبكة من التجسس حول العالم الإسلامي تسرق حضارته وتفتت ركائز قوته . . .

طافت هذه السفن حول إفريقيا تقيم أكبر سوق للرقيق في تاريخ البشرية وتغير على الأطراف القصيّة للعالم الإسلامي . . أندونيسيا . . الفلبين . . الملايو . . الهند . . الخ . . إلى جانب التوسع الروسي في آسيا المسلمة . .

وقد وصف « أرنولد توينبي » نهاية هذه المرحلة . . أي مرحلة التطويق بقوله : وهكذا في لمحة البصر اختطف البرتغاليون من أيدى العرب السيادة البحرية على المحيط الهندي ، وبينما كان الرواد البرتغاليون يحدقون شرقا بالعالم الإسلامي كان التوسع البحري الغربي يحدق من الجنوب كما كان ملاحو الأنهار من

(١) نقلا عن كتاب التبشير والاستعمار عمر فروخ ص ١١٥ ط ٣ .
(٢) الغارة على العالم الإسلامي ص ١٧ ترجمة الأستاذ محب الدين الخطب (تأليف أ . ل شاتليه) .

القوازق يتجهون شرقا ويوسعون حدود العالم الروسي بنفس السرعة والاكتساح وذلك باحداقهم بالعالم الإيراني من الشمال » !!

وهكذا . كما يقول توينبي — في غضون فترة تقل عن قرون لم يقتصر الأمر على الإحداق بالعالم الإسلامي الذي كان شركة بين المجتمعين العربي والإيراني ، ولكن أمكن تطويقه تماما . . . « ففي القرن السادس عشر والسابع عشر وضع الطوق حول رقبة الفريسة . . . » .

« كما انقضى وقت طويل قبل أن يتنبه المسلمون أنفسهم إلى ما يجب عليهم عمله لمجابهة الموقف ، وتبلور هذا العمل بالنسبة للجانبين الغربي والروسي في الانقضاض على فريسة عاجزة عجزا واضحاً » — « وجنباً إلى جنب مع عملية التطويق كان التسلل داخل القلعة عن طريق المبشرين . . أجل . . كانت عملية التطويق مستمرة » .[1] .

وكان على المبشرين القيام بمهام التجسّس واستطلاع نقط الضعف وكشفها في داخل القلعة الإسلامية ، وشراء العملاء ، وبث الأعوان ، ونشر الفتن . . !! ..

ويأتي المبشر تحت علم الصليب — كما يقول الأب شانتور[2] . . يحلم بالماضي وينظر إلى المستقبل وهو يصغي إلى الريح

---

(١) توينبي مختصر دراسة للتاريخ جـ ٣ ص ٣١٩ ترجمة فؤاد شبل .
(٢) رأس الكلية اليسوعية في بيروت أيام الأنتداب الفرنسي .

التي تصفر من بعيد من شواطىء رومية ومن شواطىء فرنسا . .
وليس من أحد يستطيع أن يمنع الريح من أن تعيد على آذاننا
قولها بالأمس وصرخة أسلافنا (الصليبين) من قبل : إن الله
يريدها [1] » ولم يفتّر عداء الغرب الصليبي للشرق منذ رحلت
الجيوش الصليبية عن بلاد العرب . . . بل إن سبعة قرون كاملة
تلت تاريخ ارتحال الجيوش الصليبية ، حملت في طواياها
مئات المؤامرات للغارة على العالم الإسلامي ، وللقضاء على كل
قوة تنشأ فيه تستطيع أن تقف أمام الزحف الصليبي المستتر وراء
الدين ، الساعي وراء تحويل العالم الإسلامي إلى دائرة نفوذ
صليبي وزحزحة الإسلام كقوة عالمية عن مكانه التاريخي . . .
لأن الله – كما يقول شانتور – يريدها » . . ! ! .

وليس من باب المصادفة لهذا أن نرى العنصر التركي
المسلم يحظى بمزيد من غارات الصليبية الغربية باعتباره على وجه
العموم أكبر قوة سياسية إسلامية قادت العالم الإسلامي على
امتداد هذه القرون . .

إن الأستاذ (دجوفارا) أحد وزراء رومانيا الأسبقين
يكتب كتابا بعنوان « مائة مشروع لتقسيم تركيا [2] » . .
يسرد فيه مائه مشروع استمرت عدة قرون في محاولة القضاء
على قوة الإسلام السياسية الممثلة في العنصر التركي . . حتى

---

(١) التبشير والإستعمار ص ٣٨ ط ٣ .

(2) Centprojes de Partage de Turqui Djuvara

نجحت أخيراً في القضاء على الخلافة العثمانية وتفتت العالم الإسلامي . . والوزير الروماني يعترف في كتابه السالف الذكر — بعد عرضه للمائة مشروع — بأن أصل العداوة المزمنة التي يشعر بها الأوربيون للأتراك « راجعة إلى العداء الشديد الواقع بين الإسلام والنصرانية [1] » . .

. . بقي سؤال بعد هذا العرض الموجز :

هل لا زالت أوربا عند صليبيتها ؟ . .

هل لا زال التبشير — في العصر الحديث وسيلة للاستعمار الغربي ؟ أم لا زال الاستعمار والتبشير يتبادلان التأثير والتأثر ؟

. . ويمكن أن نزيد الأمر دهشة إذا سلمنا حقيقة — لا جدلا — بأن الإنسان الأوربي الحديث لا تمثل قضية الدين من تفكيره أو سلوكه الشيء الكثير ، فكيف نتهم هذا الإنسان بالصليبية والحقد الديني والسياسي معاً ؟

وأنا أشهد بأن كثيرا من المبشرين لم يكونوا النموذج الكامل للدعوات التي قدموا من أجلها ، بل كان منهم كثيرون أصحاب مطامع شخصية . . وكثيرا ما غادر المبشر جمعية إلى جمعية حسب أهوائه ، فإن — وليم بلغريف — الانكليزي قد دعته أطماعه الخاصة إلى أن ينقلب راهباً يسوعياً ويجادل البروتستانت قومه ، ولما استغنى عن اليسوعيين عاد بروتستانتياً ، حتى إنه سمى « الحرباء » . . . وليس هذا فقط بل إن من المبشرين نفراً

(١) نقلا عن حاضر العالم الإسلامي حـ ٣ ص ٢١٨ شكيب أرسلان .

يسعون وراء أطماع ومغامرات شخصية شوهت اسم النصرانيين في الشرق فلقد ذكر (جب) في كتابه الذي طبع سنة ١٩١٠ بعض الأمثلة على ما تردى فيه هؤلاء من فساد ، ويهاجم « جب » نظام الأديرة كله ، ويقول : « إنه كان لعنة على سورية ، ثم يقول إن بعض هذه الأديرة كان مستقرا للفاحشة [١] !!

كل هذا صحيح . . . وأكثر من هذا يمكن أن يكون صحيحاً . . إن الجنرال ساراي المفوض السامي الفرنسى في لبنان كان علمانياً لا دينياً ، ومع ذلك فقد كان يحمي اليسوعيين ، وقد دعا عدداً من الراهبات ليذهبن إلى (صافيتا) في بلاد العلويين لتنصير الناس هناك وقد ساعدهن بحرابه على تنصير الناس في جنينة رسلان بلبنان — إن هذا الجنرال لم يكن يعطف على حركة دينية بقدر ما كان ينفذ خطة سياسية تستغل الدين ، لأنه شخصيا — كما قلنا — كان علمانياً لا يؤمن بدين !!

. . . واللورد اللنبي الذي قاد الفيالق الانجليزية التي زحفت على القدس والذي قال قولته المشهورة : « الآن انتهت الحروب الصليبية » .

هذا الرجل كان بقولته هذه يترجم عن روح صليبية لا مجال للشك فيها .

لكن هذا الرجل كان عضواً في جمعية إلحادية — وهذا ثابت كذلك من سيرته !! وإيطاليا التي ناصبت الكنيسة العداء

---

(١) نقلا عن الغزو الفكري ص ٤٠ محمد جلال كشك .

وحجزت البابا في الفاتيكان ، كانت تبني سياستها كلها على جهود المبشرين والرهبان ، وروسيا « ستالين » التي تحارب الأديان تظاهرت بالعطف على رجال الدين ، ودعت إلى مجمع مسكوني في موسكو ، وشرّف (ستالين) نفسه المؤتمرين بمقابلته . كذلك فان فرنسا لا تهتم كثيرا بقضية الدين في داخلها لكنها في « الجزائر » كانت تترجم عن عقلية صليبية ضج منها الضمير العالمي [1] !!

فما سرّ هذا الازدواج في شخصية الإنسان الأوربي ؟
هل ثمة تناقض حقيقي بين هذه المسالك المتضاربة مظهريا ؟

إن تفسير هذا الأزدواج أو هذا التناقض هو المدخل الوحيد لتفسير طبيعة « التبشير » .. أو قل لإظهار حقيقته ..

إن القضية ليست قضية دين يراد إدخال الناس إلى حظيرته ؛ ذلك لأن الدين—كل دين—غاية شريفة لابد لها من وسائل شريفة ... هذه واحدة .. ثم إن القضية ليست قضية « المحبّة المسيحية » التي يرددها المبشرون في كل مناقشاتهم .. فهؤلاء المبشرون قد كشفوا في كثير من الأحايين عن روح وحشية همجية لا تحترم إنسانية الإنسان ، أو تحس بتعاطف مع آلام الإنسان وآماله ، ولمزيد من الوضوح دعنا نسرد هذا الحوار الذي دار بين « لويس لومكس » الصحفي الأمريكي في كتابه « الإفريقي النافر » وبين « سيلو نديكا » عضو اللجنة التنفيذية

(١) التبشير والإستعمار ص ٣٥ – ٣٦ .

للحزب الوطني الديمقراطي في روديسيا الجنوبية . . . سأله الصحفي الأمريكي قائلاً :

هناك تقارير منتظمة تؤكد أن المسيحية تنحسر عن افريقيا . . هل هذا صحيح ؟

الزعيم الإفريقي : نعم صحيح فالكنيسة لم تلعب دوراً سليماً في الشئون الافريقية . لقد وقفت ضدنا إلى جانب هؤلاء الذين استعبدونا . . انها اليوم تقف على قدمها الأخيرة في افريقيا.

الصحفي الأمريكي : هل أنت مسيحي ؟

الزعيم الافريقي : نعم أنا كاثوليكي تعلمت في كليـة « ماريان » في ناتال بجنوب افريقيا . . وأنا طبعا لم أنضم للكنيسة لدوافع سياسية ، بل عن اعتقاد روحي ، ورغم ذلك شعرت أنها خذلتني . . الإسلام سينتصر في إفريقيا ، وبالرغم من أنني سأظل كاثوليكيا إلا أنني لا أستطيع أن أقول مخلصاً ، إنني آسف لتطور الأحداث . رغم كل شيء فإن الدين يشكل جانباً حاسماً من قيم الإنسان ، ومن ثم . . يدفعه إلى الحرية . . وهذا ما فشلت فيه الكنيسة . . لقد أعطتنا كل شيء ما عدا الحرية [1]

وإلى هنا انتهى حديث الصحفي الأمريكي مع الزعيم الوطني الروديسي المسيحي . . ولنا تعليق :

هذا الموقف الذي شرحه الزعيم الوطني الروديسي هو معلم

(١) الغزو الفكري للأستاذ محمد جلال كشك ص ٤٠ .

من معالمنا للوصول إلى حقيقة التبشير . . إن هذا الزعيم كاثوليكي لكنه يرتبط وطنيا بافريقيا الباحثة عن الحرية .

ولقد ظن أن اعتناقه لدين المستعمر سيمنحه الحرية ، لكن الحقيقة التي فاجأته . هي أن اعتناقه للكاثو ليكية لم يعطه هذه الحرية . . . فالكنيسة الكاثوليكية لم تذهب هناك لتحرير الناس عن طريق الدين ، بل لاستعبادهم عن طريق الدين . . والارتباط بالدين مدعاة لزيادة الارتباط بالاستعباد والعمالة للأطماع الأوربية ، وليس مدعاة لرفع الرأس وطلب الحرية . . .

ومن حق الكنيسة . . مادم هذا هدفها ــ أن تخذله لأن الدين المجرد من العبودية للبشر ليس هدفها . . .

* * *

وعندما أخذ الضعف يدب في الامبراطورية العثمانية ، اخترقت الدول الأوربية السور الذي كان مضروباً عليها ، ثم تغلغلت عن طريق الفتح والتسلل السياسي في شبه جزيرة العرب ومصر وسوريا وغيرها . . .

عند هذا ــ ومع أن الامبراطورية الاسلامية الكبرى «الدولة العثمانية » قد أصبحت رجلاً مريضاً وأصبحت مسألتها تطرح على موائد الغرب لتقسيمها بين الذئاب الجائعة ويطلق عليها اسم « المسألة الشرقية » .

. . . أقول في هذا الوقت كان المبشرون يزحفون كصفوف « أمامية وخلفية » تثبت دعائم الاستعمار وتمهد لمزيد منه . . .

كان (جب) يقول : إن القسم الأكبر من المسلمين قد أصبح في حكم الدول النصرانية فيجب الاستفادة من هذه الحالة الراهنة . . وكان « رشتر » يصرخ بصوت عال :

« إن مائة وستين مليونا من مجموع مائتين وخمسين مليونا من المسلمين في حكم الدول النصرانية ، فواجب هذه الدول إذن أن تمهد السبيل لتبديل دين هؤلاء الرعايا [1] .

. . . وبتأثير من هذه الأصوات انطلق التبشير يدعم الكتيبة الاستعمارية حتى يتم التهام « الرجل المريض » ويقضى تماما على « الإسلام » كقوة عالمية موازية للقوى العالمية المتصارعة الأخرى.

وليس ما نقوله عن دور المبشرين في سحق الدول الإسلامية العالمية « الخلافة العثمانية » من باب تحميل الأمور أكثر مما تتحمل فان مؤتمر « ادنبرج » [2] التبشيري قد اكتفى فيما يتعلق بالمسلمين بوضع هذه الكلمة التي هي جماع ما نقول :

« اتفقت آراء سفراء الدول الكبرى في عاصمة السلطنة العثمانية على أن معاهد التعليم الثانوية التي أسسها الأوربيون كان لها تأثير على حل المسألة الشرقية ، يرجع على تأثير العمل المشترك الذي قامت به دول أوربا كلها [3] » .

---

(١) التبشير والاستعمار ص ١٤٥ ط ٣ .

(٢) عقد سنة ١٩١٠ ميلادية .

(٣) الغارة على العالم الإسلامي ص ٧٢ .

إن التبشير — كما نرى وكما هو فعلاً — ليس إلا واجهة مزيفة من تلك الواجهات الكثيرة التي يخفي بها الاستعمار ملامح وجهه الحقيقية . . لتحقيق غزو حضاري عقيدي يكفل له تحقيق أطماعه ! !

. . إنه بضاعة للتصدير من أجل الحصول على العملات الصعبة ، بصرف النظر عن كونه معداً للاستهلاك المحلي أو غير معدّ لهذا الاستهلاك ! !

. . . إن التبشير — في رأيي — ليس مجرد حفز للناس إلى انتهاج منهج معين في الحياة أو الالتزام بطقوس وشعائر معينة . . . كلا . . . إنه غزو حضاري كامل يستغل كل تفوق الإنسان الأوربي المادي لتسخير بقية الأجناس البشرية لخدمة هذا الإنسان .

إنه بالنسبة للتخطيط الأوربي الاستعمارى ليس مجرد أداة استعمارية من جملة عديد من الأدوات . . .

إنه في كثير من الأحايين مرادف تماما لكلمة استعمار حتى ليبدوان معا مادةً مكونةً من عنصرين لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر .

إن رجال الدولة الفرنسية — يعدون التبشير بالمذهب الكاثوليكي أو الدين الكاثوليكي عملاً وطنيا . و « رينيهبوتيه » في كتابه « الكاردينال لافيجيري » يقول :

« إن العمل الوطني الذي قام به لافيجيري [1] بدأ مع عمله التبشيري عندما بدأ بنشره على السوريين تلك العطايا التي تمنحها الكنيسة الكاثوليكية ، إنه جعل فرنسا محبوبة لدى السوريين . . . باسم المسيح [2] ! !

التبشير والسياسة :

إن العلاقة الوثيقة التي نظهرها هنا والتي تربط السياسة بالتبشير تؤكد لنا أن هذا التبشير « سياسة كاملة تقف على قدميها » ولربما تحركت جيوش استعمارية بأكملها من أجل خدمتها ونحن هنا لا نريد التأكيد على خدمة السياسة للتبشير ومن ارتداء التبشير ثوب المناصب السياسية ومن تعاونهما معا على تحقيق غاية واحدة ، كلا إنما نريد فقط أن نبرز الدور الهام الذي قام به التبشير في خدمة السياسة ولا سيما على مستوى العالم العربي خلال هذا العصر الحديث .

والملاحظ أن الاستراتيجية الاستعمارية في التهام العالم الإسلامي كانت تخطط بيد تبشيرية ، فإذا كان مبشر مثل « أشعيا » يسيطر على العالم الغربي بحجة أن الإسلام منذ ظهر وهو يتزايد عدداً ولم يتفق قط أن شعبا دخل في الإسلام ثم عاد نصرانياً ثم يقترح هذا المبشر أن تتفق بريطانيا وفرنسا على

(١) كان لا فيجيري أسقفا ثم كردينا لا ثم رئيس أساقفة افريقيا .
(٢) نقلا عن التبشير والاستعمار ١٢٦ .

سياسة السيطرة على الشواطىء حيث يمكن وصول الدوارع وآلات القتال الحديثة بسهولة. ونقول نحن بحق : إن هذه الاستراتيجية هي نفسها التي انتجها الاستعمار الإيطالي في طرابلس الغرب حيث طرد العرب إلى داخل البلاد ، كما انتهجتها هيئة الأمم في فلسطين حين أعطت الشواطىء لليهود كما حدث نفس الشيء في الاحتلال الأسباني لبلاد المغرب العربي ولم يقف أمر التبشير عند حد التخطيط للاستعمار فقط بل نزل إلى حلبة الميدان فاذا استثنينا الدور التبشيري في الحصول على الامتيازات الأجنبية واستغلال هذه الامتيازات على يد الراهب الفرنسي (ده فورست) الذى عين فيما بعد سفيراً لفرنسا في عاصمة الخلافة العثمانية . . . إذا استثنينا هذا وجدنا أن المبشرين كانوا اليد الخفية وراء الإضرابات والفتن والمذابح التي شهدتها البلاد العربية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر .

والمبشر (جب) يعترف بأن تركيا على حق في خوفها من المبشرين الذين لم يكونوا فقط يثيرون الفتن في امبراطوريتها بل كانوا أيضا يتجسسون لدولهم سياسيا وعسكريا ، فالدروز يعتمدون على انجلترا ، والموارنه يرون أن حليفهم الطبيعي في فرنسا [١] .

ولكي نتأكد من أن هذه الطوائف التبشيرية لم تهدف إلى خدمة الدين فيجب أن نعلم أنها كانت تولى اهتمامها بالبيئة

(١) أنظر كتاب التبشير والاستعمار – للدكتور عمر فروخ ص ١٣٥ .

المسيحية ، فتثير الخلاف في طبقاتها وبين أهل مذاهبها ، وكان « الاكليروس » الماروني يحث أتباعه على الابتعاد عن البروتستانت بل كان يحمل أتباعه على اضطهاد أهل المذاهب النصرانية الأخرى ، ومن هنا كان للتبشير دوره في تقسيم جبل لبنان في القرن الماضي وتقسيم فلسطين سنة ١٩٤٨ م .

وكما اعتمد هؤلاء على إثارة تلك النزعات الطائفية ولو بين العرب المسيحيين من أجل إحداث خلخلة في الكيان السياسي والاجتماعي للأمة العربية ، كذلك عمدوا إلى إثارة النزعات القومية وإحياء الحركات الشعوبية المعادية للعروبة والمناهضة للنزعة الإسلامية . ومع أن المبشرين هؤلاء يعرفون عند البحث في القومية أن ثمة صلة وثيقة بينها وبين الحضارة الدينية باعتبار الدين مكوناً هاماً من مكونات الشخصية القومية المستقلة وأن أحدا لا ينكر ، وهم لا ينكرون أن (البروتستانتية) جزء أصيل في القومية الهولندية والانجليزية ، وأن الأرثوذكية جزء أصيل في القومية اليونانية والبلغارية ، وأن الإسلام بدوره جزء أصيل في القومية التركية الإيرانية والأفغانية والعربية .

مع هذا الوضوح في مفهوم القومية روّج المبشرون لفكرة قومية معادية للإسلام ، تنتمي إلى فترات تاريخية مندثرة ، فالفرعونية من خلال حجارة الأهرام في مصر !!! والفينيقية من خلال خرائب الساحل الممتد من يافا إلى اللاذقية على الشاطىء

الشرقي للبحر المتوسط . كما لفّقوا في العراق دعوة أشورية شأنها شأن الدعوات الجاهلية العنصرية الأخرى . ومع أن هذه الحركات أو بعضها روجها الذين ابتلعهم الغزوالفكري وامتص قواهم الذاتية فانها وجدت من يهتف بهاويغنّى لها .

ولما كان الاستعمار والتبشير ركنين يتطوران مع كل الظروف فمن هنا ومع فجر استقلال أمتنا (السياسي) بزغ فجر جديد يوقظ الناس على فكرة العروبة الجماعية كرابطة قومية مناقضة للإسلام . سياسة العروبة التي لا صلة لها بالإسلام بل المعادية للإسلام عقيديا وتنظيميا .

وهكذا وفقا لسياسة (الحيّات) التي عرف بها (التبشير) يتفنّن هذا الخط الاستعماري في تدويخ أمتنا وتعميتها عن حقيقتها الوحيدة وكيانها الحضاري الأول المنبثق من القرآن والمتعانق (أيديلوجيا) مع الخط الصحيح !!

ومنذ وقف اللورد (جلادستون) يصرخ بمجلس العموم البريطاني وقد أمسك بنسخة من القرآن ، ويقول (ما دام هذا القرآن موجوداً فلن تستطيع أوربا السيطرة على الشرق ولا أن تكون هي نفسها في أمان) منذ هذا الحين وأوربا تبحث في ظل

خيط معاد للقرآن عن وسائل السيطرة على الشرق . وأمتنا المكافحة التائهة تبحث عن حل وإنها لتتعثر كثيرا في خطواتها ولا تزال جاهدة تتلمس الطريق وإنها لذاهبة إليه باذن الله ولو كره المشركون ! !

التبشير واليهود :

يمثل اليهود وسيلةً من وسائل التبشير الظاهرة ، لكن هذه الوسيلة مع وضوحها تكاد تكون أخفى الوسائل على الإطلاق . وأعتقد أن اصحاب « بروتوكلات حكماء صهيون » القادرين على التخطيط الشامل لتدمير العالم دون أن يحس بهم أحد — أعتقد أن هؤلاء يستطيعون أن يكونوا « يداً خفيّة » في مجال العمل التبشيري دون أن يحس بهم أحد كذلك . ومنذ ظهر (محمد علي) في مصر يرنو بنظره إلى أوربا متطلعا إلى فرنسا في سبيل تكوين امبراطورية عربية مناهضة للدولة العثمانية ، منذ هذا الحين والتبشير يتعاون مع اليهود للوصول إلى غايتهما المشتركة وهي : انتزاع فلسطين من دار الإسلام . ومن هنا فقد تم لها إنشاء ما دعوه « بكنيسة صهيون » أول كنيسة بروتستانتية في فلسطين — وكان المبشرون جد مقتنعين بأن جمع اليهود في فلسطين يسهل لهم مهمتهم في الوصول إلى المسلمين ، من أجل ذلك أرادوا أن يفتحوا أبواب فلسطين على مصاريعها لليهود ، فليس من المستغرب إذن أن نجد سبعاً وعشرين جمية تبشيرية مختلفة الجنسيات كانت تعمل في

فلسطين [1] ويذكر (ويلس كاسن) أن في القدس مدرستين عاليتين يديرهما ثلاث إرساليات مختلفة ويذكر (كاسن) أن اليهود والنصارى والمسلمين يلعبون في ملاعب هذه المدارس لعبة كرة القدم ويبدون في اللعب من ضروب التعاون ما يساعد على أن يخلق لهم نظرة جديدة إلى مشاكلهم القومية الحاضرة ، أي أن يتهيأ الطلاب العرب من المسلمين والنصارى في فلسطين ليقبلوا عن اقتناع بنزول اليهود في الأراضي المقدسة [2] .

وليس هذا فقط بل إن تأسيس الدولة اليهودية كان أمراً مقررا عند المبشرين ، ولقد كتب المبشر « جون فان اسى » سنة ١٩٤٣ م يذكر إسرائيل ويعلن حدودها كما هي الآن وبعد نكسة يونيو ١٩٦٧ م . تقريبا ويبرر المبشر « لورانس براون » تفضيل المبشرين التعاون مع اليهود ضد القضية الإسلامية بقولـــه :

إن المسلمين يختلفون عن اليهود في أن دينهم « دين دعوة » أما اليهود فهم جماعة مغلقة ، ثم يعلن « لورانس براون » رأيه بالتفصيل فيقول : « لقد كنا نخوّف بشعوب مختلفة ولكننا بعد الاختبار لم نجد مبرراً لمثل هذا الخوف . . لقد كنا نخوف

(١) النص لرشتر نقلا عن كتاب التبشير والاستعمار ص ١٨٢ ط ٣ .

(٢) المراجع السابقة نفس الصفحة ، ويبدو أن الرياضة من وسائل اليهود لتحقيق أطماعهم في العالم كله باعتبارها آفة عالمية خرجت عن حدود الرياضة لتصبح في كثير من الأحايين أداة سياسية يستعملها الكثيرون من محترفي السياسة وهذه الوسيلة اليهودية إقتبسها المبشرون وهم يروجون لها كثيرا باعتبارها تخلق جواً من التسامح يساعدهم على تحقيق مآربهم.

بالخطر اليهودي لكننا وجدنا اليهود أصدقاء لنا وعلى هذا يكون كل مضطهد لهم عدونا الألد . . ولكن الخطر الحقيقي كامن في نظام الإسلام وفي قدرته على التوسع والإخضاع ، وفي حيويته . إنه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار [1] !! أرأيت أصرح من هذه الحقيقة في تصور التبشير الغربي للإسلام ، وفي تصوره كذلك لليهودية ، وفي إيثاره التعاون مع اليهودية وفقا للمنطق النفعي الذي يقود قوافل الاستعمار كلها !! ؟

إن « اليهودية » وجه من وجوه الاستعمار « والتبشيريّة » وجه آخر من هذه الوجوه . « والاستعمار » قادر كل القدرة في كل الميادين على إخفاء وجهه الصحيح .

التبشير والخدمات الاجتماعية :

البحث عن وسائل التبشير على سبيل الحصر يقتضي جهدا ضخما وتتبعا ذكيا لكل المخططات الفكرية والسياسية ، فربما تلمح هناك شيئا خفيا ، ولن يكون هذا الشيء سوى يداستعمارية تتقمص ثوبا بريئا يشبه أثواب المبشرين والمبشرات الخادعة وللأسف فإن بحثنا لا يتسع للقيام بهذه المهمة الشريفة وحسبنا أن نومىء إلى أبرز هذه الوسائل وأولاها باهتمام العالم الإسلامي .

لقد استغل المبشرون كل شيء ، واندسوا وراء كل فكرة وقاوموا بأسماء مختلفة كل حركة ارجاع للإسلام إلى مكان

(١) ص ١٩٤ التبشير والاستعمار .

القيادة في العالم الإسلامي والعربي ، وحتى الأعمال الاجتماعية استغلها هؤلاء لمصلحتهم ، فاستغلوا الأندية العامة وأنشأوها لهذا الغرض ، وأنشأوا الجمعيات للشبان والشابات لنفس الغرض وجمعية الشبان المسيحيين والشابات المسيحيات نموذج لمثل هذا الاستغلال ، ولهما نظائر بأسماء مختلفة في كل بلدان العالم العربي والإسلامي ، وأنشأوا جميات لإصلاح الأحداث وهي في الواقع لإفسادهم ، ودعوا إلى إنصاف العمال جذباً لهم ، ولم يتورعوا عن إنشاء جمعيات للرفق بالحيوان تجذب إليها السذج من المسلمين الذين لا يلبثون أن يجدوا أنفسهم في مواجهة جمعيات « ظلم الإنسان » لا الرفق بالحيوان ! ! وكما استغلوا من قبل « المرضى » فأنشأوا لهم المستشفيات واستغلوا الجهل فأنشأوا له المدارس والجامعات — كذلك استغلوا الفقرفأنشأوا له جمعيات الإحسان . وإن الكتاب الذي ألفه مجموعة من المبشرين باسم « أسس جديدة للتبشير » ليوضح أن أعمال الخير يجب أن تستغل بحكمة فلا تنفق الأموال إلا في سبيلها ، ويجب أن تعطى الأموال أولا للبعداء ، ثم يقل دفعها تدريجيا كلما زاد اقتراب هؤلاء إلى الكنيسة ، فإذا دخلوها منعت عنهم أعمال الخير ، ودخل التبشير إلى دنيا الإعلام فحرك صحفا بأكملها في فلكه . وكانت « البشير » لسان حال المذهب الكاثوليكي — أبرز هذه الجرائد إلى جانب ثلاث صحف

كانت تصدر في « لبنان » سنة ١٨٧١ م لصالح البروتستانت[1].

وتعتبر جريدة « وطني » لسان حال البقية الموجودة والمستترة للنفوذ التبشيري في (مصر) الآن ، واستغل المبشرون « الكشفية والمجتمعات » للتأثير على الصغار « والمكتبات والتصوير » والاستكشاف والنشر وشجعوا الزواج من الأجنبيات لخلق أجيال تحسّ غربة نفسية عن دينها وأمتها . وكانت ثالثة الأثافي في وسائل التبشير وإظهاره على حقيقته الاستعمارية هو محاولته نشر الفساد وتحطيم القيم الأخلاقية بين الجماهير المسلمة ؛ فعندما فتح الفرنسيون سوريا فتحوا خمسين حانة وفتحوا عدداً كبيراً من بيوت الدعارة ، وجاراهم الانجليز في هذا الأسلوب فعملوا على نشر الخمور وإشاعة تهريب - (الحشيش والأفيون) والمبشر (جب) على الرغم من ميوله - يأسف لهذا السلوك الذي انحطّ إليه الاستعمار الأوربي ورصيفه التبشير . وهو يقول « إن هذا العمل قد حط من قدر الإنجليز في عيون أهل بيروت ، وكان مما يقلل الثقة بالمبشرين[2] » و (جب) لم يتألم لأن هذا السلوك يتنافى مع الأديان والأخلاق ، وإنما تألم فقط لأن نتائجه أساءت إلى التبشير والاستعمار ، مما يؤكد لنا خواء هذه الطوائف كلها من الضمير المحايد ، ومن المنهج العلمي الموضوعي الذى تتشدق به ، ويؤكد لنا أن شحنة التعصب الأعمى قد سدّت عليها كل منافذ الضمير الحي والعقل السليم !!

(١) المرجع السابق ص ٢١٣ .
(٢) المكان السابق .

« التبشير المكشوف وروح العصر » .

ما الصورة الجديدة — يا تُرى — لقوافل التبشير التي تزحف على العالم الإسلامي ؟

إن المبشر الحديث لم يعد راهبا يحمل عصا السحر الكنسي ويعد الناس بملكوت الله . . .

ولم يعد المبشر الجديد ذيلاً أو تمهيداً للاستعمار العسكري فربما كانت هذه المرحلة قد أصبحت تتنافى مع روح العصر . .

كذلك فان المبشر الجديد في العالم الإسلامي قد صار يعلم جيدا أنه يقف على أرض جديدة . . إنه مهدد بالطرد إذا ظهرت مخالبة الحقيقية ، ومن هنا فإن جرعة كبيرة من الذكاء لا بد أن تضاف إلى الكمية التي كان يتمتع بها المبشر في القديم . .

إن الفن والأدب واللغة والفلسفة قد تصدرت جال التبشير في هذه المرحلة الجديدة . . ومن خلال مذاهب الفن والأدب والفلسفة، ومن خلال اللغة « كأيديلوجية » تتحرك قوافل الاستشراق من جديد . . . وبما أن علاقة وثيقة معروفة تقوم بين الاستعمار العسكري والفكري — فان كل الفكر الأوربي في هذه المرحلة يلاحظ الوضع الاستعماري العسكري في بلدان العالم الإسلامي . . .ولما كانت القضية التي تشغل الوجود والعقل الإسلامي في المقام الأول هي قضية فلسطين فإن التبشير الخبيث يتحرك في خط القضية الفلسطينية من حيث يدري العالم العربي ومن حيث لا يدري . . .

إن وجهات النظر التي انطلقت عقب نكسة يونيو سنة ١٩٦٧ م تلك التي روجت للسلام العربي الإسرائيلي والتعايش السلمي بين الذئب الاسرائيلي والحمل العربي المغلوب على أمره . . . ووجهات النظر الأخرى التي نادت بالتفرقة بين الوجود الاسرائيلي وبين العنصرية الإسرائيلية . . هذه الوجهات نظر التي لا نريد أن نستطرد في ذكرها إنما انطلقت من قواعد فكرية تبشيرية تتغلف مرة بالمقال الصحفي ومرة بالواقعية الفنية أو التفسير «العقلاني» للتاريخ أو التدرجية الثورية إلى آخره. على أنها كلها في الحقيقة انطلاقة تبشيرية تتقمص ثوب الفكر والفلسفة . وهي مهما تكن وضعيتها إنما تمثل في نظرنا خصيصة من خصائص الوضع الجديد للتبشير ، وإن كل منفذيها — ولا سيما في السياسة — هم عملاء في درجة عليا لدى التخطيط التبشيري العالمي !!

ظاهرة تبشيرية غريبة (التقدميون الماديون ضد التعريب)

وأمر عجيب ظهر في عالم التبشير . . . والتبشير كما هو معلوم من تاريخه غزو ديني وسياسي وفكري للإنسان العربي والإسلامي . . لكن المظهر الأخير من مظاهر التبشير يشير إلى أنه حوّر إلى حد كبير من وضعية استراتيجيته ، وربما كان الوضع الجديد للعالم العربي قد أملى عليه بعض المواصفات القاسية فلجأ أخيرا إلى نوع من الالتقاء بينه وبين أدعياء المادية

الجدلية والتفسير الاقتصادي للتاريخ . . إن الفريسة العربية في نظرهم في وضع يسمح بالإجهاز عليها ، ومن هنا فلا بأس من أن يستعين التبشير بكل القوى في سبيل القضاء على المارد الإسلامي . . وقد كنت أعجب (وأنا في الجزائر) كيف يسير التقدميون الماديون في خط نفسي معاد لحركة التعريب مع أن الفرنسيّة لغة استعمار المفروض فيهم أنهم من خصومه باعتبارهم قوى تقدمية . .

وفي بقية العالم العربي يكاد يلتحم الرأي التبشيري بالرأي الماركسي في مشكلة الوجود الإسرائيلي مع بعض الخلاف الجزئي غير الهام . . ولئن كانت هذه الحقيقة الأخيرة تقودنا إلى تبيّن حقيقة التبشير باعتباره دعوى دينية تهدف إلى القضاء على الوجود الإسلامي والعربي ، باعتبار ان الحضارة الإسلامية هي أكبر عائق أمام الزحف المادي الشرقي والغربي . . . لئن كان هذا فإنها في ذات الوقت تبين لنا أعماق القوى التي تواجهنا مهما اختلفت أثوابها . . وإن هذه القوى – في اللحظة المناسبة – تكشف عن موقفها ضد الحضارة الإسلامية وضد الانبعاث العربي ! !

لربما كان من الممكن أن يعيش الإنسان العربي وأن يأخذ السلاح ليحمى به هذه الحياة الراكدة . . . ! !

لكن ليس من الممكن أن يبدأ الإنسان المسلم سيرته الحضارية من جديد وإلا تقلبت عليه كل خفافيش الدنيا وأظهرت له

« بالمنطق العلمي والجدلي » إن الإقليمية والمذهبية الغربية إلى الشمال أو اليمين والتفسخ الخلفي والانسلاخ من ماضيه هي الطريق الوحيد للانبعاث المميت . .

ويوم يتحرك البندول الإسلامي مشيرا إلى احتمال قيام لون من ألوان الحضارة الإسلامية فإن القوى الشاردة تلتئم بسرعة مخيفة لكي تقضي على هذا البصيص من النور . . !! وبنفس السرعة تتحرك عشرات الصحف وعشرات الكتب وعشرات النظريات . . كما تتحرك جيوش أخرى رهيبة لتقضي على ذلك الأمل الموهوم . . .

ولكي نكون أقرب إلى الموضوعية ونحن نسجل للوضعية الجديدة للغزو التبشيري في هذه المرحلة فإننا لا بد أن نعترف بأن أجزاء من أعضاء الإنسان المسلم تسير الآن بلا مصباح ... لقد أصابوا عينيه بالشرود ، وأصابوا عقله بالشك ، وأصابوه أخيرا بأمراض الانحلال والضياع . . .

. . وإن التبشير ليتعلق الآن بكل القوى من أجل الحفاظ على هذا الوضع للإنسان العربي والمسلم، . . . أجل . إن بقاء الإنسان المسلم في وضعه الراهن الممزق هو الأمل الأكبر لمواكب المبشرين . . . !!

المدّ الفكري للإسلام :

لكن ما هو الخوف الذى يمكن أن يأتي من العالم العربي

— مثلا — ، وهو مهما أتيح له من إمكانيات لا يستطيع أن يطمع في الوصول إلى قوة الدول الكبرى المعروفة في الشرق والغرب ؟

وحقيقة فلا أمل في الوصول إلى قوة هذه الدول (في المستقبل القريب على الأقل) لكن مع ذلك فان القوة الشيوعية في العالم قد انطلقت من معاقل الرأسمالية نفسها بينما كانت القوى الشيوعية مجرد وهم يعيش في ذهن رجل مهدد اسمه كارل ماركس .

. . . إن استراتيجية الغرب الواعية لا تغيب عنها هذه الحقيقة . . ولم يمنع المظهر الخارجي المتداعي للعروبة والإسلام من أن يكسب الإسلام بعض أبناء الحضارات الراقية ، وأن يكسب عطف واحترام كثير من مفكري هذه الحضارات ...

وإذا أتيح لمقومات الإسلام أن تلتئم بطريقة تطبيقية حسنة المظهر والمخبر فان المدّ الفكري للإسلام قد لا يقف عند حدود ، ولا سيما والعقل الأوربي الذي شبعت كل غرائزه يبحث الآن عن جديد يعيده إلى بعض خصائصه الإنسانية ! !

ومن هنا يبدو الخوف من الإسلام . . ومن هنا يحرص العالم المادي على إبقاء الوضع الحضاري الحالي للإنسان العربي بكل أثقاله من أجل أن تظل قوى هذا الإنسان منصرفة إلى مشاكله الحياتية ، ولا يجد تلك الفرصة التي تتيح له التطلع إلى

تقديم المبادىء التي يملكها إلى الجماهير المرتقبة ، ولا أن يجد فرصة أخذ دوره الحضاري على أسس خاصة مستقلة فيبدأ بها مسيرة تاريخية من جديد . . .

وأد الإسلام كفكرة وكرسالة :

. . . إني أنظر الآن – بعد معايشتي للغزو الفكري – إلى الوضع السياسي والحضاري للعالم الإسلامي وأسأل نفسي : ترى لو انضم هذا العالم في دنيا السياسة الخارجية إلى الشرق أو الغرب أكانا يتركانه يسير في سياستة الداخلية كيف شاء ؟ ولقد رأيت من خبرتي هذه أن هذا التشتت مقصود بذاته وأن كلتا القوتين لا تريدان من هذا العالم الإسلامي إلا أن يظل في مرحلة المقاومة والهدم . . وهما لا يريدان منه إلا أن يموت هكذا بهذا الخمول وهذا الشرود . . أعني . . أن يموت «كفكرة» من الممكن أن تنبعث عالميا ، وأن يموت « كرسالة » من الممكن أن تقدم حلولا جديدة لمشاكل الإنسان ، وأن يموت «كحضارة» تملك طاقة جبارة قادرة على استعادة نفسها من بين أعتى مراحل الهزيمة والدمار ! !

العالم العربي والتبشير :

. . . وفي تصوري أن العالم العربي يقف أمام تحد حضاري بكل معاني حروف هذه الكلمة . . إن العالم العربي ينتظره

صراع طويل على أساسه سيتقرر مصير هذا العالم . . وإن القوى العالمية تعرف تماما هذا الشريط الرفيع الذى يسير عليه العالم العربي . . وإنها لتحاول جاهدة مساعدته على السقوط . . ومن خلال مظاهر السقوط المتكررة الدالة على انحراف بعض أجزاء من العالم العربي عن خطة الحضاري . . من خلال مجموعة هذه المظاهر والتحدي الحضاري الذي ينتظره ، سوف يقرر مصير هذا الجزء من العالم . . ! !

الحرب النفسية والحرب الفكرية :

إن التبشير يقوم الآن بقيادة الحرب النفسية والحرب الفكرية ضد الإنسان العربي والمسلم لكي يجعله يعاني تمزقا داخلياً عنيفاً . وهو لا ينطلق الآن من المستشفيات والجمعيات بقدر ما يتركز في مجال الإعلام « في الصحافة والإذاعة والكتاب » فضلا عن دور العلم المنتشرة في أرجاء العالم الإسلامي . . وهو في هذه الفترة يحاول أن يدعم السطوة الفكرية الاستعمارية مستغلا فترة الهدوء الضئيلة التى سادت بين العالمين العربي والأوربي ، ومستغلا كذلك — كما قلنا — بعض الاهتزازات في داخل النفس العربية . . .

وفي ظل استراتيجية مرنة دائماً ، قابلة للتلون والتريث خاضعة لمناهج علمية ونفسية يسير التبشير مع الأمة العربية والإسلامية خطوة خطوة . . يتعهد خطاها بالإفساد ، وطريقها

بالمعوقات ، وفكرها بالتمويه ، وهو دائماً معها . . فلئن خرجت جيوش استعماره ، فانه يُبقي نيابة عنه جيشاً من لون آخر يعمل ويتحرك .

وكما قاد التبشير الاستعمار سابقاً إلى بلاد العروبة والإسلام - فانه يحاول الآن التمهيد لشيء آخر واضح . . . انه التبعية الكاملة لمناهج وتصورات أوربا ، وفسخ مقومات الشعب العربي الحضارية ، والقضاء على فكرة إحياء ما يسمى بالحضارة العربية الإسلامية . . .

لكن الله غالب على أمره ولو كره الكافرون .

نماذج للواقع التبشيرى التخريبي :

النموذج الأول (أندونيسيا أكبر بلد إسلامي في آسيا)

تُفيد بعض المصادر أن التبشير قد نجح في تنصير عشرة ملايين فقير مسلم أندونيسى من مجموع المسلمين البالغ عددهم مائة وعشرين مليونا .

وقد ازدهر نشاط الكنيسة في جميع الجزر الأندونيسية ، وبخاصة في جزيرة جاوا موطن ٦٥ ٪ من سكان أندونيسيا ، الذين يمثل المسلمون نحو ٨٥ ٪ من تعدادهم .

ومما ذكرته صحيفة «الواشنطن بوست »[1] بشيء واضح من

(١) نقلا عن مجلة الفكر الإسلامي البيروتية عدد ذي الحجة ١٣٩٨ هـ .

السرور — أن الحكومة الأندونيسية تعمل جاهدة على عزل العلماء المسلمين وساستهم القدماء عن المجتمع وقمع الاتجاهات التي تحاول الحفاظ على إسلامية أندونيسيا .

ويحتل النصارى الذين لا يزيد عددهم عن عدة ملايين لا تصل إلى ٧ ٪ من مجموع السكان — معظم المناصب القيادية ذات السيطرة القوية في أندونيسيا .

وعلى سبيل المثال فإن الصحيفتين الكبيرتين اللتين تصدران في جاكرتا إحداهما يسيطر عليها البروتستانت والأخرى الكاثوليك فضلا عن أن وزير الدفاع والأمن القومي ، ووزير التجارة ، ووزير الصحة ، ووزير تنظيم أجهزة الدولة ، كلهم من النصارى . أما القوات المسلحة والجامعات الحكومية والأهلية فيسيطر عليها النصارى ، ويوجهونها لأغراض التبشير . . .
وقد ذكرت جريدة السياسة الكويتية [١] — ما نصّه تحت عنوان : « خطة رسمية لتحويل أندونيسيا من الإسلام إلى المسيحية خلال ثلاثين سنة » قالت : « بدأت الدول الخليجية بشكل خاص والدول العربية الإسلامية بشكل عام فيما بينها اتصالات على مستوى رفيع . وذلك من أجل تدارس ظاهرة تعتبرها في غاية الخطورة . فقد تجمعت لدى الأوساط السياسية الخليجية معلومات تفيد أن هناك نية رسمية قيد التنفيذ لدى

(١) أنظر عددها رقم ٣٥٢٤ .

الإدارة الأندونيسية ، وذلك لتحويل تلك البلاد عن الدين الإسلامي إلى المسيحية . وتضيف المعلومات التي تجمعت لدى عدد من القيادات الدينية في الخليج وفي العالم الإسلامي بأن خطة نصـرنة أندونيسيا تجري بممارسات قمعية ضد المسلمين هناك بشكل يستدعي تحركا إسلامياً مضاداً ذا طابع دولي .

وأفاد مرجع ديني خليجي بأن المعلومات المتوفرة والمطروحة الآن على مختلف الدول الإسلامية ، هذه المعلومات تؤكد بأن خطة نصرنة أندونيسيا مرسومة للتنفيذ على مدى ثلاثين سنة ، وقد شرعت الحكومة بترجمتها من خلال تعيين حكام للأقاليم وقادة للجيش والشرطة والمخابرات من المسيحيين الذين يقومون بتنفيذ الخطة المرسومة ، بالإضافة إلى تسليم إدارات الهجرة والجوازات والجمارك وقيادات المناطق العسكرية ومركز الإدارة والحكم المحلي ووسائل الإعلام والثقافة والاقتصاد والتجارة ومجلس إدارة الشركات الاستثمارية لقيادات نصرانية غاية في التعصب والحقد على الإسلام .

ويوجد الآن بأندونيسيا أكثر من ثلاثة آلاف قسيس وسبعة آلاف متطوع من جنسيات أوربية ، وحوالى عشرة آلاف كنيسة ، وعدد هائل من الجمعيات والمعاهد الزراعية والمستشفيات الكبرى والمستشفيات المتنقلة ودور اليتامى والإذاعة المحلية التبشيرية

ومن أخطـر مـا تنتهجه الحكومة الأندونيسية للتعجيل بالتنصير — العمل على تهجير الأهالي من مناطق التجمعات

الإسلامية ، وقد شملت مناطق التهجير لامبونغ في سومطرة ، وكاليمنتان ، وسولاويس ، وكالوكو ، وإيريان .

كما يعتمد التبشير على طبقة المرشدين الاجتماعيين الذين يخدعون الناس بالأدوية والطعام ، ويعطونهم النصرانية في داخل علب القشدة والزبدة ولعب الأطفال . وتقوم الهيئات التبشيرية بتبني الأطفال البائسين وتنصيرهم تحت عنوان « إنقاذ الأطفال » ! ! !

أخطر تقرير سري عن التبشير في أندونيسيا :

ونكتفي في نهاية هذه السطور بنقل تقرير سرّي أصدرته إرساليات التبشير البروتستانتي في جنوب شرق آسيا ، وذكرت فيه ما نصّه : « إن ما ينفق على التبشير سنوياً في أندونيسيا يبلغ ٣٥٠ مليون دولار ، منها (٥٠ مليون) دولار لأعمال التبشير الإعلامية ومراسليه الإداريين في المقر العام بسويسرا .

كما تقدم هيئة المعونات الكاثوليكية ستة ملايين دولار سنويا إلى حكومة أندونيسيا — لمساعدة قطاع الإنماء القروي .

وتقوم إحدى الهيئات التبشيرية الأجنبية في أندونيسيابتقديم المعونات الغذائية إلى ٣٢٠ ألف شخص ، من مختلف أنحاء أندونيسيا ينتمون إلى مختلف دور الأيتام والمؤسسات الصحية وملاجئ العجزة بجاكرتا وكاليمنتان .

وتقوم هيئة تبشيرية بروتستانتية بتقديم المعونات الغذائية

إلى ١٣ ألف شخص في مختلف أنحاء أندونيسيا ، كما تقوم بتقديم معونات طارئة عند الحاجة ، بالإضافة إلى ذلك تقدم المساعدات إلى ١٧ مشروعا قرويا للإنماء في سومطرة وسولاويسى لترقية مستوى انتاج المواد الغذائية .

أما المؤسسة التبشيرية العاملة في ايريان الغربية فهي تمتلك (١٧) طائرة مختلفة بالإضافة إلى شبكة مواصلات لاسلكية وخمسة مطارات . وتقف هذه المؤسسة وراء الحركة الانفصالية التي تستهدف فصل ايريان الغربية عن اندونيسيا وإقامة دولة نصرانية مستقلة عن اندونيسيا المسلمة .

وفي قطاع الشئون التعليمية تقوم مؤسسة (مونتفورت فاذر) أى (الأب مونتفورت) ببناء عشرات المدارس العامة والمهنية ومدارس التمريض ، والعيادات والصيدليات في كل من (سينتانغ وبينومارتينوس ، وبوتوس سيبا ، وسيجرام ، وينجهابينا ، وبيكا ، وسراواى) .

وفي قطاع ملاجئ الأيتام تقوم مؤسسة تبشيرية كبرى بتقديم المساعدات الغذائية والملابس إلى (٥٥) ملجأ للأيتام بها ما لا يقل عن ثلاثة آلاف يتيم ، كما تقوم بتقديم البرامج والمساعدات التقنية وتقديم المواد الغذائية والملابس والأدوية لمنكوبي الكوارث الطبيعية واللاجئين والفقراء في مناطق استراتيجية للتبشير .

أما في ميدان النشر والشئون التعليمية فتقوم مؤسسة تبشيرية متخصصة مركزها جاكرتا ولها فروع أخرى – بنشر عشرات الكتب سنوياً في مختلف الموضوعات الثقافية والفلسفية والدينية. كما تقوم المؤسسة بتسهيل تعليم الشئون الفنية الخاصة بنشر الكتب الدينية . ويمتلك المبشرون مطابع متخصصة في طبع الأناجيل وبيعها بأقل سعر أو مجاناً . وفي قطاع المكتبات تتصدر عمارة (دار النشر المسيحية) بجاكرتا « قونونغ مليا » مكتبات دور النشر التبشيرية التي تهتم باعداد الخرائط وكتب الأطفال التبشيرية . وفي ميدان الصحافة يملك التبشير صحيفتي « كومبارس » و « سينار هابان » اللتين تطبعان يوميا زهاء (٢٠٠) ألف نسخة . هذا فضلاً عن ملكية التبشير : في كاليمنتان الغربية (١٧) مطاراً ، (١٥) مدرسة ، و (١٣٠) مستشفى . وفي سومطرا يملك التبشير مستشفيات ومطابع وكنائس في مساحة قدرها « ٤٠ هكتارا » وأسطولاً من السفن وطائرات « التشستا » والزوارق السريعة والسيارات والدراجات النارية .

(النموذج الثاني)

غزو تبشيري لنيجيريا : أكبر بلد إسلامي في إفريقيا [1] :

ومع الغارة التبشيرية العامة والمعروفة على افريقيا المسلمة ثمة تركيز على نيجيريا كأكبر بلد إسلامي إفريقي مثل التركيز

(١) راجع التقرير المنشور في مجلة البلاغ الكويتية عدد ١٤٩ .

على أندونيسيا في آسيا . والجدير بالذكر أن عدد المسلمين يقترب في نيجيريا من ستين مليونا ، من بين عدد السكان البالغ ثمانين مليونا ، ويشكل المسلمون نحو ٧٥ ٪ من عدد السكان ، ولا تمثل النصرانية أكثر من ٧٪ .

ويتجمع معظم المسلمين في نيجيريا الشمالية ، وهم قبيلة « الهاوسا » التي تشكل أكثر من ٩٠ ٪ من سكان نيجيريا الشمالية ، ويتناثر بقية المسلمين في مقاطعات نيجيريا الأخرى التي تضم قبائل وثنية ونصرانية .

ومع هذه النسبة ، فان الغزو النصراني لنيجيريا قائم بجدية ونشاط لا يفتر للحظة واحدة .

ولقد أصبحت نسبة المدارس التبشيرية تزيد عن (٧٠ ٪) من مجموع المدارس في نيجيريا ، وأما المدارس الرسمية فان التبشير يحاول — أيضا — أن يمد نفوذه إليها مستغلا فقرها وحاجتها للمدرسين ، وبخاصة المدرسات اللاتي جلب التبشير منهن — أعداداً كبيرة غزا بها نيجيريا الواسعة ، وتعمد أن يكن من ذوات الجمال والفتن ، وأوعز إليهن بالعري ، وبما يتصل به من وسائل نشر الفساد الخلقي بين الشبان . . .

ولقد استطاع التبشير النصراني أن يستعين على نجاحه بوسائل أخرى نجح في السيطرة عليها كل النجاح . . . ومن هذه الوسائل :

١ — السيطرة على الصحافة والإذاعة في غالب الولايات .
٢ — إنشاء إذاعتين خاصتين للتبشير ، تعملان على تعليم الإنجيل.
٣ — امتلاك معظم دور النشر والمكتبات ، والهيمنة على ما يملكه ، بحيث يوجهها بوسائل التأثير المختلفة إلى تشويه الإسلام أو الوقوف منه موقفا سلبيا على الأقل .
٤ — السيطرة شبه الكاملة على المستشفيات والصيدليات ومعاهد التمريض التي لا عمل لها إلا تخريج مبشرين ومبشرات .
٥ — إنشاء الجمعيات التي تزعم أنها لمساعدة الفقراء ولأعمال البرّ ، فضلا عن الأندية الثقافية والرياضية والرحلات والكشافة

* * *

وقد استطاع التبشير هناك استغلال النصارى المحليين كل استغلال في مجال الاقتصاد ، بحيث أصبح معظم رأس المال الوطني في أيديهم وأيدي الأجانب ، وصار من الصعوبة بمكان أن يجد المسلم عملاً يقتات منه . . وقد أصبح النيجيري المسلم ، يبدو وكأنه غريب في بلده التي يرى خيراتها في يد غيره . . . من المبشرين الذين يلوحون له بالطريق الوحيد للوصول إلى الثروة والعمل .

وهذا الفقر أو الإفقار كما هو معروف هو طريق المذاهب الهدامة دائما من نصرانية وشيوعية وغيرهما .

وحتى وسائل النقل والمواصلات سيطر عليها التبشير ، باعتباره القادر على استيراد السيارات الصغيرة والحافلات

الكبيرة والطائرات. وقد سهلت لهم وسائلُ المواصلات المتوفرة — الوصولَ إلى كل مدينة وقرية في نيجيريا بحيث وصل خطرهم — تقريبا — إلى كل ركن . . وإلى كل بيت .

وهم يسيرون في كل ذلك ، وبأيديهم الأناجيل المطبوعة بأفضل إخراج طباعي ممكن ، والمحلاة بصور للطفولة البريئة ، والتي تهدى لكل من يريد ومن لا يريد . ويساعد الأناجيل نشرات تعد للتوضيحات والشروح ، وللهجوم أيضا على الإسلام والقرآن وشخصية نبي الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام

٢ — اليهودية والصهيونية

التوراة والتلمود والبروتوكلات :

الحديث عن التوراة من ناحية تحريفها وتناقضها الداخلي ، وتناقض الأناجيل معها ، — أصبح حديثا مكرورا — وإن التوراة لتحفل بمقررات لا تليق بالوحي الكريم ولا برسالات السماء ورسل الله .

وأسوأ ما في التوراة هو تصويرها لله نفسه — حاشاه أن يُشبّه أو يجسم — فالله — في التوراة — يدخل في عراك مع يعقوب ، ويكاد يعقوب ينتصر عليه (!!) ويضطر عندما يكاد يعقوب أن يغلبه لطلب العفو (!!) ولا يتركه يعقوب إلا بعد أن يباركه — رغم أنفه [١] — !!

والله — في التوراة — إله خاص .. لا يحبّ إلا بني إسرائيل .. وأما بقية الأمميين (الأغنام) فهم أقل من أن يأبه الله بهم ! !

أما الأنبياء ... فبعضهم يزني ، بل يزني بابنته [٢] ...

(١) أنظر الفصل لابن حزم ١/٢١٨ وأنظر الدكتور أحمد شلبي : اليهودية ٣٢ وما بعدها .

(٢) المكان السابق .

وتدّعي التوراة أن السحرة يقدرون على إحالة الطبائع ، كانسان يصير حماراً ، أو العكس ، وتدعي أن الله حرض اليهود على سرقة المصريين عند خروجهم من مصر ، وتدعي أن هارون – عليه السلام – هو الذي صنع لهم العجل ليعبدوه[3]

فهل يمكن أن يكون هذا كتابا إلهياً مقدساً جاء لتعريف البشر بالله وهدايتهم إلى طريقه ؟ ! !

هل يمكن أن يكون كتاباً مقدساً من يقول : « كل النساء غير اليهوديات مومسات » ويقول « يستحق القتل كل الجوييم – غير اليهود – حتى ذوو الفضل منهم » ويقول : « من قتل غير يهودي فقد قدم قربانا للرب » ! !

* * *

أما التلمود – وهو الكتاب الثاني لليهود – فهو أكثر سوءاً من التوراة ولا عجب ، فإذا كان في التوراة رائحة دين – فان التلمود بجملته اختراع يهودي خرج من صميم الفكر اليهودي ، وصوّر أعمق تصوير حقيقة النفسية اليهودية .

يقول التلمود في وصف السيد المسيح الذي كرمه القرآن أي تكريم :

« يسوع الناصري – أي عيسى – ابن غير شرعي ، حملته أمه وهي حائض سفاحا من العسكري باندارا ، وهو

(٣) أنظر اليهودية ١٦٦ ، ١٦٧ وأنظر الرد على ابن النغريلة لابن حزم ٦٥ – ٨١

كذاب ومجنون ومضلل وساحر ومشعوذ ووثني ومخبول »

« مات يسوع كبهيمة ، ودفن في كومة قذر » .

« الديانة المسيحية ديانة غريبة وثنية ، وهي كالمرأة النجسة تلوث كل من يتصل بها » .

وأما عن أتباع المسيح في رأي واضعي التلمود . . . :

« أتباع يسوع (عيسى) يطرحون بعيداً كما تطرح خرق حيض المرأة » .

« كل المسيحيين عبدة أوثان ، وثنيون ، قتلة ، فسقة ، إنهم حيوانات قذرة ، إنهم كالغائط ، إنهم بهائم ، حمير ، خنازير ، كلاب بل أسوأ من الكلاب ، يتناسلون بطريقة أحط من البهائم [1] » .

* * *

وتأتي البروتوكلات في الدرجة الثالثة بعد التوراة والتلمود — لتضع اليهود على عتبة السيطرة الكاملة على العالم ، ولترسم لهم الطريق للقضاء الكامل على عقائد البشرية وأخلاقها وكل أواشج تماسكها .

---

(١) أنظر في هذا الباب : فضح اليهود : تعاليم اليهود السرية (آى — بي براناتيس) ترجمة زهدي الفاتح نشر بيروت ١٩٦٤ (صفحات ٥٥ وما بعدها) وأنظر أحمد عبدالغفور العطار ص ٩ ، ١٠ (مؤامرة الصهيونية على العالم) طبع مكة المكرمة .

وإذا قدر أن يكتب تاريخ البشرية في القرون الثلاثة الماضية من وجهة نظر محايدة — فسوف يتكشف الأمر — أن معظم الأحداث الكبرى التي وقعت خلال هذه القرون كانت نتيجة التأثير المدمر ، والتخطيط الشيطاني الذي وضعه اليهود في هذه البروتوكلات . . . فالانقلابات الدموية ، والثورات الفوضوية ، والمذاهب الانحلالية ، والغارات الجوفاء الثورية ، والحربان العالميتان . . كل ذلك وغيره كان بتأثير البروتوكلات ! !

وإن أي قراءة ممعنة للبروتوكلات — سوف تبين — بجلاء — صلة هذه البروتوكلات بكثير من التيارات والأحداث التي وقعت في العالم ! !

جاء في البروتوكول الأول :

* « السياسة نقيض الأخلاق ، ولا لقاء بينهما ، والحاكم الذي يدين بالأخلاق في حكمه ليس بالسياسيّ الحاذق ، وعرشه ليس بالعرش الثابت . ويجب على من يريد أن يتسلم الحكم أن يتزود بالمكر والرياء . وأما الفضائل الإنسانية كالصدق والاستقامة فهي في عرف السياسة رذائل هي أقدر على هدم العروش من أشد الأعداء ضراوة وفتكا » .

« والوحيد الذي يستطيع فهم السياسة هو من أُعِدّ منذ نعومة أظفاره إعداداً خاصاً للحكم الفردي المطلق »

« كنا نحن أول من نادى في العصور الغابرة بكلمات « الحرية والمساواة والإخاء » فاجتذب النداءُ الناس ، وأخذوا يهتفون بها ويرددونها في كل أقطار الأرض ترديد الببغاء ، دون فهم أو إدراك — وأدى بهم الهتاف الببغائي إلى عرقلة التقدم الإنساني في العالم ، وحرمان الفرد من حريته الذاتية الأصلية التي كانت في مأمن عن عبث الجماهير » !!

وما جاء في البروتوكول الثاني :

« لقد أقنعنا غير اليهود بأن مذهب الحرية « الليبرالية » مُفْضٍ بهم إلى حرم العقل ومِن هذا نَفْسِه سيكون منطلق سلطتنا المستبدة في قمع كل الثورات ، واتخاذ العنف في استئصال كل فكرة تحرريّة من كل نظام » .

وهكذا تستمر البروتوكلات الأربعة والعشرون [1] ، كل منها يشير إلى تخطيط يهودي مدمر في مجال من مجالات الحضارة الإنسانية ، حتى ينتهي الأمر بالبشرية إلى أن تئول صاغرة ضعيفة ذليلة كالأبقار — حسب التعبير اليهودي — إلى ملكية اليهود .

(١) نقلنا هذه الأقتباسات من طبعة / أحمد عبد الغفور العطار (مؤامرة الصهيونية على العالم) .

المسلمون وهذه المفاهيم :

ونحن من وجهة نظر إسلامية — ننكر هذه الأساليب الخبيثة ، ونعتبر البشرية أمانة في يد كل دين صحيح في مرحلته التاريخية . . عليه أن يسعى لهدايتها إلى الصواب ، ويحدب على خرافها الضالة . . لا أن يغذي انحرافاتها وضلالها ويستثمر هذه الانحرافات لحسابه الشخصي . . . وقد ذكر القرآن الكريم في وصف محمد عليه الصلاة والسلام : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين [1] » .

ولئن كان خطر اليهود — كما نرى — يمتد إلى مستوى العالم كله — فان خطرهم جسيم بالنسبة للفكر الإسلامي والعالم الإسلامي . فهم الذين حاولوا تشويه الفكر الإسلامي ، وأدخلوا عليه بدعاً منكرة تحت اسم التشيع ، ودسّوا على نبيّه الإسرائيليات ، وقاوموه منذ جاء بالفكر والعمل .

ثم مع ظهور العصر الحديث ، ومع انحطاط المسلمين ، وبروز القوى اليهودية الصهيونية طمع اليهود في السيطرة على العالم العربي ، ثم العالم الإسلامي . وهم الآن يحتلون أجزاء كبيرة من أرض المسلمين ، ويريدون — انطلاقاً من هذا الاحتلال — السيطرة على الاقتصاد ، وتوجيه الإعلام والصحافة توجيها كاملا ، وإقامة علاقات سياسية يطبقون عليها أسلوبهم السياسي الذي ذكرته البروتوكلات . وإلى غير ذلك من أخطار توجب

(١) الأنبياء ١٠٧ .

على المسلمين أن يدرسوا اليهود فكرا وتاريخاً . بشيء كبير من التمعن ، حتى لا يقعوا في حبائل هؤلاء الشياطين .

وقبل أن نختم هذه الكلمات نحب أن نشير إلى أن ما يشيعه اليهود ويقبله بعض المسلمين عن سذاجة أو تساذج — من أن هناك تفرقة بين الصهيونية واليهودية — إنما هو أمر باطل ، وهي تفرقة مقصودة يفيد منها اليهود .

وليست الصهيونية إلا طليعة البعث اليهودي الحديث الذي يقود جماهير اليهود المنتشرين في الأرض إلى السيطرة على العالم من خلال العودة إلى فلسطين (مملكة أورشليم) بل إن كلمة صهيون نفسها ، تعني (مدينة داود) التي تطل على أحد تلال القدس ، كما أن فكرة العودة إلى فلسطين وتهويدها جزء لايتجزأ من العقيدة اليهودية [1] .

فكيف يفرق البعض إذن بين اليهودية والصهيونية ؟ وهل تخلت جماعات اليهود عن جماعات الصهيونية . . . تخلياً حقيقياً في أية مرحلة من مراحل محاولات اليهود العودة إلى فلسطين ؟ ! ! وهل يتجاهل البعض أساليب اليهود في اللعب على كل الحبال . . لكسب جميع القوى في العالم ، مهما اختلفت مشاربها ، في كل الحالات والمجالات ؟ ! ! وهل تحتاج الأساليب اليهودية إلى مزيد وضوح ! !

(١) أنظر خلف الحسيني : اليهودية بين المسيحية والإسلام طبع وزارة الثقافة بمصر سنة ١٩٦٤ ص ١٤ ، ٢٠ .

إن يهود اليوم ، كما قال أحد المعاصرين « ليسوا يهوداً [1] » إنهم جميعاً صهيونيون ، ينتظمهم فكر جديد مصهور في بوتقة ذات شعب ثلاث : التوراة والتلمود والبروتوكلات ، وهم بهذا الفكر المختلط الجديد ، يتقدمومون للسيطرة على العالم ، مستغلين كل القوى ، ويتظاهرون بكل نحلة . . فهم رأسماليون مع الرأسمالية ، وشيوعيون مع الشيوعية ، وهم مع الليبرالية الديمقراطية . . وهم مخترعو الشعارات الغوغائية كالاشتراكية التقدمية والرجعية والحرية والإخاء والمساواة وغيرها . .

بل إنهم ليقودون كل القوى ، ويوّجحون الصراع بينها . . لكي يضرب العالم بعضه ، وتبقي لليهود — وحدهم — من خلال جمعياتهم السرية كالماسونية والروتاري — فرصة السيطرة على العالم .

فهل يتنبّه المسلمون . . . إلى صور الخطر اليهودي الصهيوني المحدقة بهم ! !

---

(١) عنوان كتاب لزهدي الفاتح .

٣ — المادية الجدلية : عرض ونقض

تمهيد :

عندما نتناول المادية الجدلية « الماركسية » بالتحليل فإننا نلتقي — فعلاً — بأكبر حل خاطىء يكتسح عالم اليوم ، ولم يكن هذا الحل ابن يومه بالنسبة للعرب ، وإنما كانت له خلفية في الذهن العربي منذ تحطم السور الذي كان يحكم جمهوريات « الاتحاد السوفيتي » منذ سنة ١٩١٧ م . . . وبدأت روسيا تخرج من خلف أسوار « التجربة اللينينية » لتعلن على العالم بضائعها الجديدة .

وزاد هذه البضائع إمعانا في الإغراء عدة ملابسات اقترنت بظهور التجربة وبداية التفات العالم إلى القوة العسكرية للاتحاد السوفيتي . . . ومن هذه الملابسات :

أولا : خروج الاتحاد السوفيتي من الحرب العالمية الثانية كصاحب يد طولى في القضاء على النازية الهتلرية .

ثانياً : الوجه « العلمي » المتفوق الذي بدأ الاتحاد السوفيتي يظهر به أمام العالم ككتلة ثانية تقف في وجه الكتلة الغربية .

ثالثا : الوجه « الإنساني التحرري » الذي أضفاه الاتحاد السوفيتي على نفسه كعملية اقتضاب لأكبر أرضية ممكنة يواجه بها الكتلة الغربية ، وهي عملية « تكتيكية » مزيفة !!

رابعاً : ظروف القلق الذي كان يعانيه إنسان العالم الثالث عموما نتيجة العلاقة السيئة التي تربطه بالإنسان الأوربي المتوحش الذي فرض عليه الجمود والعبودية والتأخر ، فكان ذلك الإنسان يحاول قدر استطاعته التخلص من هذه القيود ويرضى بأي بديل لهذه الوضعية بصرف النظر عن « ماهية » ذلك البديل .

خامساً : لم تكن التجربة السوفيتية في الحقيقة قد استطاعت إخفاء بعض جوانبها الواضحة السوء ، لا سيما ذلك التناقض الذي يظهر بين شعاراتها الإنسانية ، وبين الأسلوب اللا إنساني الذي استعملته خلال مراحل التطبيق ، كذلك ما يتعلق بالنواحي الفطرية في الإنسان . وما يتعلق بعلاقة الإنسان بالكون المحيط به . وتجاهل بعض الحقائق الكبرى التي اثبتتها التجربة الإنسانية ولم تعد تقبل التغيير الجذري وإن قبلت التعديلات الشكلية .

* * *

ولنبدأ هنا في محاولة موجزة لمعايشة النظرية الماركسية نفسها في بعض أبجدياتها ثم بعد ذلك ، نربط النظرية بالواقع الإسلامي

لنصل إلى النتيجة التي تمليها طبيعة النظرية والواقع معا . .

أصل الحياة بين الماركسية والإسلام :

منذ أقدم العصور والعلماء يحاولون إيجاد الأساس الأوليّ لجميع الظواهر الموجودة في الواقع .

وفي صفحات الفكر البشرى أصداء كثيرة جدية لتلك المحاولات الطليعية ، وقد ظلت هذه المحاولات مرتبطة بتطور الفكر البشري نفسه فأينما كان الإنسان فهو دائما يبحث عن سرّ هذا الكون الغامض المحيط به . ولذا فقد اختلفت التغيرات حول هذا الاساس

لقد رأى بعض العلماء هذا الأساس في « الماء » . وإلى ذلك ذهب فيلسوف اليونان « فاليس » . كما رأى بعضهم ذلك الأساس في « الهواء والنار والتراب » ورآه آخرون على رأسهم (ديموقريطس) في جزئيات متناهية في الصغر لا تقبل التقسيم وهي « الذرات » أي اللبنات الأولى في الكون . ثم ظهرت عند تخوم القرنين التاسع عشر والعشرين العبقرية اليهودية التي تمكنت من تفتيت الذرة وأصبح من الصعب أمام إمكانية التفتيت المتتالية لكل « الجزئيات » تصوّر وجود أية لبنات أولية يمكن إرجاع أصل الحياة إليها . على أن الوجود الحقيقي لمجموعة خصائص تشترك فيها الظواهر المادية مهما كانت نوعياتها وأحجامها . وعلى أن أجهزة الكشف العلمية قدتطورت تطوراً ضخماً مكنها من إدراك التذبذب ما فوق الصوتي

والموجات اللاسلكية .

لهذا ولغيره فقد ظهر مع هذا التطور العلمي الرأي القائل بوجود أصل مشترك مانع جامع هو « المادة » أي تفسير أصل الحياة على أساس « ذري » بحت . ومن هذا التفسير انطلقت « المادية الجدلية » كوجهة نظر جديدة في تفسير الكون وأصل الحياة ووصف لينين «المادة » بأنها «الحقيقة الموضوعية الموجودة بصورة مستقلة عن الوعي والمعطاة للإنسان في حواسه » . وقد أضفت هذه النظرية على « المادة » كل صفات الخلق والإبداع فأعطتها خصيصة الأزلية الأبدية أي « لا محدودية الزمان » .

وبما أن تطور العلم ووسائل الكشف قد وسع الحدود المكانية للعالم وعمق أبعاد تصوراته وكشف عن تنوع أشكال المادة (الكتلة الميكانيكية الثابتة — الحقل الكهرطكسي) فقد أعطت النظرية المادة خصيصة « لا محدودية المكان » . . وبالجملة فقد أصبحت « المادة » تلسكوبا عصريا تنظر منه الحركة الماركسية إلى كل معطيات العلم وتلخص به رأيها في أصل الحياة . . والحق ، فلسنا في هذا المكان بصدد تتبع هذه الناحية على سبيل الاستقصاء . . لكننا نشير فقط إلى أصل « أيديلوجي » من أصول النظرية ، لم يكن بوسعنا أن نتخطاه .

وفي الحق كذلك أن ردنا على بعض نواحي النظرية لايعني كذلك استقصاء لكل ظواهر السقوط في النظرية — فلهذا وذاك

مكان آخر خاص باذن الله — وإنما نحاول هنا فقط أن نشير إلى بعض الأبجديات و « المسلمات » التي سقطت فيها النظرية أو تناقضت فيها مع نفسها .

عرض علمي :

لقد ثبت في غضون السنوات الأولى للقرن العشرين أن كتلة الألكترون تتغير تبعاً لسرعة الحركة نفسها . ولقد بطل بهذا ذلك الأساس الذي اعتمدت عليه النظرية المادية ، وهو الأساس القائم على ربط مفهوم المادة بثبات الكتلة ، وأدى ذلك أيضا إلى عدم الثقة في (المادة) نفسها كأصل جازم وكلي للحياة . . فإن عدم ثبات الكتلة يؤدي إلى تلاشي المادة نفسها ، وبالرغم من أن (لينين) قد ردّ على هذا الاعتراض وأكد أن المادة لا تتلاشى وإنما يتلاشى كما قال — الحدّ الذي تقف عنده معلوماتنا عنها . الا أن لينين بهذا الرد نفسه — قد تورط في أسلوب غير علمي إذ سمح لنفسه بالحكم على «المادة» في حالة عدم وجودها في الوعي البشري. والعلم إنما يحكم على الظواهر التي يلمسها أو التي يمكن أن يخضعها لمقياس واضح ملموس — من وجهة نظر الماركسية — ! !

وبالنظر إلى تعريف لينين للمادة الذي أوردناه سابقا ، يتبيّن أننا لم نظلم لينين حين حكمنا بتناقضه مع نفسه ومع المنهاج العلمي الذي يريد أن ينتسب اليه ، ولكن : هذه الحركة

التي تقوم بها المادة والتي تسير بها دورة الزمان منذ بدء الخليقة من أين ينبع مصدرها ؟

إن التفسير المادي ينسجم مع نفسه إذ يعلن : أن جميع الأشياء المادية تتضمن في ذاتها أضداداً ، حتى الحركة الميكانيكية البسيطة لا يمكن تصورها بدون أضداد أي بدون فعل ورد فعل وجذب ودفع ، ونواة مشحونة شحنة موجبة وغلاف الكتروني مشحون شحنة سالبة . . وبالتالي فنواة الذرة تشكل وحدة جسيمات متضادة ، واصطدام هذه العناصر المتضادة وتصارعها هو مصدر الحركة الموجودة في الكون ، واذن فالزعم «بالفرضية الإلهية » زعم باطل وهوحجة ضعيفة يلجأ إليها ضعاف العلماء ، بل غير العلماء أصلاً كما يقول المذهب الماركسي ،والمادة بهذا الشكل بينما هي النواة الأولى للحياة هي كذلك (الحركة الذاتية الداخلية) لسير التاريخ الطبيعي ، ولا مجال لافتراض حقيقة أخرى كالإله مثلا .

ومرة أخرى نعود لنلفت النظر إلى شيء نراه مهما وأساسيا. فان النظرية الماركسية نفسها لا تنكر القول بوجود قوانين كونية ، وبأن قوانين الصدفة لا مكان لها في حركة الكون ، فان مصطلح « الدياليكتيك » ، ذلك المصطلح الذي كان يعني فن الجدل والمناظرة أصبح يستعمل في ظل الماركسية كعلامة على الصلة العامة بين الظواهر ونظم تطور العالم . . ومنذ ظهر العالم السويدي « كارل ليف » في أواسط القرن الثامن عشر وأثبت

أن هناك انتظاماً معينا يلازم تنوع الطبيعة الحية ، ثم تبع ذلك فيض من القوانين التي اكتشفها العلم « قانون نيوتن » ، قانون بويل ، ماريوت ، قانون الجاذبية العالمية ، قانون الكهرباء قانون انعكاس الضوء ، قانون أفو غارود ، قانون مندلييف الدوري . . . إلخ » . . .

منذ هذه الإضافات الممتازة في حقل العلم ، والعقل البشري – والماركسية كذلك – يؤمن بوجود قوانين ثابتة تنظم حركة الكون . . لكن السؤال الذي يجب أن يبرز هنا هو : كيف يمكن أن تظهر على شاشة الكون كل هذه المجموعة من القوانين وكيف يمكن أن تطرد هكذا عشوائياً ؟

إننا نستطيع أن نؤمن بأن تلك « الوحدة الذرية » الصغيرة التي اكتشفها التلسكوب العصري هي أساس مبنى الأمم المتحدة وأساس كل التنظيمات العلمية الموجودة بداخله .

لكننا لا نستطيع أن نصدق أن ذلك الابداع كله يمكن أن تحكمه باطراد قوانين تظهر هكذا عشوائياً سيما أن ذلك الاطراد يستلزم بقاءً ثابتاً لمجموعة العناصر المتضادة الموجودة في كل جزئيات المبنى العظيم ، ويستطيع الانسان أن يتأكد من وجود مؤثرات خارجية تدخلت في اطراد القوانين كما أن هذه المؤثرات تدخلت كذلك في صنع القوانين نفسها ، ولم يكن دور الإنسان في الحقيقة إلا فهم هذه القوانين واستغلالها . . لكن الشأن في هذه القوانين لا زال يحتاج إلى ايضاح : هل كل ما يمكن أن

يقال عن الكون يقف عند حد هذه المجموعة من القوانين التي تم اكتشافها ؟

وهل الفهم الماركسي المستخلص من هذه القوانين العلمية هو الوصف الكامل والحكم الأخير على كل أبعاد قضية الكون ؟

وهل هذه القوانين قد أصبحت من كل الوجوه وبنسبة المائة في المائة صحيحة ومطردة ؟

إن الماركسية إذ تؤمن بهذا تحكم على الفكر البشري والتطور البشري الذي تزعم أنها حارسته بالموت الأبدي .

وليس من حق وجهة نظر — بشرية — ان تعطي نفسها حق الكلمة الأخيرة ، سيما فيما يتعلق بالحكم على الكون الذي لم تتوازن مع اتساعه معطيات العقل البشري ، وبينما — في الحقيقة — ذهبت الماركسية باسم « الدياليكتيك » تحذر من تحجر الفكر ومن الجمود العقائدي وقعت هي فيما حذرت منه . . ومع أنني لست مناهضا للماركسية في إيمانها بوجود قوانين شبه ثابتة وأعتقد أنها في هذه النقطة بالذات أقرب إلى التصور الإسلامي . إلا أنني أعتقد أن التصور الاسلامي أكثر شمولا وواقعية . إذ يؤمن بوجود جوانب نسبية في معارفنا عن العالم . . أي يجمع بين القوانين الموجودة فعلا وبين معارفنا التي تظل دائما قابلة للنمو والتجدد « فمع أن قوانين نيوتن احتلت مكانة مهمة في الفكر البشري إلا انه قد تبين أن تلك القوانين لا تمثل إلا حالة

جزئية من قوانين أعم أكتشفها « البرت اينشتاين » فيما بعد . . . فالجمع في التصور الإسلامي بين القوانين والنسبية هو التصور الصحيح — في رأينا — لحركة الكون وهو فتح دائم لنافذة العقل البشري على شاشة الكون وأما تحجر النظرية الماركسية عند مجموعة قوانين ورفضها للمذهب النسبي جملة فلقد أثبتت الممارسة بطلان هذا التصور وعدم ملاءمته للواقع . .

ولا بد هنا من الإشارة في تحليل أصل الحياة وحركة الكون إلى الرفض الماركسي المطلق لفكرة « الإله » . والماركسيون في رفضهم للإله إنما ينطلقون في الحقيقة من بؤرة الاعتماد الكلي على معطيات العلم ، وما دامت مناهج البحث العلمي والاكتشافات العلمية المذهلة التي لم تأخذ بيدنا إلى اكتشاف الإله والتأكد الحسّي من وجوده مثلما تمكنت من كشف « الجراثيم » مثلا على يد « لوفن هوك » « وباستور » و « كوخ » خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، فان الفكر الماركسّي — يرفض بالتالي فكرة « الإله » ، ويرفض القول بوجودها البتّة . . . « لقد بدأ الإنسان يغزو الفضاء الكوني وهو يتغلغل في أسرار عالم الصغيرات ولكنه لم يجد في أي مكان منهما أية آثار لنشاط العقل الكلّي ، وإنما تفسير جميع الظواهر بأسباب طبيعية ».

إني أومن هنا مخلصاً في مجال دراسة الرأي الماركسي في أصل الحياة وتطور الكون – بأن هذا الرأى لا يعدو أن يكون تكراراً لذلك الرأي الذي ذهبت إليه جماعة الثورة على الأوضاع الكنسية المظلمة في فرنسا خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر . . . لقد ارتبط في الذهن الثوري أن القول « بالإله » يعني تحطيم كل مناهج البحث العلمي . والحقّ لقد كانت الكنيسة سبب هذا الخلاف الحادّ الذي وقع بين المادة والروح بسبب منهجها وسلوكها السخيف . ولم يكن « ماركس » و « لينين » إلا تلميذين « لدائرة المعارف العامة » التي وضعها في النصف الأول من القرن الثامن عشر المفكرون الثوريون « فولتير » و « ريلامبير » و « بوفون » و « درو » وغيرهم . . . والتي بنيت على أساس إنكار وجود الله باعتبار « الله » عقبةً أمام المنهج العلمي أو باعتبار وجوده نفسه « لا يخضع للمنهج العلمي » والفكر الماركسي لا يفتأ يردّد في كبرياء ذلك الحوار الذي دار بين نابليون والعالم الفلكي « لاباس » والذي سأل نابليون فيه « لاباس » عن سبب عدم ورود ذكر « الله » في مؤلفاته . . . فأجابه العالم الفلكي باعتزاز « إنه في بحوثه لا يحتاج إلى هذه الفرضية » .

ومن هنا فالماركسيون – كعلميين – لا يحتاجون إلى هذه الفرضية ، ويعتبرون اللجوء إليها نوعاً من القصور العلمي . ومرة أخرى يلزم أن أشير بصدد هذه الفكرة إلى عدة حقائق

محايدة وضرورية :

• فأما الحقيقة الأولى فان المنهج الماركسي كما لم يستطع أن يثبت وجود الإله ، بوسائله العلمية الحسّية ، فإنه كذلك لم يستطع أن يوضح لنا القوى الأخرى الداخلية الموجدة للعالم ، والمحركة له في رأيه . ولقد وصل مع (المادة) إلى نصف الشوط وعجز عن أن يجعلها بتناقضاتها الداخلية تقف على قدميها كخالقة ومخلوقة في الوقت نفسه كي تغنينا عن فرضية لإله !!! ،

• وأما الحقيقة الثانية فان المنهاج الماركسي قد أطلق لنفسه العنان فحاول أن يفرض قوانينه على « الله » مع أن — الله سبحانه — في التصور الإسلامي وفي حقيقته فوق دائرة هذه القوانين ، إنه هو صانعها .

• والحقيقة الثالثة في هذا الصدد والتي يجب أن تكون معروفة بالنسبة للتصور الإسلامي أن هناك فرقاً كبيراً جداً بين البحث في المجال « الفيزيقي » — أي الطبيعي — والبحث في المجال « الميتافيزيقي » — اى ما وراء الطبيعة — فلكل مجال منهجه الخاص به ، والخلط بين المنهجين عمل خارج نطاق العلم نفسه ، وفيما يتصل بالمجال المادي الذي انطلقت منه النظرية الماركسية متجاهلة عوامل كثيرة غير مادية ، وواقعية ، ولا يمكن إنكارها إلى الآن ، كما أنه لا يمكن تفسيرها تفسيراً مادياً . . . أقول : إنه بالنسبة لهذا المجال فان المنهج الإسلامي يؤمن إيماناً كاملاً بوجوب استخلاص القوانين واكتشاف

الظواهر إنطلاقاً من ذات عناصر الكون .

• والحقيقة الرابعة ، وهي تابعة للحقيقة السابقة ــ هي أن عملية الإثبات للإله في التصور الإسلامي تعتمد على استخلاص الحقائق الكونية العظمى ، كما تعتمد في الوقت ذاته على الفكر التجريدي الذي يتخطى دور الحواس المحدودة ــ والماركسية نفسها سلّمت بوجوب هذا التجريد ، باعتباره ضرورة في عملية المعرفة ، وإنْ تخبطت في تطبيقه وجعلته قاصراً ومحدوداً .

إننا ندع المجال هنا لأكبر عالم مادي في العصر الحديث « ألبرت آينشتاين » ليوضح لنا المنهج المناسب في تصور الذات الإلهية . . إنه يقول :

« إن الشوق إلى المعرفة والمحبة والرشاد يخلق في نفس الإنسان صورة رائعة للذات المقدسة ، يتجلى فيها القانون الخلقي والمبدأ الاجتماعي للإنسان ، فإن بعض الأشخاص الممتازين في الشعوب التي بلغت مراتب عالية يرتقون بأفكارهم إلى درجة الشعور « الكونيْ الدّيني » وليس بالعسير تفسير ذلك لمن لا يشعر به لأنه لا ينطوي على تشبيه مادّي للذات الإلهية ، ولا يشمل صورة للخالق سبحانه ، وإنما علامة هذا الشعور إدراك أربعة أشياء :

١ ــ بطلان الرغبات الزائلة والأغراض الإنسانية المتنوعة .
٢ ــ جلال النظام المدهش الذى يتجلى في عالمي الطبيعة والفكر .
٣ ــ أن مصير الإنسان مقيد بهذا النظام الكوني العجيب .

٤ ــ اعتبار هذا الوجود الكوني وحدة مشبعة بأسمى المعاني .

• • •

إن هذا الذي ذكرناه ليؤكد لنا تصور النظرية الماركسية ، وعجزها ، وجزئيتها ، ومحدوديتها المادية الحسّية ، التي لا تسمح بتفسير أصل الحياة . ولقد تكشف الوجه الحقيقي « الاستعماري » للاتحاد السوفيتي « رائد النظرية الأول » ــ وبالتالي ــ وفي ظل الخطأ الماركسي المزدوج . أى على مستوى « النظرية » و « التطبيق » يتضح بجلاء لكل ذي عقل أن الماركسية « المادية الجدلية » كانت في أسسها « الأيديلوجية » انحرافاً عقلياً وخلقياً من جملة الانحرافات التي ظهرت في التاريخ ، وقد أكدت مسيرتها المتخبطة ــ على مستوى التطبيق ــ ما حملته أسس النظرية من سمات التناقض والجزئية والقصور .

التفسير المادّي للتاريخ :

من جملة الأخطاء التي وقع فيها العقل العربي في مواجهته للمادية هو تذبذبه في حركة رد فعل بين طرفي البندول . . أي اتجاهه الى التفسير الرأسمالي في مواجهة التفسير الماركسي . . وسقوط آخرين ــ في المقابل ــ إلى تبني التفسير اليساري في مقابل التفسير اليميني . . أو الرأسمالي ــ والحقيقة أن الرأسمالية والماركسية ليستا طريق الإنسان . وليستا ــ بالتالي شركتين احتكاريتين تتقاسمان أطراف الحقيقة .

بل الحقيقة التي يؤيدها الواقع أنهما ـ معا ـ كانا السبب في ضياع الحقيقة . . وفي تضليل خطوات الإنسان . . وتعميق تاريخه المنحرف البعيد عن هداية الله ! !

* * * *

وبصرف النظر عن أن هذا « التقاسم الدعائي » للحقيقة الذي يشبه أن يكون تواطوءاً من أصحاب النظريتين أو هو بالفعل شبه اتفاق على دحض الفكر الإسلامي وتقسيم العالم ، عقائديا بينهما . .

بصرف النظر عن هذا ، فإننا لابد لنا من انطلاقة ذاتية وموضوعية . كي نستطيع تقويم التفسير المادي للتاريخ . . ووضع هذا التفسير في مكانه الصحيح من الحقيقة التاريخية وقوانين حركة التاريخ ! ! وفي البداية نسأل ـ أين مكان التصور الماركسي لحركة التاريخ من الحقيقة ؟ ـ وهل يصلح هذا التصور أساساً من أسس (أيديلوجية) صحيحة قادرة على قيادة الناس قيادة صحيحة نحو التطور التاريخي المنشود ؟ إذن وبالضرورة دعونا نشرح وجهة النظر المادية من خلال مصادرها الرئيسية المعتمدة .

* * * *

• إنهم يقولون إن العمل كان وسيظل شرطاً أزليا وطبيعيا للحياة البشرية . ويقولون إن وسائل الانتاج ونشاط الناس العملي

يشكلان معاً ركنا مهما من أركان التطور البشري ، ويشكلان كذلك دليلاً حيا على مستوى الحياة البشرية .

وبديهي أن وسائل الإنتاج أو ما يسمى بمنظومة علاقات الانتاج هي أكبر مقياس يدل على مستوى الحياة البشرية . وهي توضح الفرق بجلاء بين عصر استخدام المراوة والفأس والرمح وعصر استخدام الطاقة الكهربائية والذرية .

• ويقولون أيضاً . إن تاريخ المجتمع ليس إلا تاريخ تطور وتبدل التشكيلات الاجتماعية والاقتصادية وتجري هذه العملية حسب قوانين موضوعية غير متوقفة على وعي الناس وإرادتهم وتتجلىهذه الضرورة في تطور الإنتاج الذي يحدث بسبب اختمار حاجات مادية تحفز الناس إلى العمل في اتجاه معين ! !

* * *

وهنا لا بد أن نشير من جديد إلى أن الماركسية تعتمد على بعض المسلمات ثم تتدرج منها ببطء إلى زرع بعض المفاهيم الخاطئة تعطيها صفة المسلمات ، ولئن كنت مضطراً لعبور المسلمتين الأوليتين فانني أقف أمام التحليل الأخير وقفة قصيرة . .

إننا نؤمن انطلاقاً من وعينا بديننا بأن هناك رباطا قويا بين التطور الطبيعي والتطور البشري ، ونؤمن في الوقت نفسه بأن الحرية لا تنافي الضرورة لكن الضرورة عندنا هي الضرورة الطبيعية النابعة من مجموعة قوانين الكون . وفي تصورنا أن

ما يسمى بالضرورة التاريخية ، أي ضرورة انسياق جماعات بشرية وفق احتياجات مادية معينة . . . هذه الضرورة ، مع التجاوز في التعبير ، هي مجموع مشترك لوعي الناس وإرادتهم قبل أن تكون مجموع الحاجات المادية والوجود الطبقي !!

إن الحاجات المادية التي يقوم عليها وجود الإنسان هي حاجات قليلة جداً ، وفي إطار هذه الحاجات يمكن التسليم بدور كبير للمادة مع ضرورة اشتراك الوعي البشري في هذا الدور . . أما مراحل تطور التاريخ البشري كتاريخ إنساني بعيد عن مرحلة البدائية أعني مرحلة الوجود الإنساني المتحضر . .

هذه المرحلة كانت وستبقى مرحلة (الوعي البشري) في المكان الأول بعيداً عن تحكمات الطبقة الاجتماعية أو تأثير الطعام واللباس . . إن مئات القرون قد مرت على اكتشاف الإنسان لوسائل النقل البدائية . . . وفي خلال هذه القرون لم يكن الإنسان يحس بضرورة استعمال الفضاء كوسيلة نقل ، فهل يمكن القول بان استعمال الإنسان للفضاء هو نتاج الحافز المادي أم هو أولاً من نتاج الوعي البشري !! ثم يمكن أن يكون قد تطور نتاج الوعي البشري هذا حتى أصبح حاجةمادية ملحه ..!!

إن مجموعة الابتكارات العظيمة الموجودة الآن في سوق الحضارة الحديثة هي من حصاد الفكر والوعي البشري . ولربما لو لم توجد الآن على يد هؤلاء العباقرة لما أحسَّ الإنسان بضروراتها ، ولسار في تنظيم حياته بعيداً عن التفكير فيها . .

إن الفلاح العربي قد لا تظهر على شاشة عقله ربما طول حياته عملية ركوب الطائرة ، وربما يظنها بلاء على البشرية قبل أن تكون خادماً حيوياً للحضارة . . !! ونستطيع أن نقول ذلك في المذياع واللاسلكي والصواريخ والذرة . . إلى آخره . . لقد كانت أمريكا تعجّ باضطهاد العبيد . ولقد كانتّ ظاهرة « الأقنان » مؤرقة للضمير الإنساني — هذا حق ، لكن العبيد ظلّوا عبيدا قانعين بهذه العبودية حتّى جاء « إبراهام لنكولن » . . ويمكن أن يسأل المرء نفسه هل كان لنكولن عَبْداً ؟ هل توفر الحافز المادي المطلوب لدى لنكولن أكثر من العبيد أنفسهم ؟ علما بأن كثيراً من العبيد كانوا يقاتلون « لنكولن » نفسه محررهم وما هي الحقيقة إذن ؟

إن الحقيقة هي أن « لنكولن » قد تعمق لديه الوعي البشري والإنساني أكثر من العبيد أنفسهم وبوساطة هذا الوعي فجّر لنكولن مشكلة تحرر العبيد في أمريكا ودفع حياته ثمنا لشيء لم يتوفر لديه الحافز المادي للقيام به !! .

وكان لوثر أستاذا بكلية اللاهوت يملك إمكانية الحياة الطيبة لو أنه ساير الكنيسة وسار في قافلة الصمت والبحث عن الذات ، وكان الناس في أوربا يكادون يستسلمون للسلطان الكهنوتي ، لكن الأستاذ بكلية اللاهوت (لوثر) هو الذي رفع راية العصيان ضد طغيان الكنيسة الّتي هو أحد أساتذتها ، وتستطيع أن تجد نفس الظاهرة متوفرة في شخص « الكونت

ميرابو » ذلك النبيل الذي كان مدافعاً عظيماً عن حقوق الطبقة الثالثة خلال الثورة الفرنسية ، ويشترك معه « الأب سييس » رجل الدين البورجوازي في نفس الإيمان بحقوق الطبقة الثالثة (تولستوي وبالونين وماركس نفسه) وبعيداً عن الاستطراد فإن بإمكان المرء أن يستعرض معظم مراحل الانتقال في التاريخ البشري ليلمس أن وراء هذه المراحل رجالا حركهم « الوعي » و « الفكرة » والشعور الإنساني قبل أن تحركهم الحوافز « المادية » و « الطبقية » ومستواهم الاجتماعي . . !! .

إن التطور البشري في الحقيقة تدفعه حاجتان ملحتان هما عُنْصرا الفطرة المحققة للكيان الإنساني ، وإن أي فصل بين هاتين الحاجتين هو تمزيق للكيان الإنساني الذي لا يقبل التمزق . . إن هاتين الحاجتين الملحتين هما « الباعث الأخلاقي » (الإنساني) « والباعث المادي » . . والإنسان في سيره الحثيث التاريخي يسعى دائما نحو المثل الأعلى في هذين الأمرين والوصول إلى الرفاهية بينهما . . ولْيلاحظ أن هذين الباعثين يسيران معاً ويكمل كل منهما الآخر وتختل كفة الحضارة البشرية حين يطغى جانب على جانب . ومن الحق فإنّ عدم الوعي بهذه الحقيقة الإنسانية والحضارية هو سبب القصور في التفسير الماركسي لحركة التاريخ !! وبقدر ما تندفع الحاجات « البيولوجية »باحثة عن الإشباع في الكيان الإنساني فإنّ الحاجات الإنسانية المحققة لإنسانية الإنسان تندفع كذلك باحثة عن الإشباع

وطلب حقها العادل في الوجود والعمل .

* * *

. . إنني أدعو نظراً لضرورة الإيجاز هنا كل المفكرين العرب والإسلاميين إلى تشريح التاريخ ، وفقاً لهذه المعادلة ، تشريحاً كليا لا سيما ظواهر المد والجزر في الحضارات . وإنني لعلى يقين بأن الباعث الإنساني والباعث المادي ومدى توافرهما وحدود العلاقة بينهما سوف يحلان لنا كثيراً من مشاكل التاريخ ، ويقدمان لنا حيثيات كافية لأسباب المد والجزر . . وليكن في حسابنا ونحن نسير في شارع التاريخ بهذا المصباح أن نبحث عن الإنسان الفرد وعن الإنسان المجتمع ، ولنبحث كذلك عن توفر هذه المعادلة في داخل الإنسان كفرد وفي داخل البناء الاجتماعي ككل .

. . لقد طالما سألت نفسي عن تفسير مادي لحركات الإيثار الأخلاقي الكبرى التي ظهرت في التاريخ على يد أفراد عظام بل وجماعات عظيمة اعتنقت مبدأ الإيثار والارتفاع عن الخضوع الكامل « للحافز المادي » . . ومع أن المجتمع الغربي يعج الآن بالرفاهية المادية الضخمة . لكننا نلمس بعض ظواهر العزوف بل الملل والاختناق والانتحار الكثير مع وجود الحوافز المادية الباعثة على السير في طريق المادية المطلقة . . !! .

ألا يمكن أن يكمن وراء هذه الظواهر فقر أخلاقي وروحي لم يستطع التلاؤم مع الثراء المادّي الكبير ؟

لنحلل مذاهب العبث ، ولنحلل مذاهب اللا معقول ، ولنحلل مذاهب الضياع الكثيرة . . . ولسوف نكتشف من خلفها نقصاً في الجانب الروحي من الإنسان ! ! .

والأمر كذلك في الفقر الأخلاقي والخيالي والروحي الذي يصيب الحضارات ويسبب تدهورها وسقوطها في التاريخ ! ! .

* * *

إننا ملزمون أمام الحقيقة بمخالفة التفسير الماركسي للتاريخ في إعطائه المادة والاقتصاد هذا الدور . وبمخالفته كذلك في إنكاره لكل الأشواق العليا والخصائص الروحية الإنسانية ، وبمخالفته في فهمه لحقيقة الإنسان نفسه كفرد ، ولحقيقة الموكب البشري الزاحف نحو مثل أعلى يتفق مع فطرته الإنسانية العالية .

وهذه النواحي التي نختلف فيها معه هي التي تعطي للتصور الإسلامي أصالته وخلوده ، وتجعل سقوط التفسير المادي الجزئي القاصر للتاريخ أمراً طبيعياً وحتميا .

٤ - الوثنيات والمذاهب الفوضوية

تجتاح عالم اليوم وثنيات متعددة ، ومذاهب فوضوية ، انتشرت بتأثير الصراع المدمّر بين أصحاب الملل الكتابية ، وظهور المادية الجدلية ، والتيار المادي بعامة .

وتكاد هذه الوثنيات والمذاهب الفوضوية أن تكون سمة العصر ، فلم يعد الدين يحتل مكاناً لائقاً به في التوجيه الحضاري ، وإنما أصبح — على أحسن الفروض — جانبا شخصياً ، لا علاقة له بالتأثير العام في تيارات الفكر والسلوك الاجتماعي والحضاري .

والوثنيات قديمة ، نشأت من انحرافات « طوطمية » في التصور ، بالغت في التقديس حتّى وصلت إلى تأليه الأشياء والأشخاص . وقد ساعد عليها ضعف تأثير الأديان قبل الإسلام في بعض المراحل التاريخية ، عندما توشك ملة أن تسلم الراية لغيرها . . .

وربما كان للانحراف الذي طرأ على بعض الأديان تأثير في ذلك ، ولا غرابة في ذلك ، فإن ابن حزم الأندلسي (منشيء علم مقارنة الأديان) قد ربط في دراسته — بين اليهود وبعض

فرق النصرانية وبين أكثر النحل الوثنية . وحجته في ذلك أن كلا من هذه الأديان وتلك الوثنيات مقرٌ ببعض الأنبياء منكرٌ لبعضهم الآخر ، إذْ لا فرق بين أهل الكتاب المكذّبين بنبوة محمد ، وبين «الزرادشتيين» المكذبين بنبوة موسى وسائر الأنبياء، وبين « المانوية » المصدقة بنبوة عيسى وزرادشت[1] المكذبين بنبوة موسى ، أو الصابئين المكذبين بنبوة ابراهيم وأولاده ، المصدقين بنبوة إدريس وغيره[2].

وأشهر الوثنيات التي عرفت في التاريخ هي « المجوسية » وهي تنقسم إلى ثلاث فرق أساسية : الزرادشتية ، والمزدكية القائلين بالشيوعية في المال والنساء ، والخُرَّمية أصحاب بابك الخرَّمي .

ويعتبر بعض علماء الكلام المجوس من أهل الكتاب ، على أساس أن لهم شبهة كتاب ، يعترف المجوس أنفسهم بأن ثلثيه قد ضاع بالإحراق على يد الإسكندر الأكبر[3] .

ومع الخلاف بين مذاهب المجوسية فإن أسسها المشتركة هي الإيمان بالتالي :

١ ــ أورمن (وهو الباري فاعل الخير عندهم) .

---

(١) ليس هناك دليل أكيد على نبوة زراد شت، لكن ابن حزم ينقل وجهة نظر الزرادشتيين ، لكن هذا لا يعني موافقتهم على هذا الرأي .

(٢) أنظر الفصل ١/١٠٢ .

(٣) أنظر الفصل ١/١١٥ .

٢ ـ هرمن (وهو إبليس فاعل الشرّ) .
٣ ـ كام (الزمـان)
٤ ـ حام (المكان والخلاء)
٥ ـ توم (الجوهر والهيولى)

وهم يقدسون هذه الخمسة ويعظمون إلى جانبها الأنوار والنيران والمياه ، ويقرون بنبوة زرادشت .

أما الصابئون فهم يختلفون عن المجوس ، فهم وإن قالوا بقدم الأصليين : النور والظلمة مثلهما ، إلا أنهم يقولون بتعظيم الكواكب السبعة والبروج الأثني عشر ، ويصورونها في هياكلهم ، ويقربون الذبائح والدخان ، ولهم صلوات خمس في اليوم والليلة [١] .

وعلى نحو هؤلاء تفعل « البددة » بالهند في تصويرها على أسماء الكواكب والدقاقرة في إفريقيا ، حتى آل الأمر إلى عبادتهم للكواكب مع طول الزمان [٢] .

وأما فرق المنانية والديصانية والمزقونية فتجمع كلها على الإيمان بأن العالم هو مدبر أمر نفسه ، وتؤمن بأزلية الطبائع ، وبامتزاجها الذي حدث بامتزاجه حدوث العالم [٣] .

(١) الفصل ١/٣٤ وصاعد طبقات الأمم ١٥ .
(٢) الفصل ١/٣٥ .
(٣) المكان السابق .

وتأتي فرقة البراهمة في جملة هذه الفرق الوثنية ، وتتميز بأنها تنكر النبوات ويرى بعض المعاصرين أن ذلك ليس من آرائهم [1] ، ولعلّ تطوراً حدث في عقائدهم . وهم يقولون بنوع مخلوط من التوحيد كما يقولون بتناسخ الأرواح .

* * *

إننا لم نعرض لهذه الأفكار التي ظهرت في قارة آسيا بعامة — وفي إيران والصين والهند بخاصة ، خلال فترة الجاهلية العالمية التي سادت الأرض قبل الإسلام — إلا لنقارن بين هذه الفوضى العقدية الوثنية القديمة وبين الفوضى العقدية المعاصرة ، التي نعتبرها امتداداً للفوضى القديمة .

وحتى الفوضى الخلقية المنتشرة في الحضارة المادية المعاصرة هي في رأينا امتداد لفوضى أخلاقية قديمة ليست ثوباً عقدياً ...

إن المزدكية التي أشرنا سلفاً إليها ، والتي ظهر رائدها (مزدك) خلال النصف الثاني من القرن الخامس الميلادي — قد حرصت على الدعوة إلى (الشيوعية) في المال والنساء ، وهي لا تزيد عن النزعة الشيوعية السائدة في عالم اليوم ، سواء في مستواها الاقتصادى فى الشرق الاشتراكى أو فى مستواها الجنسيّ في الغرب الديمقراطي .

قال الشهرستاني عن مزدك : « لقد أحل النساء وأباح الأموال وجعل الناس شركة فيهما كاشتراكهم في الماء والنار

---

(١) د / عمار الطالبي آراء أبي بكر بن العربي الكلامية ١ : ٢٧٩ هامش .

والكلأ » وقد حظيت دعوة (مزدك) بموافقة الشبان والأغنياء والمترفين ، وصادفت من قلوبهم هوى ، وسعدت كذلك بحماية البلاط ، فأخذ قباذ يناصرها ونشط في نشرها وتأييدها حتى انغمست إيران بتأثيرها في الفوضى الخلقية وطغيان الشهوات وقد انتهز السفلة الفرصة ، فكانوا يدخلون على الرجل بيته ، فيغلبونه على منزله ونسائه وأمواله ولا يستطيع الامتناع عنهم [1] .

* * *

ونقول إنه في العصر الحديث لا زالت تعيش هذه العقائد ، وإن تطورت في بعض تعاليمها ، وحاولت أن تتفق مع بعض صور الرقي العقلي الذي ساد عالم اليوم .

لكن هذه العقائد لا زالت منتشرة في الهند والصين وفي كثير من دول إفريقيا وآسيا ، وإن تخلصت — كما ذكرنا — من بعض التعاليم البالغة السوء فيها .

وعلى سبيل المثال ، فقد كانت العادة في بعض مذاهب الهندوسية أن تحرق زوجة الرجل بعد وفاته وإحراقه ، حتى منع الإنجليز في الهند هذه العادة بقوة القانون الحاكم .

ولكن كثيرا من العبادات والطقوس البالغة السوء لا زالت

---

(١) نقلا عن أبي الحسن الندوي : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ٤٩ الطبعة العاشرة .

منتشرة ، وتمثل تحدياً صارخاً للعقل الإنساني ، كما تمثل جانبا من جوانب الصراع مع الثقافة الإسلامية التي يقودها مسلمو شبه القارة الهندية ، وتنعكس نتائجها على الثقافة الإسلامية بصفة عامة .

فلا زالت تنتشر في الهند عبادة البقر ، والتبرك بروثها وبولها ، وتركها تعتدي على المحلات والمأكولات في شوارع الهند العامة واعتبار هذا الاعتداء بركة وفأل خير .

ولا زال حرق الميت بخشب مقدس قائما .

ولا زالت عبادة الرجال للعضو التناسلي للمرأة قائما ، والعكس موجود كذلك .

* * *

وما هو عبادة في الشرق الآسيوي — هو « سلوك شخصي » أو فلسفة حياتية وجودية في الغرب الأوربي . . . ولا فرق ، فالنتيجة واحدة .

ولا يستطيع إنسان أن يحصر صور الفوضى العقدية والأخلاقية التي تحتاج الحياة الأوربية التي أصبحت أبعد ما تكون عن « التدين » عقيدة وسلوكا ، بحيث أصبح تأثير الدين شبه معدوم .

ويصور الأوربي المهتدي إلى الإسلام « محمد أسد » هذه الحقيقة — فيقول : « إن الرجل العادي في أوربا ، ديمقراطياً كان

أو فاشياً ، رأسمالياً أو اشتراكياً ، عاملاً باليد أو رجلاً فكرياً — إنما يعرف ديناً واحداً ، وهو عبادة الرقي المادي ، والاعتقاد بأنه لا غاية في الحياة غير أن يجعلها الإنسان أسهل وبالتعبير الدراج « حرة مطلقة » من قيود الطبيعة ، أما كنائس هذا الدين فهي المصانع الضخمة ، ودور السينما والمختبرات الكيماوية ودور الرقص ومراكز توليد الكهرباء ، وأما كهنتها فهم رؤساء الصيارف والمهندسون والممثلات وكواكب السينما وأقطاب التجارة والصناعة والطيارون والمبرزون الذين يضربون رقما قياسياً ، ونتيجة هذه النهامة للقوة ، والشره للذة — ظهور طوائف متنافسة مدججة بالسلاح ، والاستعدادات الحربية ، مستعدة لإبادة بعضها بعضاً إذا تصادمت أهواؤها ومصالحها ، أما في جانب الحضارة فنتيجتها ظهور طراز للإنسان يعتقد الفضيلة في الفائدة العملية ، والمثل الكامل عنده والفارق بين الخير والشر هو النجاح المادي لا غير [1] » .

ويؤكد هذا المعنى أيضا المصلح العربي « عبد الرحمن الكواكبي » ، حين يصف الأوربي ، فيقول : « الأوربي مادي الحياة ، قوي النفس ، شديد المعاملة ، حريص على الاستئثار ، حريص على الانتقام ، كأنه لم يبق عنده شيء من المبادىء العالمية والعواطف الشريفة التي نقلتها له مسيحية الشرق . . . فالجرماني — مثلا — جاف يرى أن العضو الضعيف من

(١) الإسلام على مفترق الطرق ص ٤٠ .

البشر يستحق الموت (وهي فلسفة نيتشة) ويرى كل الفضيلة في القوة ، وكل القوة في المال . واللاتيني مطبوع على الطيش والعجب يرى العقل في الانطلاق ، والحياة في خلع الحياء ، والشرف في الزينة واللباس ، والعزّ في التغلب على الناس [1] »

* * *

إن هذه الوثنيات التي تبدأ من عبادة الكواكب أو النار أو الشجر أو البقر ، وتنتهي بعبادة الأعضاء التناسلية والمادة واللذة والأشخاص ، وغيرها من صور الوثنية التي لا تعد ولا تحصى . . .

إن هذه الوثنيات كلها تحديات يواجهها الإنسان المسلم في العصر الحديث ، وهي تحديات لا تمكنه من أن يصوغ حياته ويبني ثقافته وفق عقيدته وشريعته وأخلاقه ، بل إنها لتحاول — بشتى الأساليب العصرية — أن تباعد بينه وبين دينه ، عقيدة وفكرا . وإنها لجاهدة في أن تصل بالإنسان المسلم إلى نقطة الذوبان في محيطها الجارف ، والانصهار في بوتقتها الخانقة المدمرة .

وعلى الإنسان **المسلم أن يختار طريقه الوحيد . . . طريق دينه وثقافته** الإسلامية ، بكل شمولها وانسجامها مع الفطرة

(١) طبائع الاستبداد (نقلا عن ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٢٠٤) .

وتحقيقها لإنسانية الإنسان وللصلة بخالق الكون ومدبره حتى لا يقع ضحية الطرق الضالة المنحرفة المهلكة ! !

« كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله [1] » .

« هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون [2] »

---

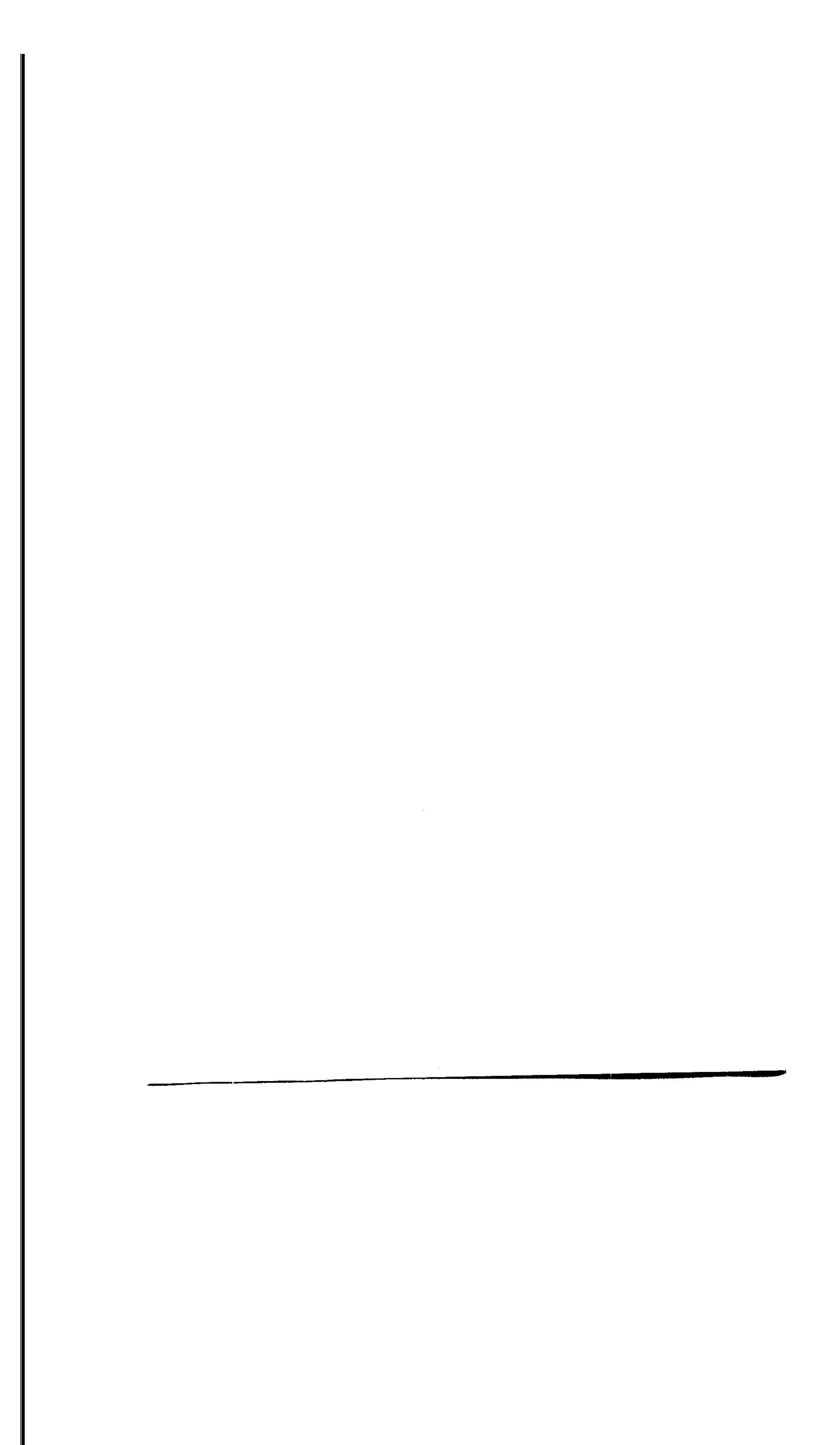
(١) آل عمران ١١٠ .

(٢) الصف ٩ .

الفصل الرابع

الإسلام والروابط بين الناس

- الروابط بين الناس في مفهوم الإسلام
- من الروابط المنحرفة :
  * العنصرية
  * القومية
  * المادية
- الإسلام هو الرابطة الوحيدة الكريمة



الروابط بين الناس في مفهوم الإسلام

إذا كان الناس في الإسلام من أصل واحد : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى » ، فلا معنى – بالتالي – لكي يتناطح الناس تناطحاً جنسياً أو عنصرياً أو قومياً . فيذهب كل منهم إلى أنه ينتمي لأرومة أفضل من أرومة الآخرين ؛ لأن ذلك لا يتناسق مع (وحدة الأصل) التي هي حقيقة من حقائق الوجود الإنساني .

إن التفاضل في الإسلام يقوم على التقوى وحدها « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وعلى مقياسها وحده يصنف الناس ويقسمون ، فمنهم تقي ومنهم فاجر ، أو بتعبير آخر فمنهم « حزب الله ومنهم حزب الشيطان ». . . وكل الروابط أو أساسيات التفاضل الأخرى روابط زائلة مصطنعة لا تقوم على جذور عقلية وقلبية راسخة ثابتة . ومع هذه الحقيقة البديهية ، فقد سارت البشرية في طرق منحرفة ، ابتعدت بها عن منهج الله واصطنعت لنفسها روابط زائفة . . أضلت مسيرتها ، وكبدتها ألوانا شتى من الحروب والمنازعات .

الإسلام . . . رابطة عقيدة ونظام :

يؤكد التاريخ أن كل تجمع يقوم على أساس غير أساس العقيدة هو تجمع فاشل مصيره التناحر والسقوط ، فلا مستقبل للبشرية بغير أخوة روحية يمنحها الدين [1] .

فالحضارة الأوربية يجمعها رباط « المادية » في الشرق والغرب ، ولا مكان للقيم العقدية والأخلاقية في هذه الحضارة.. ومع هذا الرباط المادي — بل بسبب هذا الرباط المادي — قامت بين أبناء هذه الحضارة أكبر الحروب في التاريخ ، وما الحربان العالميتان اللتان كادت أوربا تدمر فيهما نفسها عنا ببعيدتين .

والقومية فكرة أوربية الأصل راجت أول ما راجت في ألمانيا ، وبسبب من رباط القومية الموهوم قامت حروب ومنازعات لم تكسب منها البشرية إلا الدمار .

وفي أمريكا وروديسيا وغيرهما لا زالت العنصرية تعمل عملها في إفساد المجتمعات دون أن تصل إلى الإخاء الروحي ، أو التناصر العاطفي الحقيقي .

إن هذه الروابط التي سنعرض لها في شيء من التفصيل فيما بعد كروابط منحرفه — ليست جديدة على مسرح التاريخ ،

---

(١) أنظر : أبو الحسن الندوي : «الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية» : ١٥٣ .

بل هي ظواهر قديمة برزت في كل مراحل الانحطاط . وعندما جاء الإسلام وجدها قوية وفتية ، فالتفاضل الطبقي ، وحمية الجاهلية ، وتقديس بعض الناس والأسلوب النفعي ، وصراع الأجناس . . . هذه كلها كانت موجودة قبل ظهور الإسلام سواء في حضارتي الفرس والروم أو في داخل الجزيرة العربية . فكان من أهم أعمال الإسلام الجليلة القضاء على هذه الدعاوي الجاهلية ، والنظر إليها على أنها فتن يجب التخلص منها ووأدها.

وبدلا من هذه الدعاوي أو الروابط الجاهلية شرع الإسلام الإخاء بين المسلمين جميعا عربا وعجما ، أغنياء وفقراء « إنما المؤمنون إخوة » وأقام بناء دولته الأولى في المدينة على أساس من هذا الإخاء .

إنه إخاء عقيدة واحدة تعيش في العقول والقلوب .

وهو إخاء منهج واحد أو « نظام واحد » يلتزمه المسلمون جميعا في حياتهم الواقعية : ولا فاصل في التصور الإسلامي ، والمنهج الإسلامي ، بين ما يعيش في العقول والقلوب ، وما يتحرك في واقع الحياة . . . إنهما وجها عملة واحدة .

* * *

ولقد كان لإخاء العقيدة جانبه الاجتماعي الذي سنتناوله في حديثنا عن مقومات المجتمع الإسلامي . . لكن بقي أن أخوة العقيدة لها جانبها العام الذي يحدد علاقة الإنسان بالمجتمع الإنساني كله ، وبالمجتمع الإسلامي بصفة خاصة .

فالمسلم – أينما وجد – هو أخ للمسلم لايخذ له، ولا يسلمه ولايتقاعس عن نصرته ... المسلم في السعودية أو في مصر أو في اليمن أو في الفلبين، أو في انجلترا ، أو أمريكا أو في أندونيسيا .. أو في الهند وباكستان .. أو في روسيا والمجر ويوغوسلافيا ... المسلم في أى مكان هو أخ للمسلم أخوّة عقيدة ، وفكر ومصير ، وهدف واحد . هو أخوه في العقل والقلب ، فهم على قلب رجل واحد ، لهم عدو واحد يقاومونه هو عدو الإسلام مهما تباينت أشكاله ، وتعددت ألقابه .. ولهم هدف واحد يسعون إليه هو إعلاء راية الإسلام . وهم جنسية واحدة مهما اختلفت أوطانهم . إنها ليست جنسية الدم واللحم .. بل جنسية العقيدة ، والقلب ، والمصير ، إنها جنسية الإسلام أوثق عروة ، وأقوى رابطة .

عندما انتهت معركة بدر بنصر الله للمسلمين كان من بين المشركين الأسرى « أبو عزيز ابن عمير « أخو » « مصعب بن عمير » . ومرّ به « مصعب » ، وأحد الأنصار يضع القيود في يده فقال مصعب للأنصاري : شدّ يديك به (أي أحكم قيده) فقال «أبو عزيز » لأخيه « مصعب » : « أهذه وصاتك بأخيك »؟ فقال « مصعب » : « إن الأنصاريّ هو أخي دونك » .

إنها أخوة العقيدة كما وعاها مصعب رضي الله عنه ، وكما وعاها المسلمون جميعا . وليست أخوة قومية أو عنصرية أو مادية وقتية نفعية .

إنها أخوة تتجلى في سلوك المسلم كله . . في تحية الاسلام . . وفي الصلاة والزكاة والصيام . . وفي الدعاء الجماعي [١] باسم المسلمين جميعا « إياك نعبد وإياك نستعين ، اهدنا الصراط المستقيم » « ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا » [٢] ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به ، واعف عنا ، واغفر لنا وارحمنا ، أنت مولانا ، فانصرنا على القوم الكافرين » [٣]

إنه نداء الأخوة الاسلامية الواحد . . نداء الرابطة العقلية القلبية التي لا ينفصم عراها ، ولا تقوم مقامها رابطة أخرى .

* * *

---

(١) مذكرة الثقافة الاسلامية للعام الهجري ١٣٩٣ للأستاذ عبد الكريم الخطيب ٥٤ – (كلية الشريعة بالرياض) – .
(٢) الحشر ١٠ .
(٣) البقرة ٢٨٦ .

من الروابط المنحرفة :

١ – العنصرية

تلبس الدعوة العنصرية أردية مختلفة ، لكن محتواها وأهدافها لا يتغيران .

والنتيجة التي أثبتها تطور التاريخ أن هذه الدعوة العنصرية جرثومة خبيثة تهدم ولا تبني ، وتفرق ولا تجمع .

وقد نكب المسلمون كثيرا على يد هذه العنصرية ، بل إن المؤرخين يجمعون على أنها كانت من أكبر عوامل هزيمة المسلمين في الأندلس بعد ثمانية قرون ، فالصراع بين القيسية واليمنية ، ثم بين العرب والبربر ، ثم بين ملوك الطوائف .. هذه الصور المتتابعة من الصراع العنصري هي التي بددت قوى المسلمين في الأندلس ، ومكنت منهم عدوهم الذي استطاع في عهد الملك « فرديناند » والملكة « إيزابيلا » أن ينسى العنصريات ويتحد ضد المسلمين المشتتين ، البعيدين عن روح الإسلام في القوة ، والوحدة والأخوة العامة .

وفي العصر الحديث ظهرت العنصرية في شكل جديد ، ابتدعه الاستعمار الصليبي والصهيوني فقد عمد في وجه الوحدة

الاسلامية التي نادى بها السلطان العثماني « عبد الحميد » — رحمه الله — إلى ابتداع أشكال عنصرية ، وأخرى قومية يقتل بها دعوة السلطان المظلوم . فروج لما يسمى بضرورة العودة إلى الأصول العرقية التاريخية التي سبقت الإسلام . . . أي إلى الفرعونية في مصر ، والبربرية في المغرب العربي ، والآشورية والكلدانية في سوريا والعراق ، بل إنه نادى « بتقسيم العروبة » إلى عروبة إفريقية وأخرى آسيوية .

وقد روّج أيضا لمشروعات ظاهرها الوحدة ، وجوهرها التفكك من مثل القومية السورية والهلال الخصيب ، والمغرب الكبير ، كما نادى بتعميق الوطنية المحددة الإقليمية . . . فمصر للمصريين ، وسوريا للسوريين ولبنان للفينيقيين ، وهلم جرا .

* * *

إن ترويج هذه الروابط المزيفة يهدف — كما نرى — إلى هدم الرابطة الوحيدة الحقيقية ، وتبديد طاقة المسلمين والعرب بعيدا عن رابطة الاسلام الكفيلة بايجاد وحدة في الفكر والمشاعر والسلوك .

لقد بلغت النزعة العنصرية مبلغها الرهيب في عقول الأوربيين ، فذهبوا إلى النظر إلى أنفسهم «كجنس أبيض» متفوق ، وزعموا أن غيرهم من الأجناس لا يمكن أن يصل إلى مستواهم . وقال أحد كتابهم « إن الأفريقي والآسيوي مهما

تعلم – حتى ولو أصبح محاميا كبيرا ، سيظل الفرق بينه وبين الأوربي ، كالفرق بين القرد والإنسان » وذهب مستشرق معروف « جب » إلى أن العقلية العربية والإسلامية عقلية «ذرية» أى عقلية مفككة تافهة لا تستطيع استيعاب العمليات والمبادىء المعقدة الكلية . وهكذا بلغ السخف بعقول القوم ناسين طبيعة دورات التاريخ ، ومتجاهلين أن أوربا التي يتباهون بها اليوم كانت مجموعة شعوب متوحشة همجية إلى القرن الخامس عشر الميلادي ، وتاريخها الهمجي في الحروب الصليبية أنصع دليل على ذلك .

ولا زال الأوربي والأمريكي لا يستطيع أن يستسيغ أن الهندي الأحمر ، والزنجي الإفريقي يتساويان معه عقلا ، وإنسانيا ، وأنهما قادران لو أتيحت لهما ظروف الرقي أن يصبحا مثله تماما في عالم الاختراعات ، وأن يتفوقا عليه في دنيا الأخلاق والإنسانيات .

أما الإسلام . . . فمنذ البداية : «سلمان منا أهل البيت» و « بلال سيدنا » . . . وفوق كل ذلك : « ليس لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ، ولا لأحمر على أسود ، ولا لأسود على أحمر فضل إلا بالتقوى » .

إنها شريعة محكمة لا أهواء متحكمة .

٢ ـ القومية

من بين المزاعم الكبيرة التي ينكرها أصول البحث العلمي والتاريخي « الأنثروبولجي » فكرة القومية العنصرية .

فامتزاج الشعوب حقيقة يقرها التاريخ ، وليس هناك شعب يمكن أن يقال إنه سلالة خالصة غير مختلفة .

ووجود خصائص مميزة لكل شعب في جوانب مختلفة تلتقي وتختلف مع الشعوب الأخرى سلباً وإيجابا ـ حقيقة ـ يقررها التاريخ أيضا .

وتوافر الأذكياء والأغبياء والعباقرة والمخمورين ظاهرة موجودة في كل شعب أيضا .

والفروق بين الشعوب في مستوى التطور هي فروق في الظروف الحضارية لكل منهما ، وليست فروقا في الطبيعة العرقية لكل منهما ، بدليل تقلب الشعوب في دورات التاريخ ، من رقي إلى تخلف حسب ظروف محددة : « « وتلك الأيام نداولها بين الناس » [1] . ـ ولا معنى ـ في ظل هذا ـ لدعوى بعض الشعوب تفوقها الجنسي على شعوب أخرى ، وزعمها بأنها « شعب الله المختار » أو بأنها « جنس فوق الجميع » كما زعمت ألمانيا الهتلرية .

(١) آل عمران : ١٤٠ .

تقوم القومية على أسس أو روابط « اللغة » — أولا — والتاريخ ، والأرض ، والهدف المشترك ، والثقافة المشتركة . وكثيرا ما تتجاهل القوميات « الدين » كمقوم أو رابطة من الروابط .

ومع ذلك فبالنسبة لنا نحن العرب نجد أن تطبيق هذه الأسس علينا لن ينتج لنا حصيلة أسمها القومية العربية «اللادينية» بل سينتج حصيلة وحيدة طبيعية أسمها الرابطة الإسلامية ، أو بتعبير آخر « الجنسية أو القومية الإسلامية » .

فبالنسبة لنا نحن المسلمين تعتبر اللغة مكملا للوعي بالدين وأداء شعائره ، ونبينا — عليه السلام — عربي — ومن نواحي إعجاز قرآننا « الفصاحة العربية » .

وبالنسبة لنا أيضا يعتبر التاريخ العربي هو لباب التاريخ الإسلامي ، وما كان لنا تاريخ يذكر أو يشرف بدون الإسلام ، وجذورنا في مصر والعراق وسوريا ، ولبنان وغيرها ليست العروبة الخالصة بقدر ما هي الإسلام الخالص .

وأرضنا دخلت باسم الإسلام في حوزة « ديار الإسلام » وليس في حوزة العروبة .

وهدفنا المشترك هو إقامة حضارة تناوىء حضارة الأوربين المادية ، وتردها إلى قوانين الفطرة . ونحن لا نقيم حضارة بالقومية أو العروبة وإنما « بالإسلام » .

وثقافتنا المشتركة ليست الا تراث الإسلام والفكر الإسلامي والدين الإسلامي .

فالمفهوم القومي الذي ينفصل عن الدين لا يصلح لنا ، ولا تربطنا به رابطة ، وليس إلا تقليداً لنظريات صنعها تراثٌ وواقع لا علاقة لنا بهما .

لجوء إلى التاريخ :

يعلمنا التاريخ أن رابطة العقيدة الإسلامية هي التي حمت الأرض الإسلامية والمسلمين ، وكونت حضارة راقية سباقة . وهي وحدها — وليس غيرها — القادرة على هذا العطاء في الحاضر والمستقبل .

فعندما هزم العرب أمام المغول البدائيين ، وقضي على الخلافة العباسية عام ٦٥٦ هـ ، وصارت بغداد ميدانا للدمار والخراب — لم ينقذ الحضارة والعرب إلا هذه العقيدة الإسلامية عندما انتصرت على المغول وحولتهم إلى حماة جدد للاسلام .

وفي موقعة عين جالوت — احدى المعارك الفاصلة في التاريخ — لم تكن إلا رابطة « واإسلاماه » هي التي أنقذت العرب والحضارة الإسلامية من غزو هؤلاء الهمجين .

وفي الحروب الصليبية التي كادت تلتهم الأمة العربية ، ونجحت في تكوين أربع إمارات صليبية : « الرها ، وأنطاكية ، وبيت المقدس ، وطرابلس » لم ينقذ العرب والحضارة الإسلامية

إلا الإسلام بقيادة المخلصين له من أمثال « عماد الدين زنكي » و « نور الدين محمود » و « صلاح الدين الأيوبي » .

وحركات التحرر من الاستعمار لم تنجح إلا لأنها ارتكزت على الاسلام كعقيدة وآصرة ، ولم ترفع راية غير رايته ، أو تتمسك بوشائج غير وشيجته . . .

وحرب التحرير الجزائرية ومعركة العاشر من رمضان من الأمثلة الحية المعاصرة الدالة على ذلك [1] بل إن قادة البعث والنهضة كانوا جميعا إسلاميين (وغير الإسلاميين منهم مشبوهون دائما) — ففي الجزيرة العربية كان الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب — رحمه الله رحمة واسعة — وفي ليبيا كانت أربطة السنوسية ، وفي مصر كان الأزهر الشريف ورجاله ، وفي المغرب كان حزب الاستقلال الإسلامي ، وفي الجزائر كانت جمعية العلماء وشيخاها الكبيران (عبد الحميد بن باديس والبشير الإبراهيمي) . . . وهكذا كان الأمر نفسه في بقية البلاد الإسلامية . . .

لقد كانت الرابطة الإسلامية هي النور الذي أضاء طريق الحياة والحضارة والنصر ، ولقد كانت « الروابط المنحرفة » هي السراب الكاذب الذي لم يحقق إلا التفرق والتخلف والهزيمة.

---

(١) أنظر كتاب طريقنا إلى القدس رؤية إسلامية لعبد الحليم عويس فصل «وا إسلاماه» ففيه بيان ذلك .

٣ ـ الفكر المادي

تقوم بين مجموعة من الناس روابط مادية نفعية « برجماتية » تزول بمجرد إنتهاء المنفعة المتبادلة . فجماعة الشيوعيين تنتظمهم رابطة مادية هي الحصول على أموال « الإقطاعيين » وبمجرد تحقيق هذه الغاية يأكلون بعضهم .

وجماعة الوجوديين قد تربطهم مصلحة غرائزية ، حين يجتمعون بالانطلاق البهيمي في مدن نابية أو عارية ، أو في أندية رخيصة تمتهن فيها كرامة الإنسانية . وجماعة « الهيبز » يكونون علاقة مادية تقوم على الإحساس بالضياع ، والسباحة بالتالي في مقولات بوهيمية تفلسف بها هبوطها وضياعها الفكري والخلقي والنفسي .

فهل تصلح مثل هذه الأشكال التجمعية ــ وغيرها ــ كروابط بين الناس ؟

وبتعبير آخر : هل يصلح أي فكر تفرزه المصلحة المادية ليكون رابطة بين الناس ، أم أن العقيدة الروحية هي الوشيجة الوحيدة الصحيحة ؟

إن الإجابة على ذلك بكلمة واحدة مستقاة من قوانين

الفطرة وتجربة التاريخ هي « النفي » والنفي المطلق . ونزيد الأمر بيانا ووضوحا فنقول :

حقيقة إن فطرة الإنسان تميز بين الخير والشروالصالح والطالح والظلم والعدل : وهذه الفطرة هي التي تميز الإنسان عما سواه . . . ولكن — مع ذلك — ها هو الإنسان الذي كرمه ربه — في ظل روابطه المادية — يهدر فطرة الله ، ويظلم بني جنسه ، ويقتلهم ويشردهم ويوجه إليهم كل شر مستطاع .

إن الحيوانات لا تظلم فصائلها ، فالأسد لا يظلم الأسود ، والنمر ليس نمرا في عرينه ، ولكن الإنسان وحده — في ظل روابطه المادية — هو الذي يفترس إخوانه ، حتى الأقربين منهم . . . فهل يصلح هذا الإنسان بمجرد روابطه المادية ؟ هل يصلح من غير دين ؟ .

إن الجزء الأكبر من التاريخ الإنساني — هو الجزء الذي تحرك بعيداً عن هداية دين الله — يفيض ظلما وفساداً وعدوانا . والمؤرخ يصاب بأسى بالغ عندما يرى أن أحداث التاريخ تتعارض تماما مع الضمير الإنساني . ولنقتبس بعض الأقوال التي تصور هذا الحال بوضوح :

يقول « فولتير » : إن التاريخ الإنساني ليس إلا صورة للجرائم والمصائب ويقول « هربرت سبنسر » : إن التاريخ

تهريج وكلام فارغ لا جدوى منه . ويقول : « نابليون بونابرت » : إن التاريخ بأكمله عنوان لقصة لا تعني شيئاً !

ويقول : « إدوارد جين » : إن تاريخ الإنسان لا يعدو أن يكون سجلا للجرائم والحماقة وخيبة الأمل .[1]

الطريق الوحيد :

و لعل في كلام هؤلاء قدرا كبيرا من الحقيقة ، لكن كلامهم ينقصه قيد واحد كان من الواجب الحرص على ذكره . . . لقد كان عليهم أن يبينوا أن التاريخ الذي يتحدثون عنه هو تاريخ الإنسان بعيدا عن منهج الله ، وعن الروابط التي شرعها الله .

لقد قدم الإسلام للإنسان — عن طريق رابطة الأخوة والعقيدة — الحماية الحقيقية لنسيج حياته من التفكك ، لكن أكثر الناس أبوا هذه الحماية ، فتفكك نسيج حياتهم على النحو الذي تعكسه أمراض العصر النفسية الخانقة المدمرة القاتلة . ويقول علماء النفس الحديث : « إن من أهم جذور الأمراض النفسية : الكراهية والحقد والجريمة والخوف والإرهاق واليأس والترقب والشك والأثرة والإنزعاج من البيئة [2] » .

إن نسيج هذه المجتمعات — كما توضحه هذه الأمراض —

---

(١) أنظر وحيد الدين خان : الإسلام يتحدى ٩٦ .

(٢) المرجع السابق ١٨٦ .

قد تفكك ، وليس لتفككه من سبب إلا لأنها مجتمعات حرمت نفسها من رابطة الإيمان ، واستحدثت روابط مزيفة تنقطع لأتفه الأسباب ، وتخلف وراءها هذه القائمة الطويلة من الأمراض المدمرة .

ومن هنا كان حرص الإسلام على شجب كل الروابط والحرص على رابطة العقيدة وحدها . فبدون هذه العقيدة :

« سوف يتحول النظام إلى فوضى » ! !

« وسوف ينعدم التوازن وضبط النفس والتماسك ! ! »

« وسوف يتفشى الشر في كل مكان ! ! »

« إنها لحاجة ملحة أن تقوى صلتنا وعلاقتنا بالله [1] »

« وما أروع القرآن في بيانه الإلهي الكريم » :

« قل إن كان أباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها ، أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله ، فتربصوا حتى يأتي الله بأمره ، والله لا يهدي القوم الفاسقين [2] »

---

(١) المرجع السابق ١٨٨ .

(٢) براءة ٢٤ .

الفصل الخامس

الإسلام والتيارات الاجتماعية الحديثة

أ – مصطلح المسألة الإجتماعية
ب – مفهومها ونشأتها
ج – طبيعة المنهج الألهي في علاجها
د – خصائص المنهج الإلهي في علاجها
هـ – المناهج البشرية
و – مقومات المجتمع الإسلامي
ز – الطبقات في المجتمع الإسلامي

١ ـ مصطلح المسألة الاجتماعية

ليس من السهل الزعم بأن هناك تحديدا ثابتا لمصطلح إنساني كمصطلح المسألة الاجتماعية ، كما أنه ليس من السهل تحديد معلم زمني موثوق به لنشأة مصطلح من هذا النوع ، حتى وان كان هذا المصطلح قد تطور ، وأصبح يرمز إلى قضية كبرى من قضايا الإنسان في العصر الحديث .

ومع أننا سنحاول الوصول إلى تحديد نسبي لهذا المصطلح ، وإلى الوقوف عند معلم زمني تقريبي لنشأته كتعبير عن قضية إنسانية إلا أننا نجد من الضروري التنبيه في بداية حديثنا ـ إلى أن هذه القضية ـ بمفهومها الإصطلاحي الحديث ـ لم تكن وليدة البيئة الإسلامية أو المناخ الذي سيطرت عليه روح الإسلام . وانما كانت « مرضا » تطور إلى « ازمة حضارية » أصابت جسم الحضارة الأوربية الذي نشأ ونما وترعرع بعيداً عن قوانين الله وأوامره ، بل بعيداً عن نسمات الروح والأواصر الانسانية بوجه عام .

ونضيف إلى ذلك أن طبيعة الإسلام كدين لا يفصل بين آثار العقيدة والشريعة . ولا بين خير الفرد وخير المجتمع ،

ولا بين القانون وروح القانون . . . هذه الطبيعة الشاملة في هذا الدين تجعل من الصعب – في ظل تطبيق تعاليمه – نشوء ظواهر ، كظواهر الصراع بين الفرد والمجتمع أو الصراع بين الطبقات أو غير ذلك من الظواهر التي أبرزت ما يعرف باسم (المسألة الاجتماعية) والتي جعلت هذه القضية تأخذ من جهود الإنسان الحديث القسط الكبير .

إن الإسلام في حقيقته – « بناء تام الصنعة ، وكل أجزائه – من عقائد وعبادات ومعاملات اجتماعية واقتصادية قد صيغت ليتمم بعضها بعضا ، فليس هناك شيء لا حاجة إليه ، وليس هنالك نقص في شيء ، فتنتج عن ذلك – أي عن هذه الطبيعة في الإسلام – ائتلاف متزن مرصوص »[1] لا يجوز تقطيعه .

ونحن عندما نضطر لعلاج قضية كالمسألة الاجتماعية لايجوز لنا اغفال هذه الطبيعة في الإسلام ، فلا نبتعد بالمشكلة عن جذورها ولا نفصلها عن الجسم الإسلامي المتزن المتكامل .

وفي إطار هذا التصور ، وانطلاقا منه نبدأ في دراسة المسألة الاجتماعية .

---

(١) محمد أسد – الإسلام على مفترق الطرق ص ١٥ .

٢ ـ المسالة الاجتماعية
مفهومها .. نشأتها .. تطورها

لا توجد في التصور الإسلامي حواجز حقيقية بين الفرد والمجتمع ، فان الفرد يحس بأنه مسئول مسئولية مباشرة عن المجتمع ، والمجتمع ايضا يحس بأن عمده الأساسية وأركانه الطبيعية هم هؤلاء الأفراد المسلمون .

لقد انتمى الفرد المسلم إلى هذا المجتمع بارادته ، ولقد انتسب إليه روحاً وفكرا ومشاعر قبل أن ينتمي إليه جسداً .. أو عضواً عاملاً . والرابطة الأولى بالتالي في المجتمع الإسلامي هي العقيدة المشتركة .. وما ينبثق عن هذه العقيدة من تصورات ونظم وقوانين اجتماعية واقتصادية وسياسية .

وهذه الرابطة الأولى — التي ارتضاها المسلم طواعية — تذيب الفواصل بينه وبين المجتمع وتشعره بولاء ومسئولية حقيقية تجاهه ، وتجاه ما يتعرض له المجتمع الإسلامي كله من مشكلات وتحديات .

والسبب الأكبر الذي نكب المجتمعات البشرية ، وكثف

مشكلاتها في الجوانب المختلفة هو أنها نشأت كمجتمعات « اصطناعية » أو تلقائية وليست مجتمعات طبيعية قائمة على الاختيار الفردي والتوافق الفكري والعقدي .

ومن هنا تظهر في أحشائها بين الحين والحين أمراض متنوعة ، مرة اجتماعية ، ومرة اقتصادية ، ومرة سياسية ، ومرة حضارية شاملة تهدد بناءها كله ، وتعرضها للتحلل والضياع .

* * *

والمسألة الاجتماعية ، لم يقصد بها — حين ظهرت حديثا[1] — مجرد تقعيد نظري هادىء للأسس الصالحة لقيام المجتمعات البشرية وتماسكها — في ظل تصور إنساني عام — وإنما قصد بها ، نتيجة لكونها محاولة للبحث عن علاج لأزمة حضارية كما قلنا :

« تنظيم العلاقة التي تربط الفرد بالمجتمع ، وتمنع طغيان أحدهما على الآخر ، وتضع الأسس التي تضمن انسجام المجتمع أفرادا وطبقات ، وتتيح للجميع قدراً متكافئاً من الفرص

---

(١) نحن نتناول المسألة الاجتماعية في مرحلتها التي ظهرت فيها كثورة على الكنيسة والإقطاع بقيادة المفكرين الإجتماعيين والفلاسفة الخياليين والطبيعيين — أما الفكر الاجتماعي كفكر إنساني فهو قديم يرجع إلى شعور الانسان بأنه مدني بالطبع وبأنه كائن اجتماعي . وليس تتبع هذا الفكر من موضوع بحثنا .

والحقوق ، وتلزم الجميع أيضا بقدر ملائم عادل من الواجبات ».

ولقد تطورت المسألة الاجتماعية — في ظل غلبة النزعة المادية وموت الروح الانسانية ، وذبول القيم الدينية في أوربا ، واستعباد الآلة الصماء للإنسان ، وافتتان الإنسان بها — تطورت هذه المسألة فلم تعد مجرد قضية انسانية جزئية ، بل أصبحت مذهبا مستقلا يرفعه أصحابه إلى مستوى ما يعرف « بالأيديلوجية »[1] تلك التي تشكل — في نظر أصحابها — نظرة كونية عامة ، وتفسر جميع الظواهر تفسيراً ماديا قاصراً[2] . . . دون أن تلتفت إلى الجوانب الكثيرة الأخرى الروحية والشعورية والأخلاقية التي تتشكل منها الحياة ، والتي لا يسمى الإنسان إنسانا ، ولا تسمى الحياة إنسانية — إلا بها .

* * *

ومنذ وجد الإنسان على الأرض والتفكير الاجتماعي يحتل جانبا كبيراً من اهتمامه وبالتأكيد فان هناك صلات وثيقة بين الجانب الاجتماعي والجوانب الإنسانية الأخرى وعلى رأسها العقيدة الدينية .

ومعلوم أن النظم والعقائد التي سيطرت على بعض الحضارات

---

(١) الأيدلوجية : تستعمل بمعنى العقيدة والفكرة ، والعالم المأمول ، أو التنظيم المعين للحياة . ومن الخطأ استعمالها بديلا عن الاسلام ، كما يفعل بعض المثقفين !! .

(٢) ومن النظريات الاجتماعية والاقتصادية التي جعلت من نفسها عقيدة المذاهب الاشتركية والشيوعية .

كالفراعنة والأغريق (اليونان) والرومان، قد اتجهت إلى تقديس الملوك ، والخضوع لاستبدادهم ، والإيمان بالأساس الطبقي لتكوين المجتمع [1] وبالتالي ضاعت في هذه العقائد والنظم حقوق الأفراد والمجتمعات ، ووقفت في القمة طبقات الحكام والأشراف ورجال الكهانه، بينما ضاعت في السفح — بلا حقوق — الطبقات الأخرى التي تمثل جماهير الشعب .

فلما ظهرت النصرانية ، لم تلبث بعد فترة قصيرة من ظهورها أن انحرفت بقيادة رجال الكنيسة ، فحرفت ما جاء به المسيح عليه السلام وأصبحت وسيلة من وسائل كبت الإنسان ، وإذلاله وحرمانه وفرض الفقر والعبودية والجهل عليه . . . ولم تعد أكثر من أداة هزيلة في يد الإقطاع ورجال الحكم ، فلا يجد الإنسان في رحابها العدل ولا المساواة ، ولا يطمع في الاستعانة بها للوصول إلى حقه في الحرية والكرامة الإنسانية .

ولقد نجح « قسطنطين » أول حاكم روماني تظاهر باعتناق المسيحية — في تحويل الميسحية إلى دين وثني مجرد من رسالته الروحية الصافية ، إذْ كان يرمي — قبل كل شيء — إلى ابتداع شعار ديني وثني تتميز به دولته الرومانية عن الأمة الفارسية التي يقف منها موقف المحارب ، ويعمل على تحريك العواطف الشعبية ضدها .

ويصف القاضي عبد الجبار الهمزاني هذا الوضع الجديد

---

(٣) أنظر — د . محمد البهى — في " طبقية المجتمع الاوربي " ص ١١

للنصرانية على يد قسطنطين فيقول : « إن الروم ما تنصرت ولا أجابت المسيح ، بل إن النصارى تروّمت ، وارتدت عن دين المسيح ، وعطلت أصوله وفروعه ، وصارت إلى دين أعدائه ، وهو ما عليه هذه الطوائف الثلاث من النصارى . . . فعلوا ذلك طلبا للرئاسة وعاجل الدنيا »[1] . . . ولقد أدى هذا التحول الفكري في المسيحية إلى تسلط رجال الكنيسة التابعين فكرياً للتقاليد الرومانية الوثنية — على البؤساء والفقراء . . . كما أدى هذا التحول — كرد فعل — إلى بروز نزعات (التغيير الاجتماعي) في مطلع النهضة الأوربية ، وهو أول بروز عملي للمسألة الاجتماعية بمعناها الحديث إلى أن تطورت كمذهب في نهاية القرن الثامن عشر مع الثورة الفرنسية .

ولقد قامت هذه النزعات على أساس إعلان الحرب على المسيحية والاعتقاد بأن الدين عموما . انطلاقا من تجربة المسيحية — يشجع على الظلم ، ويتواطأ مع الأقوياء ، ويعجز عن تقديم الحلول الكافية « للمسألة الاجتماعية » وبالتالي كان معظم فلاسفة الاجتماع الأوربيين من المنكرين للأديان ، أمثال « جان جاك روسو » و « فولتير » و « فرنسيس بيكون » و « ديكارت » و « أوجست كونت » و « سبنسر » و « دوركايم » بالإضافة إلى زعماء المذاهب الفوضوية الاشتراكية من أمثال « توماس مور » و « برودون » و « توماس كامبانلا »

(٢) نقلا عن «المسألة الاجتماعية للأستاذ عمر عودة الخطيب ص ٧٠ .

و « مورلي » وغيرهم !!

* * * *

وباضطراد التطور « التكنولوجي » والاعتماد على الآلة ، كانت المشاكل تتفاقم بين أصحاب رءوس الأموال والعمال الذين أصبحوا نتيجة تزايد الاعتماد على الآلة عرضة للبؤس والتشرد .

وظل الأمر يستفحل بين الملاك والعمال — في غيبة قانون إلهي عادل — حتى انتهى إلى « عنف دموي » بين الطبقات المختلفة ، فأخذت المسألة الاجتماعية شكلا حادا وخطيرا .

وقد استغل اليهود هذه الفرصة كعادتهم ، فركبوا الموجة المضطربة ووجهوها لمصالحهم وكرسوا جهدهم لتقنين هذا الاضطراب وإشاعته في العالم ، فاخترعوا لذلك ألواناً من المذاهب المادية . . . من شيوعية ماركسية ، إلى شيوعية لينينية ، إلى اشتراكيات متعددة ، إلى وجودية . . . وكلها مذاهب وإن اختلفت شكلا تلتقي مضموناً عند نقطة رفض النظرة الدينية العالية الشاملة ، وإقامة الحياة على أساس الإلحاد والصراع والتناقض .

* * *

٣ ـ طبيعة المنهج الالهي
في علاج المسالة الاجتماعية

عند دراستنا لطبيعة المنهج الإلهي في علاج المسألة الاجتماعية يجب أن نستحضر في أذهاننا ما ذكرناه آنفا من أن المنهج الإلهي كل لا يتجزأ ، وأن علاج أي عضو في الجسم لا يعني أن بقية الأعضاء بمنأى عن التأثُّر بقضية هذا العضو والتأثير فيها .

وفي ظل الوعي بهذه الحقيقة نستطيع أن نستنتج أن طبيعة المنهج الإلهي في علاج المسألة الاجتماعية ترتكز على الحقائق التالية :

أولا : إن الخصائص التي تتميز بها الشريعة الإسلامية ، بل التصور الإسلامي كله ، تصدق على نظرة الإسلام للمسألة الاجتماعية :

• فاذا كان الإسلام دين سهولة وتدرج ووسطية وتوازن بين أنشطة الحياة المتعددة وجوانبها ، فإن هذه السمات تتجلى أيضا في تناول الإسلام للمسألة الاجتماعية أسلوبا وغاية .

• وإذا كان الإسلام دينا ربّانيا صادرا عن قوة منزهة عن كل شرك ، وليس نظرية إنسانية جزئيــــة أو ترقيعية أو ترفيهية ، فإن هــذه الخصيصة الدينيــة ستتجلى أيضـــا في علاج الإسلام للمسألة الاجتماعية حين لا يقتصر العلاج الإسلامي على القوانين الجافة أو السلوك الظاهري ، وإنما يتعدّى ذلك إلى تحريك عواطف الرحمة والحب والأخوة الإنسانية وخشية الله ورضاه ، وصولا إلى تحقيق مجتمع العدالة الاجتماعية الواقعية ، وليست العدالة النظرية المزيفة .

• وإذا كان الإسلام يجمع بين الثبات والتطور ويرسم لكل منهما إطاره ، ويجمع بين المثالية التي ينبغي أن ترنو إليها البشرية دائما ، والواقعية التي يسير عليها الناس غالباً . ويجمع أيضا بين الدنيا ــ أي الوجود المحدود ــ والآخرة ــ أي الوجود الممتد ، ويخاطب الإنسان « بالعبادات » من داخله وينظم وجوده « بالمعاملات » من خارجه . . .

إذا كان الإسلام في أسلوبه وتشريعاته كلها يجمع هذه الخصائص التي يعجز أي مذهب بشري عن إحداث التوفيق والإنسجام والتعاون بينها ، فإن هذه الخصائص تتجلّى ــ أيضا وبالضرورة ــ في علاجه للمسألة الاجتماعية .

ثانيا : إن الإسلام لا ينظر إلى المسألة الاجتماعية كقضية ذات طابع مادي فقط فالإنسان في نظر الإسلام لا ينحصر في دائرة الوجود المادي أو الاقتصادي ــ كما يقول الماديون الجدليون ــ

وإنما هو كائن إنساني روحي ، إلى جانب ما فيه من جوانب مادية .

فالحرية الإنسانية مثلا في نظر الإسلام لا تقلّ أهمية عن الجانب الاقتصادي .

وقَتْل حرية الإنسان في مقابل توفير الخبز والملبس له انتكاسة حيوانية وردّة إنسانية ، وهبوط بالمستوى الذي وضع الله الإنسان فيه (وهو ما فعله الشيوعيون والماديون بعامة) .

وعلى أساس تحقيق الكفاية لكل جوانب الإنسان من مادية وعضوية ترتكز المبادىء الإسلامية في علاجها للمسألة الاجتماعية.

ثالثاً : والإسلام كدين إلهي لا يعترف بالنزعات العُنْصرية أو القومية أو الطبقية أو ما سوى ذلك من نزعات الصراع والتناقض، بل يقيم تشريعاته على أساس الركنين الفطريين التاليين :

أ ــ وحدة الأصل :

فالبشر جميعاً ينتسبون إلى أب واحد ، وأم واحدة وإن اختلفوا جنساً ولوناً ووطناً ، ولا ينبغي أن يكون اختلافهم هذا حائلاً دون أخذهم حقوقهم الإنسانية المشروعة [1]

(١) أنظر عمر عودة الخطيب ــ «لمحات في الثقافة الإسلامية» بتصرف . ص ٢٣٦ وانظر «العدالة الاجتماعية في الإسلام» للأستاذ قطب ص٩٨ ط ٧ .

قال تعالى « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا . . »[1] .

ب – وحدة العقيدة :

وهي التوحيد الخالص الذي جاء به النبيون جميعاً « إن الدين عند الله الإسلام »[2] . . « ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه[3] » . فهذا هو أساس العقيدة الذى لا يتبدل ، أما التشريع الذي ينظم حياة الجماعة فهو الذي يتطور في الرسالات الإلهية . . حتى إذا جاء الإسلام في صورته النهائية كان قد احتضن الفكرة الأساسية في دين الله الواحد . واستقى الصالح من المبادىء والتشريعات والنظم في الرسالات السابقة، وأكمل الناقص منها وأتمه[4] .

* * *

(١) الحجرات = ١٣ .
(٢) آل عمران ١٩ .
(٣) آل عمران ٨٥ .
(٤) عمر عودة الخطيب – لمحات في الثقافة الإسلامية ص ٢٣٨ بتصرف .

٤ ـ من خصائص المنهج الالهي في علاج المسالة الاجتماعية

تنبثق خصائص المنهج الإلهي في علاج المسألة الاجتماعية من طبيعة المنهج الإسلامي كدين رباني عام خالد .

وكما تحمل فروع الشجرة خصائصها ، كذلك يحمل أسلوب الإسلام في علاج أيه قضية من قضايا الحياة كل خصائص شجرته ذات الأصول السماوية الثابتة .

وبإيجاز ، وفي ضوء هذا التصور الموضوعي لطبيعة الإسلام ، نستطيع إبراز أهم خصائص المنهج الإلهي لعلاج المسألة الاجتماعية في النقاط التالية :

أ ـ الأساس الديني للمجتمع :

لايقيم الإسلام البناء الاجتماعي على أساس مادي أو قانوني ، وإنما يُرسي دعائم الأساس الديني للحياة الاجتماعية وغيرها ـ كأساس ثابت تنطلق منه كل جزئيات العلاقات الاجتماعية والاقتصادية .

والأساس الديني للمجتمع يستمد أصالته وروعته من عدة أمور :

أ — أنه علاج إلهي صدر عن الخالق القادر المحيط المهيمن العليم بمخلوقاته « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير »[1] .

ب — أنه ملائم لفطرة الإنسان ، فالإنسان ليس آلة صماء تتحرك بمجرد الضغط عليها بمفتاح أسمه القانون ، وإنما هو إنسان ذو إرادة حرة لا بد أن تنطلق من داخلها نواحي السلوك المختلفة .

ج — هذا بالاضافة إلى أن كل الحلول « اللادينية » المادية والقانونية التي انتهجتها البشرية قد أفلست ، وآل أمرها إلى فشل ذريع . ويؤكد هذا ذلك التصاعد المستمر في إحصاءات الانتحار والجنون وحوادث الاغتصاب والسرقة وغيرها[2] .

إن الإنسان في الإسلام خليفة الأرض . وهو مكلف بتعمير

---

(١) الملك : ١٤ .

(٢) تقول إحصائية نشرت بموسكو إن ٥٠ ٪ من الأمراض سببها نفساني ، وفي تقارير عام ١٣٩٣ هـ أن خمسة ملايين جريمة تقع في السنة الواحدة على الرغم من الرفاهة المتوفرة . وقد ارتفعت نسبة الجريمة في فرنسا ٣٢ ٪ في عام واحد (راجع تفصيل ذلك في مقال «الدين والتطور الحضاري» مجلة التضامن الإسلامي عدد ذى الحجة ١٣٩٥ هـ — لعبد الحليم عويس).

هذا الكون الذي سخره الله له ، وباسمه — سبحانه وتعالى — يجب أن يمشي الإنسان في الأرض وأن يأكل من رزق الله ! !

والإسلام وحده من بين سائر الأديان والمذاهب هو الذي يفرد الله بالعبادة حين يفرده بالحاكمية وحق وضع المنهج لحياة الناس ، ومن ثم فهو وحده الذي يطلق الناس من العبودية لغير الله . . . ولهذا فنحن ملزمون بتحقيق هذا المنهج دون سواه [1] .

وهذا المنهج الإسلامي هو الوحيد المبرأ — نتيجة الأساس الإلهي — من نتائج الهوى الإنساني والضعف الإنساني والرغبة الإنسانية في النفع الذاتي ، وفي تحقيق ذلك النفع عن طريق التشريع لشخص المشروع ، أو لأسرته ، أو لطبقته ، أو لشعبه ، أو لجنسه . . فواضع هذا المنهج هو الله رب البشر أجمعين [2]

فالأساس الديني للحياة — كما نرى — هو الضمان الوحيد لتحقيق مجتمع تتوافر فيه للإنسان الكرامة والعدالة والحرية والمساواة .

ب — الصياغة الإنسانية للمجتمع :

ومن أبرز خصائص المنهج الإلهي في علاج المسألة الاجتماعية ، أنه لا يقيم البناء الاجتماعي على أساس « الصراع » أو التناقض

(١) الأستاذ سيد قطب «هذا الدين» ص ١٨ .
(٢) المرجع السابق ص ١٦ .

أو طبقة أو أفراد لطبقات من الناس . . .

إنه قبل أن يضع القوانين ، وبعد أن يرسي أساس الربوبية — يقيم دعامات أخرى إنسانية تشيع بين الناس أواصر الرحمة ، والحب ، والتسامح ، والفضل ، والتعاون ، ومراقبة الضمير ، وخشية الله ، إلى غير ذلك من المعاني الكريمة .

والآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تؤكد هذه المعاني أكثر من أن تحصر . . وأبرز معالم الصياغة الإنسانية للمجتمع في المنهج الإلهي تتلخص في :

١ — إيمان الإسلام بنظافة الفطرة الإنسانية ، وبأنها لم تولد آثمة أو خاطئة — كما يقول النصارى — وإنما ولدت كريمة طيبة تنزع إلى المثالية . وما يلحقها من عيوب إنما هو حصاد تأثرها بأوضاع غير كريمة في المجتمع . والإسلام يعتمد في تشريعاته على هذا الرصيد الكريم للفطرة ويحاول تحريك الإنسان بالإرادة الذاتية من داخله ، قبل أن يقوده بسلاسل القانون من خارجه . . . قال تعالى : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم [1] » ، وقال : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا [2] » .

٢ — إشباع الإسلام لكل جوانب الإنسان — بالطرق الحلال —

(١) الرعد ١١ .
(٢) العنكبوت ٦٩ .

وتصعيد كل غرائزه وليس كبتها أو حرمانها بالرهبانية المبتدعة أو الزهد الكاذب . . « فالإسلام ليس عقيدة صوفية ولا هو فلسفة ، ولكنه منهج من الحياة حسب قوانين الطبيعة التي سنها الله لخلقه ، وما عمله الأسمى سوى التوفيق التام بين الوجهتين الروحية والمادية في الحياة الإنسانية [1] » .

٣ – إعطاء الإسلام كل ذي حق حقه ، في توازن ، وبلا إفراط أو تفريط . فللرجل حقه كإنسان ، وللمرأة حقها ، وللأبن حقه ، وللأب حقه ، وللضعيف حقه ، وللمريض حقه ، وللعاجز حقه ، وللفقراء والمساكين واليتامى والمعوقين وأشباههم من المعوزين حقوق . . قال تعالى : « وما أدراك ما العقبة ، فك رقبة ، أو إطعام في يوم ذي مسغبة ، يتيماً ذا مقربة ، أو مسكينا ذا متربة ، ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة »[2].

إن الفرد في المجتمع الإسلامي ، يتمتع بحقوق عامة ، انطلاقا من واقع كينونته الإنسانية ، وليست مجرد حقوق مرتبطة بظروف موقوتة ، تزول بزوالها .

جـ – الحق والعدل من الخصائص الكبرى:

لا يدعو الإسلام إلى سيطرة طبقة على طبقة ، ولا إلى « دكتاتورية » فردية أو طبقية تنشر باستبدادها الظلم في المجتمع

---

(١) محمد أسد الإسلام على مفترق الطرق ٢٢ .
(٢) البلد ١٢ – ١٧ .

وحتى المجتمع الإسلامي كله ليس مباحاً له أن يستحل ثروات شعوب أخرى أو يستبد بها . . . فالظلم ظلم ، والتسلط الظالم مرفوض في منطق العدالة الاجتماعية الإسلامية . بل إن العكس هو المفروض على الأمة الإسلامية . . . فهذه الأمة الوسط الشهيدة على الناس مكلفة بإقرار العدل والحق في الأرض كلها — وما الهدف الإسمى من الجهاد الا إقرار العدل والحق وإعلان الحرب الدائمة على الطغاة والمتألهين، الذين يستذلون الشعوب ويقيمون السدود في وجه الحق والإيمان. والقرآن يقول : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض »[1] ويقول : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيدا »[2] ويقول : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون »[3] .

والعدل في منطق الإسلام عدل مطلق[4] . . . ينساب في كل أركان المجتمع والكيان الإنساني . . في داخل النفس ، وفي الأسرة ، وبين أفراد المجتمع ، وبين الرجل والمرأة ، والأب والأبن . . . ومع الصديق والعدو . . . وبين المجتمع

---

(١) البقرة ٢٥١ .
(٢) البقرة ١٤٣ .
(٣) آل عمران ١٠٤ .
(٤) أنظر فصل العدالة من كتاب معالم الثقافة الإسلامية للدكتور عبد الكريم عثمان .

الإسلامي وغيره من المجتمعات . . . وهو عدل في الحكم ، وفي الاقتصاد ، وفي النظم الاجتماعية ، وفي الحروب ، وفي سائر العلاقات الاجتماعية وشئون الحياة .

د ـ الأصالة والشمول:

من الخصائص الأساسية في المنهج الإسلامي لعلاج المسألة الاجتماعية أنه منهج أصيل شامل . . .

فهو أصيل لأنه لم يكن مجرد علاج أورد فعل لخلل طارىء، وإنما هو توجيه شمولي لعلاج الكيان الاجتماعي كله .

وهو أصيل لأنه لم يكن مجرد ترقيع جزئي انفعالي (كالمذاهب الشيوعية والاشتراكية) أو تلفيق مذهبي مستورد (كدعاوي الجمع بين الاشتراكية والديمقراطية) ، أو نظرة مسطحة لكيان الإنسان ولحركة التاريخ البشري وقوانين مسيرته .

وهو أصيل ، لأنه يقدم حلولا مستقلة لمشكلات الإنسانية ، يستمدها من تصوره الخاص ، ومن منهجه الذاتي . ومن أسسه الأصيلة ، ومن وسائله المتميزة .

وعلينا حين نناقش هذا الدين ألا نكله إلى مذاهب ونظريات أخرى تفسره (كالاشتراكيات المختلفة) أو تضيف إليه ، فهو منهج متكامل ، ووحدة متجانسة ، وإدخال أي عنصر غريب فيه كفيل بأن يفسده ، كالجهاز الدقيق الكامل ، أية

قطعة غريبة عنه تعطل الجهاز كله ، وتظهر كأنها رقعة فيه [1] .

وهو أصيل ، لأنه يرتكز على دعائم أصيلة في أعماق الإنسان ، ويهدف إلى غايات إنسانية نبيلة ، لا تخدم مصلحة طبقة أو فرد ، إنما تخدم المجتمع كله . . والإنسانية كلها .

ومن أكبر دلائل أصالة المنهج الإسلامي في علاج المسألة الاجتماعية أنه منهج « شامل » . . . لأن كل جزئياته تنطلق من منبع واحد ، وهو الوحي الكريم ، وتتجه كلها إلى غاية واحدة هي العبادة . . أي رضا الله ، « فليس في التصور الإسلامي نشاط إنساني لا ينطبق عليه معنى العبادة ، أو لا يطلب فيه تحقيق هذا الوصف [2] .

ولأنه منهج مستوف لكل نواحي العلاج ، ولأن وسائله كذلك فطرية ، فهو لا يهدم الفطرة أو يصطدم بها ، ولا يلجأ للوسيلة السيئة ، من أجل غاية يزعم أنها شريفة . . . ولا يضحي بملايين الناس ، زاعما أنه يريد إقرار العدالة الاجتماعية على أشلائهم . . . ولا يهدر حقوق الآدميين تحت شعار كاذب يرفعه . . .

كلا . . . فالعدالة شاملة . . . ولكل جزء حقه . . وعليه واجب ملائم له .

---

(١) سيد قطب العدالة الاجتماعية ٩٧ .
(٢) سيد قطب خصائص التصور الاسلامي ١٢٩ .

إن الإسلام يرسم سلوكاً اجتماعيا شاملاً نحو الآخرين في المجتمع ، على اختلاف مستويات الصلة بهم [1] :

• ففي جانب الوالدين « وبالوالدين إحسانا » [2] « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة » [3] .

• وفي جانب ذوي القربي : « وآت ذا القربي حقه » [4] .

• وفي جانب الضعفاء : « وآت ذا القربي حقه والمسكين وابن السبيل » [5] « ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتي هي أحسن » [6]

• وفي جانب الأبناء : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم » [7] .

• وفي جانب الجار : « ليس منا من بات شبعان وجاره جائع » حديث شريف .

• وفي جانب الزوجة : « خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي » حديث شريف .

• وفي جانب العرض والمال وخصوصيات الإنسان

---

(١) د / محمد البهي طبقية المجتمع الأوربي ٤٧ .
(٢) الاسراء ٢٣ .
(٣) الاسراء ٢٤ .
(٤) الاسراء ٢٦ .
(٥) الاسراء ٢٦ .
(٦) الاسراء ٣٤ .
(٧) الاسراء ٣١ .

الأخرى هناك أيضا تشريعات اجتماعية . تحميها ، .وتضعها في مكانها السليم من البناء الاجتماعي .

* وفي جانب المجتمع الإسلامي : « إنما المؤمنون إخوة » .

* وفي جانب المختلفين في العقيدة : « ألا من ظلم معاهداً أو تنقصّه حقه ، أو كلفه فوق طاقته ، أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس فأنا خصمه يوم القيامه » حديث شريف .

* ومع النفس والضمير والإنسانية والكون كله . . رسم الإسلام سلوكا أخلاقياً اجتماعيا حفلت به الآيات والأحاديث الشريفة .

وهكذا — ومن هذه النماذج الموجزة — تتضح أصالة المنهج الإسلامي في علاج المسألة الاجتماعية ، كما يتضح كذلك شموله لكل جوانب المسألة الاجتماعية بلا خلل أو انحراف .

هـ — التوازن والواقعية :

إن الإسلام وحده — في علاجه للمسألة الاجتماعية — هو الدين المتسم بالتوازن والواقعية بوضوح تام .

وكما هو معروف فان الأسباب المباشرة لقيام المذاهب « والأيديولوجيات » التي انتشرت في عالم اليوم . إنما تتلخص في بحث كل منها (كما يزعم أصحابها) عن إنصاف جانب مختل من جوانب المجتمع . عن طريق تصور معين (غير واقعي

في الحقيقة) للحياة .

فالماركسية تزعم أنها تنصف معظم المجتمع أو ما يسمى « بالبروليتاريا » أي الطبقات العاملة الكادحة ... تنصفه من أفراد يمثلون قله ، تدعى « بالبورجوازيين » أو « الإقطاعيين » وتسير خلفها – في هذه الدعوى – المذاهب الاشتراكية المختلفة .

وفي المقابل تأتي الوجودية ، والمذهب الحر « الليبرالية » والديموقراطيات بأشكالها الرأسمالية المختلفة ، فتزعم أنها تنقذ الفرد من سحق المجموع ، وسيطرة الدولة ، واستبداد قوانينها الظالمة .

وكما تنسحب هذه الدعوات على الجوانب الاقتصادية ، كذلك تنسحب على الحرية الاجتماعية ، فبعضها يجعل الحرية ملكا للمجتمع ... وعلى الفرد أن يذوب في المجتمع الموهوم ، وبعضها يجعل الحرية – كل الحرية – بلا حدود من قوانين واخلاقيات – للفرد . وبين هذين الاتجاهين – غير الواقعيين – المتدين في كل آفاق الحياة ، تتحرك عوامل الصراع ، وتتناقض القوى التي خلقها الله لتكون متكاملة متعاونة ... وتتحول الحياة الاجتماعية – التي يمكن أن تكون طيبة كريمة – إلى ساحة دموية رهيبة !!

أما الإسلام ... فقد رفض مبدأ الصراع ومبدأ التناقض من الأساس .. وقد أقام نظريته الاجتماعية على أساس

« التعاون » ، والبناء للفرد والمجتمع معاً في « توازن وواقعية »..

وعبر كل المجالات التي تنظم قضايا الفرد والمجتمع في الإسلام يسود التوازن والواقعية فلا ينفصل الفرد نفسيا وسلوكيا عن المجتمع ، ولا يسرق المجتمع حقوق الفرد تحت شعار من الشعارات الحالمة الكاذبة .

وإلى جانب ذلك فإنه في المجتمعات التي تطغى فيها حقوق الفرد تنسحق أمامها بالضرورة حقوق أفراد كثيرين آخرين يمثلون معظم المجتمع .. وفي المجتمعات التي تنسحق فيها حقوق الفرد تصبح القاعدة هي هذا الانسحاق للفردية البشرية.. أى ان التيارين بإيجاز ينتهيان إلى مصير واحد هو سيطرة قلة (باسم الفردية أو الجماعية) تستبد بالكثرة التي تعيش في كلا المجتمعين – في ظل هذا التصور – « فكل منهما – الفرد في النظام الشيوعي الجماعي أو الرأسمالي الفردي – ليست له إرادة يرتفع بها فوق مجال الضغط والاكراه » .

« كل منهما يكاد يفقد انسانيته ، لأنه يفقد حريته الفردية بسبب أو بآخر . . كل منهما تابع وخاضع »[1] .

والتفسير الوحيد لهذه النتيجة التي تنتهي إليها المجتمعات الشيوعية أو الرأسمالية هو انعدام التوازن والواقعية في النظرة ، وإقامة صرح الحياة الاجتماعية على أساس الصراع ، وتجاهل

(١) د / محمد البهي : طبقية المجتمع الأوربي ص ٦٦ .

قيم الإيمان التي يشيعها الإسلام في المجتمع ، سواء كان المجتمع أفراداً متناثرين — لم يتكونوا بعد في مجتمع رسمي — كشأن المسلمين في مكة قبل الهجرة ، أو كانوا مجتمعاً قانونياً كشأن المسلمين في المدينة بعد الهجرة .

فالتوازن والتعاون والحب قيم موجودة سائدة في كلتا الصورتين اللتين مر بهما المجتمع الإسلامي — « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته إخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها » [١] « هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم » [٢] وجدير بالتنويه إلى جانب ما ذكرنا — أن النظرة الإسلامية لم تجمع بين الفردية والجماعية في توازن وحسب ، بل منح الإسلام للفرد حقوقه ، وفرض عليه في مقابلها واجبات متوازنة مخصوصة للجماعة ، وبهذه الصورة ظهر بين الفردية والاجتماعية في الإسلام توافق غريب . حيث يتيسر للفرد نماء قوته وارتقاء شخصيته ، ثم يصبح عوناً بقوته الراقية فيما فيه خير وسعادة للمجتمع [٣]

وبإيجاز شديد إن النظرة الإسلامية للمسألة الاجتماعية

---

(١) آل عمران : ١٠٣ .

(٢) الأنفال : ٦٢ ، ٦٣ .

(٣) أبو الأعلى المودودي — «نظرية الاسلام وهديه» ص ٥٦

ليست صورة مجنحة في خيال شاعر ، ولا لوحة صماء بريشة فنان ، ولكنها واقع حيّ متحرك شامخ أنشأته الدعوة الإسلامية، وقام بأمر الله الذي لا يؤلف بين القلوب سواه [1] .

إنها نظرة تتجه إلى الإنسان بكل طاقاته ، وفي كل حالاته .. في قوته وضعفه ، وفي نوازعه وأشواقه ، بلحمه ودمه وأعصابه . بجسمه وعقله وروحه .

إن الإنسان الذي تتجه إليه النظرة الإسلاميه ، ليس هو الإنسان الذي يصوغه ذهن تجريدي ، ويؤلفه من عدة قضايا ذهنية ، أو الإنسان الذي يضعه المنطق الوضعي في أسفل سافلين ، ويجعله مخلوقاً من مخلوقات « المادة الصماء ، أو مخلوقات الاقتصاد » [2] .

ومع رفعة النظرة الإسلامية للإنسان ، ونظافتها وربانيتها وشمولها ومثاليتها هي في الوقت نفسه – نظرة للإنسان في حدود طاقاته الواقعية ، وهي نظام لحياة هذا الكائن البشري الذي يعيش على هذه الأرض ، ويأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، ويتزوج ويتناسل ، ويحب ويكره ، ويرجو ويخاف ويزاول كل خصائص الإنسان الواقعي كما خلقه الله [3] إن نظرة الإسلام للمسألة الاجتماعية . . . هي نظرة دين سماوي

(١) عمر عودة الخطيب – «المسألة الاجتماعية» ص ٢١٠ .
(٢) الاستاذ سيد قطب – «خصائص التصور الاسلامي» ص ٢٠٦ .
(٣) الأستاذ سيد قطب – «خصائص التصور الاسلامي» ص ٢٠٦ بتصرف.

صادر عن الإله القادر المحيط الحكيم ، وليست نظرة عاجزة صادرة عن كائن بشري يتعرض للمرض والضعف والسقوط .

٥ - المناهج البشرية لعلاج المسالة الاجتماعية

تعددت المناهج البشرية لعلاج المسألة الإجتماعية ،وتباينت فيما بينها . بين التعصب للفرد كالنظرية الرأسمالية ، والتعصب للمجتمع كالشيوعية والإشتراكيات المختلفة ، والتلفيق بين شيء من هذه النظريات وتلك كالاشتراكيات الديموقراطية .

والحق أن هذه النظريات كلها – نتيجة عدم وعيها بطبيعة الإنسان – قد وقعت في أخطاء أساسية عامة – على الرغم من تباين النظرة فيما بينها .

والجدير بالتنويه أن هذه العيوب العامة المشتركة تمثل خللاً أساسياً ممتداً في البناء المذهبي لهذه النظريات لا يمكن تقويمه ، كما تمثل بعداً من أبعاد تفوق المنهج الرباني . وتعتبر – في الوقت نفسه – أبرز الفروق بين المنهج الإلهي والمناهج البشرية في علاج المسألة الاجتماعية .

مآخذ أساسية على المناهج البشرية في علاج المسألة الإجتماعية : –

أولا : **اعتمادها على الأساس المادي**

فإن المذاهب البشرية لا تختلف من ناحية الاساس

الاعتقادي ، فكلها — من أقصى اليمين الرأسمالي ، إلى أقصى اليسار الشيوعي — تنطلق من تصور — مادي للحياة .

إنها لا تؤمن بالخالق المبدع المهيمن على هذا الكون ، ولا تؤمن بالغيبيات من ملائكة وكتب منزلة ورسل ، وبعث وحساب وعقاب وقضاء وقدر وغاية عليا مقصودة من رحلة الحياة .

إنها لا تؤمن بهذا كله ، وتجعل ذلك كله فكراً «لا علمياً» و «لا عقليا» . يقول «برتراندرسل» الفيلسوف الإنجليزي الذي يعتبره الأوربيون أوسع مفكري العصر علماً ودراسة — في كتابه «لماذا لست مسيحياً» . . . يقول ما ترجمته : «إنني أعتقد أن كل الأديان العالمية الكبرى ، كالبوذية والهندوكية والمسيحية والإسلام باطلة وضارة»[1] .

وقد أعلن «تيندال» — أحد علماء القرن التاسع عشر : «أن العلم يكفي الآن وحده لمعالجة شئون الإنسان»[2] — يعني أنه لم يعد هنا ك حاجة للتصور الديني ومايتبعه من أخلاقيات وتشريعات .

ومثل أقوال «رسل» و «تيندال» الممثلين للجناح

(١) أنظر في مناقشة هذا المفكر الملحد كتاب «الدين في مواجهة العلم»، فصل أفكار «برتراند رسل» والكتاب من تأليف «وحيد الدين خان» مراجعة وتعليق : «عبد الحليم عويس» .

(٢) المرجع السابق ص ٤٠ .

الرأسمالي في الحضارة الأوربية أقوال « ماركس » و « لينين » الممثلين للجناح الشيوعي الاشتراكي في هذه الحضارة .
يقول ماركس في البيان الشيوعي (المانفستو) الذي صدر سنة ١٨٤٨ م ما نصه : « لا إله والحياة مادة » . ويقول «لينين» : سنة (١٩١٣) . « ليس صحيحاً أن الله هو الذي ينظم الأكوان ، إنما الصحيح أن الله فكرة خرافية اختلقها الإنسان ليبرر عجزه ».

وهكذا . . . وعلى الرغم من تمويه هؤلاء وأولئك بترك بعض دور العبادة تعيش مفرغة من رسالتها وكأنها متاحف تاريخية — يتضح الأساس المادي للحياة في ظل التصور الأوربي ، رأسمالياً وشيوعياً .

ومن هذا التصور الفكري المادي تنعكس سلوكيات اجتماعية واقتصادية وسياسية ، وتتحرك كلها ، في دائرة الصراع المادي الدنيوي ، الذي لا يرفع بصره إلى أعلى ، والذي أخذه الغرور والأنانية والظلم كل مأخذ . . . فيجلس على كرسي العلم الظني ، رافضاً الاعتراف بحق الله في الهيمنة والتصرف والحكم ، أو كما يقول الأستاذ « كريس موريسون » — رئيس أكاديمية نيورك سابقا — مصوراً حالة هؤلاء الماديين ونتائج انحرافهم :

« إن الإلحاد نوع من الأنانية » .
« لسوف تقضي هذه الحضارة بدون العقيدة والدين . . .
« سوف يتحول النظام إلى فوضى . . . سوف ينعدم

التوازن وضبط النفس والتماسك . . . » .[1]

ثانياً : **انطلاقها من نظرة هابطة للإنسان . . .**

فبينما يرفض الإسلام أن ينظر إلى الإنسان على أنه حيوان ، سواء كان ناطقاً أو ضاحكاً — كما يقولون — ، وبينما يكرم الاسلام الإنسان ، ويضعه في منزلة مستقلة . . . في أحسن تقويم، ويفضله على كثير ممن خلق الله ، ويجعله خليفة الله في الأرض . .

تذهب المذاهب البشرية إلى عكس ذلك تماماً ، فهي لا ترى الإنسان إلاّ « حيواناً بيولوجيا » أو « كائنا إقتصادياً » تحركه المادة ، وتخضعه — في كل انطلاقاته الفكرية الإجتماعية — لقوانينها وضغوطها .

ومن هنا — وعلى اختلاف في مستوى التصور — تتفق الرأسمالية والاشتراكية في أنهما يعالجان « المسألة الاجتماعية » بالمنظار المادي الغرائزي ، وهما يعتقدان أن حل مشكلات الإنسان الإقتصادية تعني إشباع كل كيانه الإنساني ، متجاهلين الطاقات الإنسانية الأخرى العقلية والروحية والوجدانية .

* * *

يقول الأستاذ « فتحي يكن » مصوراً هذه الخصيصة في المذاهب المادية : « إننا لا نكون مبالغين إذا قلنا إن المقاييس التي

(١) وحيد الدين خان : الإسلام يتحدى الصفحة الأخيرة .

اعتمدتها المذاهب الحديثة من رأسمالية وشيوعية واشتراكية في تقويم الواقع البشري الإنساني – ليست بشرية وليست إنسانية..

وأمثالها قد يصلح ، ولكن لمجتمعات بهيمية ليست في حاجة أساساً لغير المتطلبات المادية الصرفة ، وأما أن تكون مرشحة لتنظيم حياة الإنسان ذات المطالب والخصائص الفطرية المتعددة ، فهذا مالا تستطيعه بحال ، لأنها تفقد عناصره الأساسية . . [1] .

ونحن نجد أنه بينما يقوم النظام الرأسمالي على دعامتين ماديتين يتلخصان في :

١ – العداء لكل ما هو ديني ، نتيجة بناء الحضارة الرأسمالية على أنقاض الكنيسة

٢ – البحث عن الثروة الشخصية والملكية الذاتية الرهيبة المتجبّرة التي تسحق كل القيم والإنسانيات ، بل وشعوباً بأكملها وصولاً للسيطرة على رأس المال .

بينما يقوم النظام الرأسمالي على هذين الأساسين غير الإنسانيين [2] يقوم النظام الشيوعي على الأساسين التاليين :

١ – تفسير الحياة اقتصادياً وضرورة سيطرة الطبقة العاملة (البروليتاريا) على سائر الطبقات ، وسحق الطبقات

---

(١) بتصرف من كتاب «حركات ومذاهب في ميزان الاسلام» ص ٥ .

(٢) راجع : الرأسمالية والانسان العربي . مقال بمجلة المجتمع – عبد الحليم عويس أغسطس ٧٣ م .

الأخرى بالعنف الدموي عن طريق الانقلابات غير المشروعة .

٢ – الإيمان بصراع الطبقات كمحرك للحياة الإجتماعية ، وتفريغ الحياة من معاني الحب والكرم والتعاون والمعاني الأخلاقية الأخرى .

أي ان المذهبين المنتشرين في عالم اليوم يفتقدان معاً النظرة الإنسانية للحياة وللبشرية ، وهما معاً يدوران في فلك حيوانية الإنسان ، وليس في فلك الإنسانية الكاملة العالية التي يركز عليها الإسلام .

ثالثا : **القصور والانحراف والظلم .**

فهذه أيضاً من الخصائص اللازمة للمناهج البشرية لأنها مناهج جزئية قاصرة ، غير متوازية . عاجزة عن التصور الشامل والتجرد الموضوعي . . . وبالتالي فهي – بالرغم منها أو بإرادتها – منحازة منحرفة .

ولئن كانت الطبقة الراسمالية في التجمع الرأسمالي (الليبرالي) هي الطبقة المسيطرة المتمتعة بالخيرات والسيادة ، فإن « الطبقة العمالية » في النظرة الشيوعية هي المسيطرة على المجتمع « هذا من ناحية النظرية فقط ، وأما عملياً فالحزب

الشيوعي هو الطبقة المستبدة المرفهة المنعمة . . . أمّا في الإسلام فالسيادة لله وحده ، والناس سواسية كأسنان المشط ، بلا طبقية أو سيطرة طبقات على أخرى .

وهم أمام القانون الإلهي سواء في الحقوق والواجبات ، **كل حسب إمكاناته وطاقاته** . والرسول صلى الله عليه وسلم يقول لفاطمة : « يا فاطمة بنت محمد . . اعملي ، فإني لا أغني عنك من الله شيئاً » . . ويقول : « ألا لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي . ولا لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى »[1] .

إن جزئية هذه النظريات واختلال موازينها وقصورها ، وعجزها عن تحقيق الشمول والاعتدال في النظرة للمسألة الإجتماعية .

إن هذه الخصائص القاتلة هي السبب المباشر في الحروب الدموية والصراعات الطبقية وأساليب الإنقلابات التي تهدد البشرية بمصير نكد ، وتضع حضارة القرن العشرين في مهب الريح ، فإما أن ينقذها الدين الوحيد المنزه عن هذه العيوب : الكفيل بتحقيق الصياغة الوحيدة الملائمة للإنسان وللحياة الإنسانية ، وإما أن يصيب هذه الحضارة ما أصاب قبلها من الحضارات التي فشلت في تعديل مسيرتها . . . وليس ما يصيبها إلا المصير الوحيد الذي حدده كتاب سماوي لا يأتيه الباطل من بين يديه

(١) رواه البيهقي .

ولا من خلفه : « حتّى إذا أخذت الأرض زخرفها وازّينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس ، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون » [1] صدق الله العظيم .

(١) يونس ٢٤ .

٦ - مقومات المجتمع الإسلامي

تمهيـــد :

المجتمع الإسلامي هو هذه الهيئة المعنوية والمادية التي تضم المسلمين الذين رضوا الإسلام دينا ، عن طواعية وإيمان وإرادة ذاتية .

وهذا المجتمع – وإن ارتبط منذ الهجرة إلى المدينة – بشكل فريد من أشكال الدولة – إلا أن ثمة فروقاً أساسية يتميز بها هذا المجتمع عن غيره من المجتمعات التي نشأت في التاريخ :

١ – فهو في الأساس مجتمع اختياري لا صدفي ولا إجباري كالتجمعات الجغرافية أو الشيوعية .

٢ – وهو مجتمع « فكرة » أو « عقيدة » ينطلق منها ويهدف إلى خدمتها ، ويتحرك في الحياة بتصوراتها و قوانينها

٣– وهو مجتمع كل السلطان فيه لله ، وليس الحاكم إلاّ أداة تنفيذ لما أنزله الله . ويسقط الولاء لهذا الحاكم إذاخرج على شريعة الله . وبالتالي فحضارة هذا المجتمع تتحرك في القرآن ، وليس في ظل السلطان . وكثيراً ما انفصل

المجتمع الإسلامي نفسياً وفكرياً عن حكامه ، لكنه ظل — وحده — يصنع الحضارة الإسلامية في المجالات المختلفة ، غير مبال بهؤلاء الحكام ، وغالباً ما كان ينحصر عمل الحكام في الحماية الخارجية والأمن الداخلي وجباية الضرائب بينما كان المجتمع الإسلامي يقود التعليم ويخدم معظم المساجد ، ويطور الفكر ويرحل علماؤه من بلد إلى بلد آخر نشراً للعلم والدين .

* * *

هذا المجتمع الإسلامي « النظري والواقعي » يعتمد على مقومات كثيرة مستمدة من الركائز الكبرى التي ذكرنا بعضها . لكننا — في البداية — ننوه بأن أي تشويه أصاب بعض صور التطبيق في هذا المجتمع لا تنقص من قدر التجربة البشرية الفريدة المثالية التي قدمها نموذج المجتمع الإسلامي في عصور متكررة من التاريخ .

فهذه الصور الشاذة كانت تجري غالباً من قبل الحكام الذين كثيراً ما أنفصلت عنهم الجماهير نفسياً وفكرياً . وهذه الصور أيضا كانت تُقَابَل باستياءٍ عام من الحس الإسلامي الذي كونه القرآن ، والذي يستلهم من حياة النبي عليه الصلاة والسلام — في ارتفاعها وعظمتها — مثله الأعلى وأمله المنشود . ولعل هذه الصور الشاذة التي استهجنها المجتمع الإسلامي كانت أمراً مألوفاً وقانونياً في المجتمعات الجاهلية التي

عاشت — ولا تزال تعيش — على هذه الأرض .

أما القاعدة في هذا المجتمع ، فهو أنه مجتمع بشري راق عقلياً وخلقياً ومادياً ، وأنه مجتمع هدفه إعلاء كلمة الله في الأرض ، عن طريق تحقيق المقومات الإسلامية للمجتمع ، وأهمها : —

١ — العقيـدة .

٢ — التكافل الإجتماعي .

٣ — الأخوة .

٤ — المساواة .

٥ — التوازن بين الفرد والمجتمع .

وفي إيجاز نتناول هذه المقومات في الصفحات التالية بإذن الله.

* * *

الأساس الأول : « العقيدة » .

يرتكز المجتمع الإسلامي بالدرجة الأولى على دعامة العقيدة ، ولقد مكث الرسول صلى الله عليه وسلم في مكة ثلاث عشرة سنة ينشر العقيدة ، ويزرعها في نفوس المسلمين ، حتى إذا ما وجد المسلمون في المدينة مكانهم الملائم للعمل الآمن للإسلام كان سهلاً أن تنشأ دولة الإسلام في واقع الأرض ، لأنها كانت قد نشأت في داخل النفوس والضمائر والعقول .

والإسلام ليس نظرية إصلاحية في مجال من مجالات الحياة بل هو قبل كل شيء عقيدة دينية ، يقيم كل نظراته في المجالات

المختلفة على أساس من تصوره . العقدي الرباني . . . ويرى علماء التوحيد أن الإيمان هو الإعتقاد الجازم (وليس المذبذب) المطابق للواقع — وليس الباطل — الناشيء عن دليل (ليس تقليداً أعمى) . . . هذا الإعتقاد هو الأساس السليم للإسلام وللمجتمع المسلم .

إن العقيدة غذاء الروح ، كما أن الطعام غذاء الجسم ، والمذاهب التي تغذي الجسم فقط تذبل وتموت لأنها لم تدرك فطرة الإنسان ولم تشبعها .

أما الإسلام فقد أدرك هذه الفطرة وقد أشبعها أيضا . كما أن من خصائص العقيدة أنها تملك قوة وسلطانا على الفكر والإرادة لدى الإنسان ، فتدفعه إلى أنواع من السلوك الذي يتلاءم مع مقتضيات هذه العقيدة بل كثيراً ما تدفع العقيدة الإنسان إلى كثير من الأفعال الكبيرة والخطيرة تلبية لنداء العقيدة التي يؤمن بها [1] .

إن علاقة العقيدة الإسلامية بالنظام الإجتماعي الإسلامي علاقة قوية جلية مؤثرة ، لأن هناك ترابطاً أكيداً في الإسلام بين العقيدة والشريعة ، . . . وهذه العلاقة أساسية في التصور الإسلامي .

ذلك لأن النظام الإجتماعي في الإسلام فرع عن التفسير الشامل لهذا الوجود . ولمركز الإنسان فيه ووظيفته وغاية وجوده

(١) بتصرف من «مبادىء الثقافة الإسلامية» د / فاروق النبهان ص ١٠٢

الإنساني . . . وكل نظام اجتماعي لا يقوم على هذا الأساس هو نظام مصطنع لا يدوم أو لايعيش ، وإذا عاش فترة شقى به الإنسان ، ووقع في التصادم بينه وبين الفطرة الإنسانية حتما ، فهي ضرورة تنظيمية كما أنها ضرورة شعورية [1] .

وفي ظل هذا الارتباط الوثيق بين العقيدة والنظام الإجتماعي الإسلامي يمكننا بإيجاز بيان آثار العقيدة في بناء المجتمع الإسلامي . . . في النقاط التالية :

١ – تغيير العقيدة الإسلامية للفرد من الداخل ، بحيث يصبح هذا الفرد خاضعاً خضوعاً كاملاً للمقتضيات الروحية المتفوقة على المقتضيات الجسدية. ونماذج بلال بن رباح الذي احتمل العذاب الشديد وأصرّ على دينه ، والأنصار الذين اقتسموا مع إخوانهم المهاجرين كل شيء يملكونه دون تحفظات – أكبر دليل على سيطرة الروح على المادة وقيادتها المطلقة للمجتمع الإسلامي .

٢ – إشعال هذه العقيدة لجذوة الجهاد . . . أي الرغبة القوية في نشر كلمة الله في الأرض ، والتضحية في سبيل ذلك بالنفس والمال ، مما أعطى المجتمع الإسلامي إمتداده البشري والفكري المعروف في التاريخ [2] .

---

(١) أنظر : «خصائص التصور الإسلامي » للأستاذ سيد قطب ص ٢٥ ط ٢

(٢) راجع فصل «أثر الفكرة الدينية» في كتاب «شروط النهضة» للأستاذ مالك بن نبي

٣ – تحرير هذه العقيدة الناس من عبودية الخرافات والأوهام على أساس الثقة في الله وحده ، وعدم الخضوع لغيره ، وإعطاء هذه الدنيا حجمها الملائم دون تفريط أو إفراط .

٤ – تنظيمها للمجتمع على أساس الحاكمية لله ، والخضوع للحق والعدل [١]

٥ – إنقاذها المجتمع من الخواء الروحي والفراغ النفسي والقلق والأمراض العصبية والخلقية التي تضج منها المجتمعات المادية . وملء النفس بالطمأنينة والسكينة والثقة . « ألا بذكر الله تطمئن القلوب »[٢] . . « هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم [٣] » .

الأساس الثاني : التكافل الإجتماعي :

يقيم الإسلام علاجه للقضايا الإجتماعية والإقتصادية على أساس معنوي نابع من الإطار الأخلاقي والإنساني الذي تتكيء عليه كل القوانين الإسلامية .

وعلى الرغم من أن الإسلام قد قدّم إطاراً قانونياً متكاملاً لتحقيق العدالة الإجتماعية – إلاّ أن الأساس المعنوي الإنساني بقي هو الميزة الكبرى التي انفرد بها هذا الدين .

(١) أنظر : د / فاروق النبهان «مبادىء الثقافة الإسلامية» ص ١١٤ .
(٢) الرعد ٢٨ .
(٣) الفتح ٤ .

والأساس المعنوي يقوم على مخاطبة الإنسان من داخله ، وليس مجرد قيادته من ظاهره ، وتحريك ضميره بدل سوقه بالقوة القاهرة ، واستجاشة مشاعر الفطرة النبيلة بدل تحويل الحياة إلى صراع كئيب .

والحق أن الإسلام في تشريعه الإجتماعي قد اعتمد هذا الأساس المعنوي على نحو لم تصل إليه أرقى النظم التي ظهرت في التاريخ . وقد أطلق على هذا الأساس اسم « التكافل الإجتماعي ». ولئن كانت بعض البلدان غير الإسلامية قد بدأت تلجأ إلى أسلوب التكافل الإجتماعي عن طريق ما يسمى بالجمعيات الخيرية ومؤسسات البر والمستوصفات والمستشفيات المجانية والضمان الإجتماعي وحماية الضعفاء وما إلى ذلك . . . إذا كان الأمر كذلك فليس ما تفعله هذه الدول إلاّ تقليداً متأخراً منها لما جاء به الإسلام منذ أربعة عشر قرناً ، بعد أن طحنتها القوانين الجافة وأساليب الصراع الإجتماعي .

ومع ذلك فهناك فروق أساسية بين الإصلاحات الإجتماعية لهذه الدول ، وبين النظرة الإسلامية أهمها : ــ

١ ــ أن اصلاحاتها لا زالت في دائرة الماديات فقط ، ولم تتسع إلى دائرة قول الله : « وتعاونوا على البر والتقوى » كما أنها لم تستطع الإرتفاع إلى مستوى قول الرسول عليه الصلاة

والسلام : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد... إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى »[1].

٢ – وهذه النظم جعلت هذه الإصلاحات ، أو الكفالة الإجتماعية مقابل واجب مادي يلتزم به الفرد . أما في الإسلام فلا مقابل إذ أن التكافل يعتمد على فضول مال الأغنياء وعلى الدولة .

٣ – ثم إن هذه النظم تعتمد على القانون وحده ، أما الإسلام فيعتمد على إثارة الضمير وتوجيه الوجدان وتحريك المشاعر[2]

٤ – الإسلام يمزج في تكامله بين القواعد الدينية والقواعد التشريعية ، ويجعلها كلها عبادة يثاب على أداء حقها كاملاً ، فالمجتمع الإسلامي لايقوم على تجمع مادي جغرافي بشري ، بل يقوم على تجمع عقدي روحي تعتبر العقيدة فيه عنصراً للتوحد الإجتماعي والترابط الشعوري والأخوة الإنسانية .

٥ – هذا بالإضافة إلى أن التكامل الإجتماعي في الإسلام إذ ينبثق من الخصائص الإنسانية التي أحلها القرآن والسنة ، يصبح أداة فعالة في حفظ كيان المجتمع الإسلامي من الخذلان والتدهور[3] ،أي أنه تكافل من المجتمع والأفراد،

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) راجع عبد الكريم عثمان : معالم الثقافة الإسلامية ٢٥٢ ، ٢٥٣ بتصرف وراجع العدالة الإجتماعية للأستاذ / سيد قطب ص ٦٣ .

(٣) مجلة الأصالة الجزائرية عدد ١٣ ص ٤٩ .

تعود نتائجه أيضاً على المجتمع والأفراد .

مظاهر التكافل الإجتماعي في الإسلام :

تتعدد صور التكافل الإجتماعي في الإسلام ، فتمتد إلى كل العلاقات الاجتماعية ، لكننا نستطيع أن نوجز أهمها في المظاهر التالية :

١ — التكافل الخُلُقي : ويُقْصد به إيجاد تعاون اجتماعي عام لإيجاد روح اجتماعية تنكر المنكر وتشيع المعروف . «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر[١] » فكل فرد في المجتمع الإسلامي ، وكل مسئول عن موقع ما ، مهما اختلفت المستويات والطاقات ، مسئول عن إشاعة المعروف وإزالة المنكر : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فمن لم يستطع فبلسانه ، فمن لم يستطع فبقلبه وهو أضعف الإيمان[٢] . »

كما أن المجتمع — أفراداً أو حكومات — مسئول عن حماية دماء الناس وأعراضهم وأموالهم « كل المسلم على المسلم حرام . دمه وعرضه وماله[٣] » وذلك ليشيع الأمن والخير والحب في المجتمع .

---

(١) آل عمران ١٠٤ .

(٢) رواه مسلم والترمذي وأبو داود والنسائي .

(٣) رواه الشيخان .

٢ – التكافل الذاتي . . . أي رعاية الإنسان لنفسه ، عن طريق تزكيتها « قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دسّاها [١] » والارتفاع بها والسير في طريق النجاة ، « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة »[٢] .

٣ – التكافل الأسري . . . أي رعاية الإنسان لأهله . . لوالديه وإخواته وزوجته وأولاده ، وقد روى النسائي عن طارق المحاربي قال : « قدمتُ المدينة فإذا رسول الله صلّى الله قائم على المنبر يخطب الناس وهو يقول : يد المعطي العليا وابدأ بمن تعول : أمك وأباك فأختك وأخاك ، ثم أدناك أدناك » ، ومن ذلك أيضاً قول القرآن الكريم : « وبالوالدين إحساناً » .

٤ – وهذا التكافل الأسري يمتد ليشمل كل ذوي الأرحام ، وقد أعطى الإسلام ذوي القربى حقوقاً من حقهم أن يطالبوا بها قانونيا . قال تعالى : « وآت ذا القربى حقه » « وقيمة هذا التكافل في محيط الأسرة أنه قوامها الذي يمسكها والأسرة هي اللبنة الأولى في بناء المجتمع ، وهي تقوم على الميول الثابتة في الفطرة الإنسانية ، وعلى عواطف الرحمة والمودة ، ومقتضيات الضرورة والمصلحة »[٣]

---

(١) الشمس ٩ ، ١٠ .
(٢) البقرة ١٩٥ .
(٣) العدالة الإجتماعية ص ٦٥ .

٥ — حق الجار . والقرآن يقول في حق الجار : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب [١] » وقال عليه السلام : « أحسن إلى جارك تكن مسلماً [٢] » ، وقال أبو ذر الغفاري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أوصاني خليلي صلى الله عليه وسلم .. إذا طبخت فأكثر المرق ، ثم انظر بعض أهل بيت من جيرانك فاغرف لهم منها [٣] » .

« وليس الجار هو الملاصق كما يظن بعض الناس . فقد روي في الآثار أن أربعين داراً جار . وفسرها بعضهم بأربعين من كل جهة من الجهات الأربع . فأهل كل حي إذن جيران بعضهم لبعض قالت عائشة : قلت يا رسول الله . إن لي جارين . أحدهما مقبل عليّ ببابه والآخر ناء ببابه عني . وربما الذي كان عندي لا يسعهما . فأيهما أعظم حقاً ؟ فقال : المقبل عليك ببابه [٤] » فالإسلام يريد

(١) النساء ٣٦
(٢) رواه ابن ماجه
(٣) رواه مسلم .
(٤) أنظر « مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام » للدكتور : يوسف القرضاوي ١٣٠ .

أن يجعل من كل حي أو شارع وحدة متكاملة متعاونة بحيث يحمون ضعيفهم ، ويطعمون جائعهم ، ويكسون عاريهم ، وإلاّ برئت منهم ذمة الله وذمة رسوله ، ولم يستحقوا الانتماء إلى مجتمع المؤمنين [1] » .

٦ – وللفقراء والمعوزين حق في مال الأغنياء ، إلى أن يكتفوا ، إذا لم تكفهم الزكاة ، المفروضة ، ويقول الإمام أبو محمد علي بن حزم المتوفى سنة (٤٥٦) في موسوعته الفقهية « المحلّى » عن ذلك :

« وفرض على الأغنياء من أهل كل بلد أن يقوموا بفقرائهم ، ويجبرهم السلطان على ذلك ، إن لم تقم الزكاة بهم ، ولا في سائر أموال المسلمين بهم ، فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذي لا بد منه ، ومن اللباس للشتاء والصيف بمثل ذلك ، وبمسكن يكنّهم من المطر والصيف والشمس وعيون المارة . . .

وقال ابن حزم أيضا : « ولا يحل لمسلم مضطر أن يأكل ميتة أو لحم خنزير وهو يجد طعاماً فيه فضل عن صاحبه لمسلم أو لذميّ ، لأنه فرض على صاحب الطعام إطعام الجائع ، فإذا كان ذلك كذلك فليس بمضطر إلى الميته ولا إلى لحم الخنزير ، وله أن يقاتل عن ذلك ، فإن قتل المانع

(١) المصدر السابق .

فإلى لعنة الله ، لأنه منعَ حقاً ، وهو طائفة باغية [1] » .

٧ — كفالة أهل الذمة ، ففي المجتمع الإسلامي يمتد التسامح ليشمل كل الخاضعين للقانون ، المنضوين تحت حماية المجتمع الإسلامي .

وقد منح الإسلام — أهل الذمة — من أهل البلدان التي فتحها حقوقاً تمنحهم الأمان والاطمئنان على معتقداتهم ، إذا شاءوا البقاء عليها ، ما لم يقفوا في وجه الإسلام بطريق أو بآخر . وفي سلوك الرسول عليه الصلاة والسلام مع يهود المدينة ، وسلوك المسلمين بعد ذلك على امتداد التاريخ ما يؤكد سمو المعاملة التي عومل بها هؤلاء . ونحن نجد في كتب « النظم الإسلامية » مثل « كتاب الأموال » لأبي عبيد القاسم بن سلام و« كتاب الخراج » لأبي يوسف ، و« كتاب الخراج » لقدامة ابن جعفر ، وكتاب « الأحكام السلطانية » لأبي الحسن الماوردي[2] — نجد في هذه الكتب وغيرها تفاصيل المعاملة النادرة السامية التي عومل بها هؤلاء الذميون.

ولعل من أكبر صور السمو في هذه المعاملة تلك الكفالة الاجتماعية التي ضمنها المجتمع الإسلامي لهؤلاء في حالات عجزهم وضعفهم ، وقصة عمر بن الخطاب مع اليهودي وفرضه له مالاً — راتباً — من بيت مال المسلمين أكبر دليل

(١) المحلى حـ ٦ كتاب الزكاة ، مسألة ٧٢٥ .

(٢) د/ حسين مؤنس / عالم الإسلام ص ٢٩٥ .

على ذلك .

• • • •

هذه هي بعض صور التكافل الإجتماعي . وثمة صور أخرى كثيرة تلتزم بها الدولة الإسلامية ، وصور أخرى تقوم على الصدقات الفردية والكفارات والنذور والأوقاف . . .

وهذه الصور طبقها المسلمون ، وأسهمت في خلق مجتمع إسلامي متكافل نادر المثال في التاريخ .

وقد سرد المرحوم الدكتور مصطفى السباعي [1] ثلاثين مظهراً من مظاهر التكافل الإجتماعي في العالم الإسلامي ، من بينها إنشاء المساجد والمدارس والمستشفيات والفنادق المجانية للمسافرين ، والزوايا ، والسقايات التي تسقي الناس ، وبيوت الحجاج العابرين ، وحفر الآبار في الفلوات ، وأمكنة المرابطة على الثغور ، وأوقاف الخيول والسيوف على المجاهدين ، وأوقاف إصلاح الطرق والقناطر والجسور ، وشراء أكفان الموتى ومؤسسات الأيتام واللقطاء ، ومؤسسات تحسين أحوال المساجين ، ومؤسسات لإمداد العميان والمقعدين بمن يقودهم ويخدمهم .

هذه المؤسسات التي عرفها المجتمع الإسلامي ، وحقق من خلالها أروع نماذج التكافل الإجتماعي . . . هذه المؤسسات

---

(٢) في كتابه : من روائع حضارتنا .

كانت تطبيقاً عملياً لمبدأ التكافل الإجتماعي الذي نادى بـه القرآن حين نادى جماعة المسلمين :

« و تعاونوا على البر والتقوى » صدق الله العظيم .

الأساس الثالث : الأخـوة :

الأخوة العامة بين المسلمين أساس من أسس تكافلهم الإجتماعي إنسانياً ومادياً. والقرآن يجلّي هذه الأخوة وخصائصها عندما يقول : « إنما المؤمنون إخوة ، فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون [1] » « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم [2] » .

وعندما هاجر الرسول عليه الصلاة والسلام إلى المدينة كانت المؤاخاة بين المسلمين من أولى الركائز التي اعتمد عليها في بنائه لمجتمع المسلمين ، وقال لأصحابه من المهاجرين والانصار : « تآخوا في الله أخوين أخوين » « فكان هذا التآخي — بما انبثق عنه من ترابط وتكافل اجتماعي وإيثار نادر في التاريخ البشري كله . . . كان هذا التآخي « تجربة رائدة » في تاريخ العدل الإجتماعي ضرب فيه الرسول عليه الصلاة والسلام مثلاً على مرونة الإسلام وانفتاحه في الظرف المناسب على أشد صور العلاقات الاجتماعية مساواةً وعدلاً [3] » .

---

(١) الحجرات ١٠ .

(٢) الفتح الآية الأخيرة .

(٣) د . عماد الدين خليل / دراسة في السيرة ص ١٥٤ .

« وقد بلغ من تأكيد الرسول عليه الصلاة والسلام على المؤاخاة أن كان ميراث الانصاري يؤول بعد وفاته إلى أخيه المهاجر بدلاً من ذوي رحمه من الإخوة أو الأبناء أو النساء ...

« واستمر الحال على ذلك حتى موقعة بدر التي حظي فيها المسلمون بمقادير لا بأس بها من الغنائم والأموال ، فأنزل الله تعالى : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله » « فعاد التوارث سيرته الأولى [1] » .

ولا نظن مجتمعا من هذه المجتمعات التي تتشدق بالعدالة الإجتماعية تحت شعارات الاشتراكية أو غيرها ـ تحلم بالوصول إلى شيء من هذه الصورة التي صورها القرآن أصدق تصوير بقوله : « والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم ، يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة [2] » .

* * *

إن الأخوة بين المسلمين من أعظم المبادىء التي ارتكز عليها التكافل الإجتماعي في الإسلام .

بيد أن هذه الأخوة التي تجسدت عملياً في المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار كأول صورة تطبيقية لها . . . هذه الأخوة للأسف الشديد لم تحظ من المؤرخين بالاهتمام الكافي ، مع أنها

(١) المرجع السابق ص ١٥٢ .
(٢) الحشر ٩ .

من أبرز الظواهر التي تخرس الدعاة المزيفين للعدالة الإشتراكية في العصر الحديث . وتكشف بجلاء عن مدى عظمة النظرة الإسلامية لعلاج المسألة الإجتماعية .

وجدير بالتنويه هنا أن هذه الأخوة ممتدة بين المسلمين إلى يوم القيامة . ولئن كانت قد توقفت كأساس للتوريث ، فإنها لم تتوقف كمبدأ إنساني إجتماعي أساسي في حياة الجماعة الإسلامية ، لأن محمداً عليه الصلاة والسلام لم يقررها لمجرد إيجاد وسيلة لمعاونة المهاجرين المحتاجين ، وإنما قررها ليؤكد للجماعة الإسلامية مبدأ الأخوة في العقيدة والهدف والمثل الأعلى بين أهل الجماعة الواحدة .

ولو أن كل جماعة إسلامية حرصت على تطبيق مبدأ المؤاخاة وربط أفرادها أثنين أثنين بروابط أخوة قلبية وإنسانية ومثالية ـ لكان لذلك أثره البعيد في تطور العلاقات الإنسانية في داخل الجماعات الإسلامية ، ولكانت هذه الروابط الروحية بين الناس قد أصبحت عوامل قوة دائمة تعين الجماعة الإسلامية على الثبات والسير إلى الأمام [1] . فضلا عن حفظها لكيان المجتمع كأقوى ما يكون ترابطا وتعاوناً وحباً

الأساس الرابع : المساواة :

تعتبر المساواة بين الناس ركيزة اجتماعية أصيلة في المنهج

(١) د . حسين مؤنس عـ‍م الإسلام ١٣٩ .

الإسلامي « يأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً [1] »

وهكذا ، ومنذ الأصل والنشأة ، كانت المساواة أصيلة في المنهج الإسلامي . ويمثل النبي عليه الصلاة والسلام أقوى وأول تطبيق حيٍّ لهذه الركيزة في الإسلام .

إنه عليه الصلاة والسلام كان يمشي في دروب المدينة ، وفي أسواقها ومع أهلها صغاراً وكباراً ، أغنياء وفقراء . . . كما يمشي كل الناس .

كان بسيطاً في ملبسه ومأكله ، لايكاد يمتاز على الناس بشيء : فهو يأكل كل ما تيسر له من الطعام المباح إذا وجد ، ويكتفي بتمرات إذا لم يجد غيرها ، يجوع كالناس . . .

ولما بادر عليه الصلاه والسلام إلى إنشاء الجماعة الإسلامية لأول نزول المدينة ، لم ينشئها في صورة نفرٍ من الحواريين أو الدعاة ، وإنما أنشأها في صورة مجتمع إنسانيٍّ متساو متكامل يمثل جميعه « أمة الدعوة » ، بلا أفضلية طبقية لا من جهةأصول الدين ، ولا من جهة التطبيق في الدنيا ، وإنما تحدد الأفضلية على أساس « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وبينما يحكي النصارى أنفسهم أن عيسى عليه السلام كان لا يسير إلا وسط حوارييه ، ولا يتكلم إلاّ معهم ، وإذا تكلم

(٢) النساء الآية الأولى .

مع غيرهم عدّ هذا أمراً غريباً ينطوي على حكمة بالغة ، وكلامه كله رموزٌ ومجازاتٌ وكنايات تحتمل معاني شتّى .

بينما هذا نجد محمداً صلى الله عليه وسلم يعيش وسط الناس جميعا كواحد منهم ، يتحدث إلى كل من يريد أن يستفسره في أمر ، ويتكلم معهم ويداعب أطفالهم بكلام يناسبهم [1] .

وهكذا — ومنذ البداية — كانت المساواة — نظرياً وعملياً — أصيلة في المنهج الإجتماعي الإسلامي . . . ولا يؤثر في ظل ذلك أن يتمايز الناس ثراء وفقراً . . . أو قوة وضعفاً . . . أو كفاية وقدرة وإنتاجا . . . أو علماً وخبرة . . . أو يتمايز في دروب الحياة كما تؤهلهم قدراتهم وأعمالهم ، فإن ذلك التمايز كله لن يغير من أصل المساواة العامة أي شيء . ولن يكون أكثر من نتيجة طبيعية لأسباب مكتسبة ، بل لن يكون في حقيقته إلاّ التحقيق العادل لأصول المساواة . . . ذلك لأن المساواة لا تعني مساواة النشيط بالكسول والعالم بالجاهل والمجاهد بالقاعد . بل إن هذا النوع من المساواة — وهو ما تجنح إليه النظريات الشيوعية والإشتراكية — هو أكبر أنواع الظلم والغبن ، وهو طريق قصير لتدمير قيم العمل والكفاية والجد والتضحية والإخلاص .

---

(١) أنظر : د . حسين مؤنس /عالم الإسلام /١٩٥ .

والمساواة في الإسلام — بمعناها العادل الذي حددناه — ركيزة أساسية في المنهج الإسلامي لعلاج المسألة الإجتماعية بل هي ممتدة إلى كل أشكال التعامل البشري الممثل في الصور والجوانب التالية :

١ — المساواة في الكرامة البشرية « الأصل » بلا تمايز جنسي أو قبلي « ولقد كرمنا بني آدم »[١] .

٢ — المساواة أمام القانون ، فالمسلمون — حاكماً ومحكومين — أمام قانون الله سواء .

٣ — المساواة أمام القضاء ، فالمسلمون جميعاً يحاكمون لدى محاكم واحدة مهما تفاوتت مكانتهم الإجتماعية .

٤ — المساواة في الحقوق المادّية حسب الحاجة — عند العوز — وحسب الطاقة والجهد عند الكفاية والثراء .

٥ — المساواة في التكاليف المادية « أي الواجبات الفردية نحو المجتمع [٢] ، كل حسب قدرته ، وفق شريعة الله في الزكاة ، وهي شريعة لا تفرق بين المسلمين .

* * *

والمسلمون — اقتداءً برسولهم عليه الصلاة والسلام — لم يمارسوا المساواة ،شعاراً نظرياً » يتاجرون به كما يتاجر الماديون ، وإنما مارسوها حقيقة معاشة ممتدة إلى داخل أنفسهم تنتزع منها

---

(١) الإسراء ٧٠ .

(١) د . فاروق النبهان / مبادىء الثقافة الإسلامية صفحات : ٢٥٣ — ٢٥٦

كل نواحي الأثرة والأنفة والشعور الجاهلي بالتعالي والفوقية الطبيقية .

وهل ينتظرون شيئاً بعد أن سمعوا من رسولهم العربي الهاشمي قوله : « سلمان منا أهل البيت » ! – أجل سلمان من أهل البيت لأنه عمل صالح ، وكل عمل صالح هو من دوحة النبوة .

ومن سلمان هذا ؟ إنه ابن « مو بذان » في إحدى قرى فارس ، وقد ظل يتنقل من رق إلى رق قبل أن يبعث النبي ، فلما أسلم انتقل هذا العبد – بالإسلام – إلى حاكم لعاصمة الإمبراطورية الفارسية التي كان بالأمس أحد رعاياها . . . بل عبيدها !

وبلال الحبشي « العبد الذي أعتقه أبو بكر » يقول فيه عمر ابن الخطاب – خليفة المسلمين العظيم – : « أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا » .

وسالم مولى أبي حذيفة كان يرى فيه عمر أهلاً للخلافة ، وهو القائل فيه « لو كان سالم حياً لاستخلفته [1] » .

إنها تطبيق حي عملي . . . نابع من تصور إسلامي ممتزج بالعقل وبالقلب ، قادر على إجتثاث كل مظاهر الطبقية ،

---

(١) نقلا عن أبي الحسن الندوي ، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ١٠٩ – ١١٠ .

وليس مجرد مظاهر خارجية . لعل التاريخ لم يشهد — فيما شهد — مثل هذه المساواة .

لكن هل يعني ذلك أن الإسلام — والمجتمع الإسلامي — لم يتفاضل فيه الناس معنوياً أو مادياً ؟

لقد ذكرنا من قبل إن المساواة الحقيقية لا تعني تحويل الناس إلى قوالب من حجارة دون تفاضل في الخبرة أو العلم أو القوة والضعف .

الطبقات في المجتمع الإسلامي :

أجَلْ . . . هناك طبقات في المجتمع الإسلامي ، لكنها طبقات لا تنتمي للمعنى الطبقي السائد في أوربا والمجتمعات الشيوعية المادية .

إنه مجرد تصنيف فكري واقتصادي للناس . . . مجرد تفاوت يرصد الواقع الذي لا تستقيم الحياة إلاّ بتنوعه .

والقرآن الكريم والسنة الشريفة يبرزان هذا التفاوت الضروري بين الناس :

١ — « إن أكرمكم عند الله أتقاكم [١] »

٢ — « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات [٢] » .

(١) الحجرات ١٣ .

(٢) المجادلة ١١ .

٣ – « لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة [١] »

وثمة آثار كثيرة تبرز هذا التفاوت الضروري ، كتفضيل المؤمن القوي على المؤمن الضعيف ، وتفضيل من أسلم قبل الفتح على من أسلم بعده ، وتفضيل أهل بدر . . . وهكذا . لكنها كلها أنواع من التفاضل لا تغلق باب التكافؤ في الفرص ، ولا تفرق بين مسلم وآخر أمام القانون ، ولا تنقص من حقوق أحد شيئاً .

وحتى التقسيم الإجتماعي لبعض الطوائف العاملة في المجتمع كتقسيمهم في بعض كتب النظم الإسلامية إلى « أرباب دولة » و « أرباب صنائع » و « أجراء » .

وتقسيمهم – على هذا النحو كما نرى – تغلب عليه المهنية والحرفية لا الطبقية . وهو رصد للواقع ، لا يفرض حواجز بين الطبقات كا لحواجز التي كانت تفصل السادة عن الأقنان ، أو الأشراف عن الغوغاء في المجتمعات غير الإسلامية . بل إن التلاحم عن طريق المصاهرة والمعاملات الإجتماعية المختلفة – قائم بين هذه الشرائح وكلها – أيضا – أمام القانون والقضاء سواء ، بل إن كلها في الصلاة والصيام والحج سواء .

---

(١) النساء ٩٥ .

ونختم حديثنا عن المساواة الإسلامية بهذا المثل القاطع الدلالة على مدى استئصال الإسلام للنزعات العنصرية والطبقية ، وإقراره للتفاوت الخلقي والسلوكي والفكري وحده .

تحكي كتب التاريخ أنه لما ذهب المسلمون لفتح مصر ، وتوغلوا فيها حتى وقفوا أمام حصن بابليون — رغب المقوقس في المفاوضة مع المسلمين ، فأرسل إليهم وفداً ليعلم ما يريدون ، ثم طلب أن يرسلوا إليه وفداً ، فأرسل إليه عمرو بن العاص عشرة نفر فيهم عبادة بن الصامت ، وكان عبادة شديد السواد طويلا حتى قالوا إن طوله عشرة أشبار ، وأمره عمرو بن العاص أن يكون هو الذي يتولى الكلام مع المقوقس . فلما دخلوا على المقوقس تقدمهم عبادة ، فهابه المقوقس لسواده . وقال لهم : نحّوا عنّي هذا الأسود وقدموا غيره يكلمني . فقال رجال الوفد جميعاً : إن هذا الأسود أفضلنا رأياً وعلماً . وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا وإنما نرجع جميعاً إلى قوله ورأيه . وقد أمّرَه الأمير دوننا وأمرنا ألاّ نخالف رأيه وقوله . فقال المقوقس : وكيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم ؟ وإنما ينبغي أن يكون هو دونكم ؟ قالوا : كلا . إنه وإن كان أسود كما ترى فإنه من أفضلنا موضعاً وسابقةً وعقلا ورأياً ، وليس ينكر السواد فينا . فقال المقوقس لعبادة : تقدم يا أسود وكلمني برفق فإني أهاب سوادك ، وإن اشتد كلامك عليّ ازددت لك هيبة .

فقال عبادة — وقد رأى فزع المقوقس من السواد : إن في جيشنا ألف أسود هم أشد سواداً مني [1] » .

وبعد قليل فتح جيش المساواة والعدالة مصر ، وانتصروا على المقوقس والرومان جميعاً .

الأساس الخامس: التوازن بين الفرد والمجتمع:

لعل البشرية ما شقيت بقضية كقضية علاقة الفرد بالمجتمع . فمعظم الإنقلابات والثورات والمذاهب المتصارعة في عالم اليوم إنما تتصل بهذه القضية بسبب أو آخر .

* والغريب أن هذه المذاهب كلها نسيت — في غمرة صراعها — قوانين الفطرة ، ونسيت أن الفرد أساس المجتمع ، وبالتالي فبدون فرد قوي يستحيل قيام مجتمع قوي .

* وقد نسيت أيضاً أن النزعة الفردية والشعور الإستقلالي للذات نزعة فطرية لا يمكن سحقها إلاّ إذا سحق الإنسان كله .

* ونسيت أن هذا الإنسان الفرد كائن اجتماعي ، وأنه بدون تجمع — بدءاً من آدم وحواء — لم يكن في الإمكان تطور التجمع البشري واستمراره .

* أي أنها نسيت — بتعبير وجيز — أن النزعة الإجتماعية ضرورية وفطرية أيضاً .

(١) نقلا عن «من روائع حضارتنا» للمرحوم الدكتور / مصطفى السباعي ص ٦٥ .

إن الخطين معاً — الخط الفردي والخط الاجتماعي — فطريان ، ففي كل نفس سوية ميل للشعور بالفردية المتميزة بالكيان الذاتي ، وميل مقابل للاندماج في الجماعة والحياة معها وفي داخلها . . . ومن هذين الميلين معاً تتكون الحياة [1] »

إن الإنسان — حين يجوع وحين يتألم وحين يفرح وحين يؤدي عملاً وحين يحب الخير لنفسه . . . في كل هذه الحالات وغيرها يفعل ذلك ويحس به انطلاقاً من فرديته وحدها ، لكنه مع ذلك يستمد نزعته الإجتماعية من ميله للأصدقاء والزملاء والجيران وحاجته إلى المعاونة وإلى الأهل والأقارب . . . أي أن الخطين — بإيجاز — ضروريان ومتكاملان [2] » .

• • • •

وقد ذهبت الرأسمالية في الغرب إلى إبراز الفردية وتعميقها ، حتى لا يبقى للكيان الإجتماعي إزاء طغيانها وجود ملائم .

وفي المقابل ذهبت الشيوعية والاشتراكيات إلى إبراز الجماعة ، محطمة في طريقها كل نزعة فردية في الانسان . . . ففي هذه المجتمعات لا وجود للإنسان الفرد بالمعنى الوجودي الحقيقي . فالمواطن ليس إلاّ عددية مهنية لا رأي لها ولا إرادة ولا إمكانية استقلال فردي في أي جزئية من جزئيات الحياة .

---

(١) الأستاذ / محمد قطب / دراسات في النفس الإنسانية ص ١٣٠ .
(٢) راجع فصل «الفردية والجماعة» المرجع السابق .

والمذهبان – كما نرى – متناقضان مع قانون الفطرة .
وكلاهما لا يؤدي إلى تحقيق الفرد الراشد أو المجتمع الراشد ،
بل يؤديان إلى نتيجة سيئة هي طحن الفرد والمجتمع مهما طال
الزمان .

• • •

أما منهج الإسلام في علاج هذه العلاقة باعتبارها جزءاً
من منهجه في علاج المسألة الإجتماعية – فيتلخص في المقومات
التالية : –

١ – حفظ الكيان الفردي ، مع الملاءمة بينه وبين الكيان الاجتماعي ، فهما ليسا طرفي نقيض بل هما متكاملان متعاونان .
٢ – إحداث توازن بين الفرد والمجتمع ، في مجال حقوق كل منهما وواجباته .
٣ – إحداث توازن نفسي وخلقي في داخل الفرد ، ليكون منطلقاً لتوازنه مع المجتمع .
٤ – والمجتمع أيضاً بطبقاته المتوازنة ، وقيمه الإسلاميةالمتوازنة مادياً وروحياً – يفرض توازنه على الفرد .
٥ – ومما يدعم هذا التوازن إقامته – في الإسلام – على وعي المسلم بحق الجماعة ، وشعوره بالواجب . وتنديد الإسلام بالنزعات الانعزالية التي تنمي الأثرة والفردية . وجعل الإسلام كل عمل اجتماعي نافع عبادة من أفضل العبادات

إذا توفرت النية الحسنة [1] »

٦ - ويقرر الإسلام أن التعاون في المجتمع - من قبل الفرد - إنما يتم اختيارياً عن رغبة ذاتية . وهذا التعاون ليس قاصراً على جانب واحد . ولكنه متعدد الجوانب . ويتعدد فيه التوازن والتعادل ، حتى لا تقوم ظواهر الحقد الطبقي والصراع الإجتماعي .

٧ - وهذا التوازن تصونه عقيدة دينية ، تهذب ضمير الفرد في جانب من جوانبها ، وتحفظ للجماعة قوتها وسلامتها في جانب آخر .

« وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً [2] »

(١) لمحات في الثقافة الإسلامية بتصرف ص ٢٤٢
(٢) البقرة - آية ١٤٣

الفصل السادس

الإسلام والتيارات الاقتصادية الحديثة

١ ــ سياسة الإسلام الاقتصادية
٢ ــ الأسس العقدية للاقتصاد الإسلامي
٣ ــ الأسس الاخلاقية للاقتصاد الإسلامي
٤ ــ الأسس التشريعية للاقتصاد الإسلامي
٥ ــ المذاهب الاقتصادية المعاصرة

سياسة الإسلام الاقتصادية

لا تنفصل سياسة الإسلام الاقتصادية والمالية [1] عن الشجرة الإسلامية المتكاملة . ذات الأصول الموحى بها ، والملامح الإنسانية العامة .

وليس ما يقدمه الإسلام من تشريعات اقتصادية ومالية إلا جزءاً لا بدّ أن يرتبط بالكل الذي هو الإسلام عقيدة وشريعة .

وفي ضوء هذا الأساس الواضح تمّ معالجة السياسة الاقتصادية الإسلامية في مستويات ثلاثة :

١ - مستوى الأسس العقدية والفكرية .
٢ - مستوى الأسس الأخلاقية الإنسانية .
٣ - مستوى الأسس التشريعية .

الأسس العقدية للاقتصاد الإسلامي :

ليس الإسلام نظرية مادية ترسم عالم الإنسان من خارجه ،

(١) المقصود بالمال في الاصطلاح الاقتصادي : كل ماينتفع به على وجه مادي ، أو كل ما يقوم بثمن .

بل الإسلام قبل كل شيء دين سماوي تتحرك كل تشريعاته صوب الغاية الكبرى التي تلخصها الآية الكريمة : « وما خلقتُ الجن والإنس إلا ليعبدون » فعبادة الله وإسلام الوجه له هو غاية الاقتصاد والاجتماع في الإسلام .

يقول الدكتور محمود أبو السعود : « إن الاقتصاد الإسلامي يتميز عن غيره بأنه جزء من عقيدة لا تقبل التجزئة ، ولا تحتمل الشرك ، ولا يستطيع أن يعيش الفرد في ظلها عبداً لشهواته ، لاهثاً وراء رغائبه الحسية . إنه اقتصاد يرمي إلى السمو بالإنسان إلى مرتبة المخلوق المتصل بخالقه أملاً وعملاً ومصيرا » .

ويحدد الأستاذ « محمد باقر الصدر » في كتابه : « اقتصادنا » خصائص الاقتصاد الإسلامي بأنه : يمتاز بالواقعية والأخلاقية في وسائله وغاياته . ويرتبط بالعقيدة التي هي مصدر التموين الروحي لمذهبه » .

وحقيقة فإن الإنسان في نظر الإسلام يملك الأشياء ، ويتصرف فيها ، لكنه لا يتحرر في تصرفاته من حكم الله وأمره وتوجيهه . وحدوده : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا . وأحسن كما أحسن الله اليك . ولا تبغ الفساد في الأرض [1] » ففي هذه الآية القرآنية اعتبارات خمسة للملكية في الإسلام :

(١) القصص ٧٧ .

أ ـ أن الملك أساساً وابتداءً .
ب ـ وجوب ابتغاء الإنسان في عمله وجه الله .
جـ ـ ألا يهمل الإنسان حقه في الاستمتاع الحلال على أن تتوفر النية الخيرة .
د ـ وجوب الإحسان إلى المحتاجين جزاء ما أحسن الله اليه
هـ ـ ألا يكون في تصرفه بثروته ، وإنتاجه ، وصناعته ، فساد في الأرض أو إساءة إلى الخلق [1] .

• وتعد ملكية الله للمال هي الأصل في النظرة الاقتصادية الإسلامية . وتنبثق عن هذه النظرة أحقية كل الناس في مال الله وليس الأغنياء إلا مستخلفين عن الله ووكلاء له . وليس لهم حق الاستئثار به، واكتنازه ، وترك قطاعات كبيرة من الناس تموت جوعاً أو مرضاً ، والقرآن يقول في هذا : « وآتوهم من مال الله الذي آتاكم [2] » ، ويقول : « وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه [3] » ـ ويقول شهيد الإسلام الأستاذ عبد القادر عودة في بحث له عن السلطة المالية : « أما اعتبار المال مال الله ، وليس أحد أحق به من أحد ، فهو قوله صلى الله عليه وسلم : « ما أعطيكم ، ولا أمنعكم ، إنما أنا قاسم ، أضع حيث أمرت » وعنه عليه السلام ـ أخذ عمر بن الخطاب هذا المبدأ الاقتصادي

---

(١) الأستاذ : أحمد محمد جمال : محاضرات في الثقافة الإسلامية : ٢٣٨ .
(٢) النور : ٣٣ .
(٣) الحديد : ٧ .

العادل ، فقال قولته المشهورة : « والله ما أحد أحق بهذا المال من أحد ، وما أنا بأحق به من أحد ، والله ما من المسلمين أحد إلا وله في هذا المال نصيب . ولئن بقيت لكم ليأتينّ الراعي بجبل صنعاء حظّه من هذا المال– وهو يرعى مكانه [1] ».

* والزكاة المفروضة المتشعبة الفروع ليست مجرد ركن من أركان الاقتصاد الإسلامي ، بل هي ركن من أركان العقيدة الإسلامية ، التي يقوم عليها البناء الإسلامي كله ، وانطلاقاً من هذا التصور وحده حارب أبوبكر المرتدين ، قائلاً لمن ناقشوه في الأمر : « والله لا أفرق بين الصلاة والزكاة ، والله لو منعوني عقال بعير كانوا يؤدونها لرسول الله لقاتلتهم عليه » .

الأسس الأخلاقية للاقتصاد الإسلامي :

يتبنّى الإسلام نظريته الاقتصادية – بعد ربطها بالعقيدة على أسس أخلاقية إنسانية ، تمثل الوعاء الذي تنصب فيه التشريعات الاقتصادية .

وتتضح ضرورة هذه الأسس حين ندرك أن الإنسان ليس آلة تحرك بقوانين جافة ، وبالتالي – لا بد لكي تنجح أية

(١) نقلا عن «محاضرات في الثقافة الإسلامية» ٢٥٠

نظرية من أن يمهد لنجاحها بوعاء إنساني أخلاقي وبمناخ ملائم للتطبيق .

وأبرز الأسس الأخلاقية للاقتصاد الإسلامي هي :

١ – احترام الفطرة البشرية ، وعدم الاصطدام بها ، سواء عن طريق صيانة الملكية الفردية ، أو حفظ حقوق المجتمع في المال .

٢ – التبغيض في سيطرة المال المطلقة ، والتحذير منها . ولهذا المعنى تذهب الآيات القرآنية الكريمة : « إنما أموالكم وأولادكم فتنة [١] » .

٣ – جعل المال وسيلة لا غاية ، وعنصرا واحداً من عناصر الحياة ، وليس التفسير الوحيد لأنشطة الحياة ، أو المؤثر الوحيد فيها .

٤ – الوسطية والاعتدال : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا [٢] » . « والذين إذا أنفقوا لم يُسرفوا ، ولم يَقتُرُوا وكان بين ذلك قواما » [٣] .

٥ – تقييد التصرفات الفردية ، بانعدام الضرر ، فالقاعدة الأصولية هي تطبيق الحديث الشريف : « لا ضرر ولا

(١) التغابن ١٥ .
(٢) الأسراء ٢٩ .
(٣) الفرقان ٦٧ .

ضرار » « عن طريق » — درء المفاسد مقدم على جلب المصالح » .

٦ — إعطاء الناس جميعاً حقاً في المال في حدود حاجتهم أولا ، **وطاقتهم ثانياً .**

٧ — محاربة العجز والفقر والتسول والضعف ، وتشجيع المشي في الأرض ، والسعي فيها ، والعمل الشريف ، وإن كان ذلك العمل في النظرة الاجتماعية السطحية هزيلاً .

٨ — إقرار حق معرفة أصل الكسب عن طريق تحري مصادره ، وتطبيق قانون : « من أين لك هذا ؟ » . وقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام وعمر من بعده — يحاسبون عمالهم على مصادر ثرواتهم ، ويصادرون ما يأتي عن طريق استغلال النفوذ ، وما إلى ذلك .

٩ — تحريم الاكتناز ، وتبشير أهله بالعذاب الأليم .

١٠ — الحث على صلة الأرحام ، ولا تتحقق الصلة بغير المساعدة المادية في حالة العوز .

١١ — الحث على البر والرحمة ، والتعاون بين المسلمين .

١٢ — إعطاء الحاكم المسلم **حق توظيف أموال الأغنياء** ، وفق ما تقتضيه المصلحة العامة .

١٣ — كما أن للحاكم أن يفرض في المال حقوقاً غير الزكاة في حالة حاجة المجتمع إلى ذلك .

١٤ — إعطاء المسلم المضطر الحق في مقاتلة مانع طعامه أو شرابه الذي يحفظ به حياته — وهو فائض عن حاجة المانع — حتى يحصل على حق الحياة وإذا مات مسلم جوعاً في مدينة أو قرية أو حي من الأحياء اعتبر أهل الحي قتلة إن علموا بجوعه . وكلهم ملزم بالإسهام في دفع ديته ، كما مرت الإشارة إلى ذلك في كلام أبن حزم .

١٥ — الحجز على السفيه المبذر أو العاصي — لأن المال ليس ملكا خالصاً للشخص يتصرف فيه تصرفا سيئا كما يريد .

١٦ — رفض الإسلام للاحتكار في المال أو غيره : « كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم [1] » .

١٧ — تحريم الإسلام للربا سواء كان بسيطا أو مركباً — لأن الربا من أكبر صور الاستغلال والتدمير .

١٨ — تشجيع الإنفاق في سبيل الله ، والصدقة ، وإكرام الجار والضيف ، والقرض الحسن والصبر على المعسر ، وتفريج الكربات .

١٩ — تحريم الآفات الأخلاقية الاقتصادية كالغش ، والخداع ، وترويج السلع بالحلف والتضليل ، والكذب بعامة .

٢٠ — محاربة الترف ، والنظر إليه على انه سبيل الهلاك ، وتدمير الحضارات : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها

---

(١) الحشر (٧) .

ففسقوا فيها ، فحق عليها القول فدمرناها تدميرا [1] » .

* * *

ومما لاشك فيه أن هناك ضوابط أخلاقية إنسانية أخرى يمكن أن تندرج تحت هذه الأسس التي ذكرناها . وقد وضعت كلها لحماية التشريعات الاقتصادية ، وتهيئة الجو المناسب لنجاحها . وبالتأكد فإن المذاهب المادية التي لا ترتبط بعقيدة دينية كالرأسمالية . والشيوعية — لا تستطيع الاتكاء على هذه الأسس ، لأنها أسس تخاطب داخل الإنسان ، وترتبط بحبه لله وخشيته له ، وأنتظار ثوابه في الآخره . وكلها معان لا تهتم بها ، ولا تنطلق منها التصورات والقوانين المادية .

الأسس التشريعية للاقتصاد الإسلامي :

على الرغم من الضمانات التي يفرضها الإسلام لحماية المجتمع ككل فإنه أيضا . في الجانب المقابل — يفرض ضمانات لحماية الملكية الفردية ، باعتبارها الأساس في البناء الاقتصادي الإسلامي ، مالم تصل إلى درجة الطغيان ، والتخريب للمجتمع .

أ — الضمانات :

وضمانات الملكية الفردية في الإسلام هي :

١ — حق الدفاع عن المال بالقوة المسلحة إذا كان ذلك ض ة.

(١) الاسراء : ١٦ .

٢ – تحريم السرقة، وتشريع قطع يد السارق بشروط محدده:
« والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا [١] » .

٣ – تحريم الغصب : « من اقتطع مال امريء مسلم – بغير حق – لقي الله وهو عليه غضبان [٢] » .

٤ – تحريم أكل أموال الناس بالباطل .

٥ – تشريع الميراث الذي هو طريق أيضا من طرق الملكية الفردية ، وهو أيضاً حماية لأصحاب الحقوق .

٦ – تحريم خيانة الأمانة .

ب – وسائل الملكية :

أما مصادر الملكية في الإسلام فأهمها المصادر التالية :

١ – العمل الذي يمتد ليشمل جميع وجوه النشاط الإنساني المشروعة ، سواء كانت باليد أم بالآلة ، أم بالفكر والعقل ، كالصيد ، والتجارة ، والزراعة ، والصناعة ، والعلم .
« وأن ليس للإنسان إلا ما سعى [٣] » « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله [٤] » وقال الرسول عليه الصلاة

---

(١) المائدة ٣٨ .
(٢) رواه أحمد .
(٣) النجم ٣٩ .
(٤) التوبة ١٠٩ .

والسلام فيما يرويه عن ربه : « قال الله عز وجل : ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة ، رجل أعطى بي ثم غدر ، ورجل باع حراً فأكل ثمنه ، ورجل أستأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره [1] » .

٢ – إحياء الموات من الأرض التي لا مالك لها ، وليست بملك عام للأمة .

٣ – الغزو : وينشأ عنه في الإسلام ملكية السلب وتقسيم الغنائم وما يستحقه الغازي أو المجاهد من الدولة له ولذويه .

٤ – إعطاء الحاكم بعض الأرض التي لا مالك لها .

٥ – الهدايا أو الهبات أو الصدقات إذا كان مستحقا .

٦ – استخراج ما في باطن الأرض (الركاز) وما يلحقه ، ما لم تفرض الظروف الاجتماعية اعتباره ملكية عامة ، وتعوض عنه الفرد .

٧ – الميراث : بحدوده التي رسمتها الشريعة الإسلامية [2] .

جـ – قيود على الملكية الفردية :

لكن إلى جانب ما ذكرنا هناك قيود على الملكية الفردية أهمها :

---

(١) رواه البخاري .

(٢) راجع الأستاذ سيد قطب : العدالة الاجتماعية : ١١٩ وما بعدها .

١ – مشروعية مصادرها ، بحيث لا تكون مسروقة أو مغتصبة أو من ربا .
٢ – عدم اكتنازها ، لأن لها جانبا وظيفيا اجتماعيا .
٣ – عدم تبديدها ، بالإسراف الناتج عن السفه ، وقلة الدين .
٤ – عدم استعمالها في الحرام ، كالزنا ، والقمار ، وغيرهما .
٥ – إخراج حق الله فيها بشروطه المعروفة في كتب الفقه .

د – حقوق الله في المال :

وحقوق الله في المال هي :

١ – الزكاة : وهي فريضة دينية مالية وعينية شرعت لضمان تماسك المجتمع وحماية الأمة من الصراع ، والاضطراب والحقد والفاقة .

ومستحقو الزكاة هم المحددون في الآية الكريمة : « إنما الصدقات للفقراء ، والمساكين ، والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم ، وفي الرقاب ، والغارمين ، وفي سبيل الله وابن السبيل ، فريضة من الله [1] » .

أما المجالات التي تجب فيها الزكاة فهي متعددة منها :

أ – المال : وفيه ربع العشر ٢/١٢٪ (الذهب والفضة وما يقوم مقامها) .

ب – التجارة : وفيها ربع العشر ٢/١٢٪ .

---

(١) التوبة ٦٠ .

ج – الركاز : وفيه الخمس ٢٠٪ .

د – الحبوب والثمار : وفيها العشر إذا سقيتْ بماء السماء ، ونصف العشر إذا سقيت بالجهد البشري

هـ – زكاة الفطر .

و – وهناك مجالات أخرى كثيرة تجب فيها الزكاة ولا مجال لحصرها ، كالماشية من إبل وبقر وغنم ، وعقارات ، وحلي ، وتحف ذهبية ، وغيرها ، مما يقاس عليها .

٢ – والزكاة هي الحد الأدنى المفروض ، أما حين تحتاج الدولة الإسلامية ، فإن الإسلام يعطي الحاكم حق فرض ضرائب إضافية للجهاد أو لمعالجة الأزمات الطارئة أو لغير ذلك ، ففي المال حقوق غير الزكاة .

هـ – واجبات الدولة الاقتصادية :

وعلى الدولة تجاه الأفراد والمجتمع – في المقابل – واجبات اقتصادية أهمها :

١ – مراقبة الملكية الفردية حتى لا تطغي ولا تستبد . فتقضي بذلك على الطبقات الفقيرة .

٢ – حماية المصالح الاجتماعية والمرافق العامة

٣ – توفير الحاجات الأساسية للإنسان من مأكل ومشرب ومسكن وملبس ودواء وتعليم .

٤ – توفير العمل الشريف للمسلم ، وحمايته من البطالة والتسول في حدود طاقتها .

٥ – حماية الضعفاء كالأرامل واليتامى ، والعجزة ومن في حكمهم .

٦ – منع الفساد عن طريق ، محاربة الرشوة ، والسرقة ، والغصب ، بتطبيق حدود الله .

* * *

هذه بإيجاز هي الخطوط الكبرى الرئيسة للاقتصاد الإسلامي وواضح لكل من يدرسها بالتفصيل الكافي ، أنها متميزة متفردة ترتكز على دعائم لا تتوافر لأي منهج اقتصادي آخر . ولعل فيما قاله « المسيوليون روشى » في كتابه : « ثلاثون عاماً في الإسلام » ما يوجز ذلك بوضوح ، يقول : « إن هذا الدين هو أفضل دين عرفتُه فهو دين طبيعي اقتصادي أدبي ؛ ولقد وجدت فيه حل المسألتين ، الاجتماعية والاقتصادية اللتين تشغلان بال العالم طرا . . .

الأولى : في قول القرآن : « إنما المؤمنون إخوة ». فهذه أجمل مبادىء التعاون الاجتماعي . والثانية : في فريضة الزكاة من مال كل ذي مال بحيث يحق للدولة الإسلامية أن تستوفيها غصبا إذا امتنع الأغنياء عن دفعها طوعاً [١] » .

(١) راجع محاضرات في الثقافة الإسلامية : ٢٥٠ .

المذاهب الاقتصادية المعـــاصرة
ومقارنتها بالنظام الإسلامي

ينتشر في العالم اليوم مذهبان هما : الرأسمالية ، والشيوعية . ويخيل لبعض السذج أن هذين المذهبين تنحصر فيها طرق تنظيم الحياة وتحقيق التقدم ، وأنه لا طريق سواهما ، مع أن الطريقين معا هما السبب الأكبر في تعاسة البشرية واختلال توازنها وجرّها إلى حروب وحشية مدمرة .

الرأسماليــة :

١ — تقوم الرأسمالية على أساس تلك القاعدة الاقتصادية التي عبر عنها « آدم سميث » في قولته المشهورة «دعه يعمل دعه يمرّ » أي على أساس الحرية المطلقة في الاقتصاد ، وانعدام القيود الاجتماعية « والأخلاقية أيضاً» على الحركة الاقتصادية للمجتمع .

٢ — وفي هذه النظرية يقف المال ذهبا وفضة في « البورصة » أو « الأسواق المالية — كعمود رئيسي للنشاط الاقتصادي — والمال ليس وسيلة تبادل فقط ، بل هو نفسه — في أسلوب

الربا — وسيلة ربح ، وحتى ولو لم يتعرض للمغامرة . والربح والخسارة بطرق الاستثمار الحقيقي .

٣ — وانطلاقا من الحرية المطلقة والاعتماد على المال كأساس للحركة الاقتصادية ، يتكالب الأفراد في الحصول على الارباح وابتكار شتى الوسائل المشروعة وغير المشروعة للحصول على الربح ، فطرق الدعارة والخمور والقمار كلها مقبولة — وقانونية في النظام الرأسمالي .

٤ — والأفراد كأجزاء بلا قيود — من حقهم أن يملكوا وسائل الإنتاج نفسها ، كحقول النفط ومناجم الذهب والحديد . ويملكو بالتالي وسائل التوجيه « كمحطات الإذاعة والتلفاز » وما إلى ذلك .

٥ — ولأن الربح هو الغاية الوحيدة ، انبثقت ظاهرة فتح الأسواق العالمية الجديدة فانطلق المجتمع الرأسمالي ينشر الحروب والدمار ، ويستعمر شعوباً ويستذلها . لكي تكون مناطق إمداده بالمواد الخام التي يصنّعها ويجني منها الأرباح الفاحشة .

٦ — وتعتمد الرأسمالية على قوانين تسيّر حركتها مثل قانون المزاحمة ، أي التهام التاجر الكبير للتاجر الصغير ، وقانون المتمركز على الإنتاج وحصره عن طريق تصفية الشركات الكبرى للشركات الصغرى ، بالإضافة إلى قانون الربح الذي ذكرناه .

٧ – وبدهي أن هؤلاء الذين يتحولون إلى رأسماليين يعيشون حياة غاية في الترف ، بينما تسحق طبقات أخرى كثيرة بجانبهم لا تجد ضرورات الحياة .

نتائج النظام الرأسمالي : –

١ – وكما هو واضح ، فإن الأسس الإنسانية ، والأخلاقية تكاد تكون معدومة في النظرية الرأسمالية ، بالإضافة إلى أن الأساس المادي هو كل شيء في هذه النظرية .

٢ – ويصور « بلزاك » الرأسمالية في جوهرها بعبارته الساخرة الشهيرة « تقف دائماً فوق الميثاق قطعة الخمسة فرنكات المقدسة النبيلة الفتية القادرة أبدا على كل شيء »!!!

إنها عبودية مطلقة للمادة ، تستعذب في سبيلها أسوأ الطرق وأكثرها وعورة .

٣ – والاحتكار هو أظهر جريمة من جرائم الرأسمالية . وعلى سبيل المثال ففي الولايات المتحدة تسيطر على صناعة التعدين ثمانية احتكارات أكبرها « تروست الفولاذ » وفي السيارات « جنرال موتورز » ، وهلم جرا [(١)] .

أما التجار الصغار فطريقهم الإفلاس والانسحاق .

٤ – والتناقض ظاهرة طبيعية في هذا النظام ، فمع أنه في سنة

(١) راجع مقال الرأسمالية والإنسان العربي بمجلة المجتمع الكويتية عبد الحليم عويس (أغسطس ٧٣) .

١٩٣٤ م مات في البلاد الرأسمالية مليونان وأربعمائة ألف شخص من الجوع . . في هذه السنة نفسها أتلفت الولايات المتحدة الرأسمالية أكثر من مليوني عربة من الحبوب ، ٢٦٧ ألف طن من السكر . ٢٦٠ ألف طن من الأرز ، و ٢٥ ألف طن من اللحم . وكثيرا من المواد الأخرى .

وهذا كله حفاظا على مستوى الأسعار خضوعا لقانون العرض والطلب ! !

٥ — ونتيجة ضياع فئات بأكملها بتأثير الاستغناء بالآلة عن العنصر البشري ، تنتشر ظواهر الانتحار والجنون والجرائم الاجتماعية والاخلاقية الكثيرة .

٦ — إن الإسلام كما يرفض في الرأسمالية هذه المادية المستذلة وإتلاف خيرات الله — يرفض أيضا إطلاق الحرية الشخصية بلا حدود ، ويرفض الطرق غير المشروعة للربح ، كما يرفض « الربا » كعمل استغلالي بشع وأسلوب فاحش رخيص للكسب .

الشيوعية : —

وتتفق الشيوعية — ومثلها الاشتراكيات المختلفة — مع الرأسمالية في الأساس المادي ، ففي النظريتين ليس هناك اعتراف بالله أو بفضله ؛ وليس هناك بالتالي التزام بالأخلاق والقيم الإنسانية .

وكل الفرق بين النظريتين أن الرأسمالية تمارس أخطاءها باسم الفرد . أما الشيوعية فتمارس الأخطاء نفسها باسم شيء يسمى المجتمع . أو الطبقة العاملة « البروليتاريا » .

وتتلخص أسس الشيوعية الاقتصادية في العناصر التالية :

١ — إزالة الملكية الفردية تماما . وتحقيق ملكية الدولة لكل شيء لأن الملكية الفردية في رأيهم — سبب الشرور والبلاء .

٢ — النظر إلى التطور في المجتمعات والتاريخ البشري على أنه نتاج مباشر لتطور وسائل الإنتاج والتشكيلات الاقتصادية . فالاقتصاد « المادة » المحرك الوحيد للحياة .

٣ — الاعتماد على صراع الطبقات كوسيلة من وسائل تطوير المجتمع .

٤ — إغفال الاعتبارات الدينية والأخلاقية والإنسانية ، سواء في مرحلة النظرية برفض هذه القيم الغيبية غير العلمية « الميتافيزيقا » — كما يقولون — أو من باب التطبيق الذي يعتمد العنف الدموي كأسلوب لتصفية أعداء الشيوعية والاشتراكية .

٥ — تهبط الشيوعية بالإنسان إلى قيمة الحيوان حين تحصره في دائرة الماديات التي يتمتع بها حيوان الغابة أيضا .

٦ — كما أنها بإعطائها المادة هذه المكانة تتجاهل الطاقات الموضوعية الأخرى كالروح والمشاعر والضمير والأفكار .

نتائج النظام الشيوعي :

وأخطاء الشيوعية أكثر من أن تحصر ، ولعل أهم هذه الأخطاء هي :

١ – تحويل الحياة إلى غابة صراعية يسودها العنف المادي والدموي .

٢ – تفريغ المجتمع من معاني الحب والرحمة والتعاون عن طريق نشر الإلحاد والكفر بالقيم الدينية والإنسانية .

٣ – قتل المواهب الفردية ، ووأد الفطرة البشرية ، عن طريق حرمان الإنسان من جني ثمار كدحه نظرا لإلغاء الملكية الفردية .

٤ – لم تنجح الشيوعية والاشتراكيات المختلفة في تحقيق الكفاية والعدل ، وتحويل الفقراء إلى اغنياء، بل نجحت في إفقار الأغنياء وإذلالهم .

٥ – سحق الكيان الفردي للإنسان ، وتحويله إلى قالب حجارة ، أو إلى رقم عددي ممتهن .

مميزات الاقتصاد الإسلامي وعناصر تفوقه :

١ – شمول الإسلام لمصلحتي الفرد والمجتمع في نظرية الاقتصادية ، مع تحقيق التوازن بينهما .

٢ – تدعيم الجوانب الأخلاقية والعقدية كأساس لإقامة اقتصاد أخلاقي بناء .

٣ — الحفاظ على الجوانب المشرقة في الكيان الإنساني ، بدءاً من الاعتراف بحق الله المنعم الرزاق ، وانتهاءً بتعميق معاني الرحمة والإيثار والتعاون .

٤ — النظر إلى المال على أنه قيمة واحدة من قيم كثيرة تحرك المجتمع ، مع عدم مصادرة حق الفطرة البشرية في الكسب المشروع والملكية الفردية .

٥ — منع الاستغلال والاحتكار والتمايز الطبقي سواء كان ذلك باسم الفرد أو الدولة .

٦ — حماية كل الطبقات الاجتماعية وتحقيق التضامن الاجتماعي للمجتمع .

والحق أن مزايا الإسلام أكثر من أن تحصر ، لكننا نكتفي في هذه اللمحة العابرة بهذا القدر ، ففيه دلالة على تفوق الاقتصاد الإسلامي . بصورة لا تقبل جدلا . .

« إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم [1] » .

(١) الإسراء ٩ .

الفصل السابع

الإسلام والنظم السياسية

١ ـ أسس النظام السياسي الإسلامي
٢ ـ الأنظمة السياسية المعاصرة
٣ ـ تفوق النظام السياسي الإسلامي
٤ ـ الإسلام والعلاقات الدولية

الموازنة بين نظام الإسلامي السياسي والأنظمة المعاصرة

يرتبط النظام السياسي في الإسلام بالتصور الإسلامي الشامل للكون والحياة وما قلناه في علاج المسألة الاجتماعية والمسألة الاقتصادية ، ينسحب أيضا على النظام السياسي في الإسلام .

وإذا كانت بعض المذاهب الحديثة ، تعتبر العدالة الاقتصادية مكملة للعدالة السياسة (وهذا نظريٌ فقط) فإن الاسلام يعتبر العدالة السياسية جزءا لا ينفك عن العدالة الاقتصادية والاجتماعية والعقيدة الإسلامية . والفرق بين الإسلام وهذه المذاهب أن هذه المذاهب اشلاء متفرقة من « الرقاع الفكرية » المتعارضة أحيانا والنظرية الجدلية في أكثر الأحايين .

(نظام الإسلام السياسي)

أسس النظام السياسي في الإسلام :

ينظر الإسلام إلى النظام السياسي على أنه الحارس لعقيدة الأمة وسلامة بنائها الداخلي ، ومصالحها الخارجية .

ولما كانت الأمة الاسلامية ذات طبيعة خاصة كأمة مستخلفة

عن الله في الأرض تقوم على إقرار الحق بين الناس . فبالتالي أخذت هذه الأمة كل مقومات نظامها السياسي من طبيعة الاسلام كرسالة عالمية ممتدة في الزمان والمكان .

والنظام السياسي الإسلامي يرتكز على الأسس التالية :

الإيمـان بالله :

فالنظام السياسي لا ينفصل عن العقيدة ، بل هو الحارس لها ، وبالتالي كان الايمان بالله وما يقتضيه من اتباع أساليب شريفة وصولا إلى غايات شريفة ، هو الأساس الأول للنظام السياسي الإسلامي .

لا حاكم إلا الله :

فإذا كانت بعض النظم تدعو إلى أن « الشعب هو مصدر السلطات » وأنه هو واضع الدستور ، فإن الاسلام يردّ الحكم كله إلى الله . . . يرده إليه دستورا وقوانين « إن الحكم إلا لله أمر أن لا تعبدوا إلا إياه [1] » ، « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما [2] » .

---

(١) يوسف ٤٠ .

(٢) النساء ٦٥ .

ثبات الأصول والتصوّرات :

والدول الإسلامية لا يؤسس بنيانها – إذا كانت إسلامية حقا – إلا على قانون الله الذي جاء به النبي عليه الصلاة والسلام مهما تغيرت الظروف [1] . فدستورها وتصوراتها يمتازان بالثبات لأنهما صادران عن الله المحيط الخبير .

غايات روحية إنسانية :

وللنظام السياسي في الإسلام غايات تحققها الدولة الإسلامية[2] فلافصل بين الدين والدولة في الإسلام، وهذه الغايات تلخصها الآية الكريمة « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر [3] » .

المساواة التامة :

وما دام القانون صادراً من عند الله فهو لا يحابي طبقة ولا فردا ، ولا يسمح باستبداد من نوع ما ، وبالتالي فالمساواة التامة أساس من أسس هذا النظام ، ولم توجد في الإسلام كهانة أو حكومات بالمعنى اللاهوتي الكنسي « الثيوقراطية » والدولة في الدستور الإسلامي خاضعة لأحكام الشريعة كالأفراد تماما .

(١) أنظر أبو الأعلى المودودي . نظرية الإسلام وهديه ٣٣ .
(٢) المرجع السابق ٤٥ .
(٣) آل عمران ١١٠

الحريـة :

ففي النظام الإسلامي لا عبودية لغير الله ، ولم يتحدث الاسلام كثيرا عما عرف حديثا بمصطلح الحرية ، لأنه نظر إلى الحرية على أنها حق من الحقوق الطبيعية التي لا تحتاج إلى جدل ، سواء كانت حرية عقيدة أو رأي أوغير ذلك في الحدود المرسومة

الشورى :

في القرآن الكريم سورة بأكملها تسمى « الشورى » وهي تؤكد اهتمام الإسلام بهذا الأساس الخطير سواء في مرحلة اختيار الحاكم أو في إدارة الحكم . وقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام يستشير أصحابه — مع نبوته وفضله — وإذا كانت الشورى واجبة على رسول الله فهي على غيره أوجب [1]. وقد طبقها أبو بكر وعمر مع فضلهما وذكائهما . وجدير بالذكر أن الشورى تعني مشاورة أهل الحل والعقد ، أي قادة الدين والعلم ، فهم وحدهم القادرون على الوصول إلى الأفضل والأكمل

العدالـة :

والعدالة الاسلامية ركيزة من ركائز النظام السياسي — وهي عدالة إلهية فهي — بالتالي — لا تحابي النفس أو القريب ، ولا يرتفع فوقها أحد « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين

(١) الاستاذ : عفيف طياره . روح الدين الاسلامي ٢٩٥ .

بالقسط شهداءلله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين . إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا . وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا[1] »
وحتى غير المسلمين في المجتمع الإسلامي «أهل الذمة» لهم حقوق تتوفر فيها أسمى أنواع العدالة ، سواء في الحقوق أو الواجبات .

(وحسبنا هذه العناصر في الحديث عن أسس السياسة الإسلامية ، ونتناول في أسطر قضية الحاكم المسلم لأهميتها).

الحاكم المسلم . ما له وما عليه :

تعتبر الدولة الاسلامية دولة فكر وعقيدة وليست دولة عنصرية أو قومية ، وبالتالي فهي تلتزم في قواعد ها بشروط ومبادىء ومقررات الاسلام وسواء أطلق على الحاكم اسم (خليفة) أو ولي الأمر أو امير المؤمنين أو غيرها . فالمهم تحقيق أسس السياسة الإسلامية التي ذكرناها آنفا . والمهم أيضا أن تتحقق في هذا الحاكم خصائص معينة ، يتفق أكثر الفقهاء والمؤرخين على أنها تتركز في الشروط الآتية :

١ – الإسلام ، ويدخل فيه الالتزام بفرائض الدين ، وتقوى الله وخشيته .
٢ – البلوغ .

(١) النساء : ١٣٥ .

٣ — العقل وسلامة الأعضاء والحواس .
٤ — العدالة على شروطها الجامعة .
٥ — العلم المؤدي إلى الاجتهاد في النوازل .
٦ — الذكـورة .
٧ — الحـرية .

وهذا الحاكم المسلم يختار عن طريق الشورى بين أهل الحل والعقد ، وليست هناك صورة تطبيقية ضرورية لأسلوب الشورى ، فقد تباينت صور الاختيار بالشورى بين الاختيار المباشر من أهل الحل والعقد ، أو اختيار الخليفة السابق بعد استشارته لأهل الحل والعقد ، أو غير ذلك .

وواجبات الحاكم المسلم هي بإيجاز — قيادة الأمة الإسلامية لتأدية رسالتها العالمية ، عن طريق تقوية الداخل والخارج في إطار الشريعة الاسلامية ، وحراسة العقيدة الإسلامية ، ونشر لوائها ، ونشر العدل بين الناس ، ومراقبة ولاته وعماله ، وغير ذلك مما يحقق قوة الأمة الاسلامية ونشر رسالتها بين الناس وإذا أدى الحاكم ما عليه من واجبات وجبت له الطاعة على الأمة في غير معصية ، والنصرة والنصح .

أما إذا قصّر ، أو خان الأمانة ، أو أصبح عاجزاً عن القيام بمهامه فقد وجب عزله .

الأنظمة السياسية المعاصرة :

تسود عالم اليوم نظريتان سياسيتان متعارضتان : الرأسمالية.

التي تقف في الطرف الأقصى للفردية « اليمين » والشيوعية التي تذيب الفرد تماما وتقف في الطرف الأقصى « اليسار » ونحن نستطيع إذا تخطينا دائرة الشعارات البراقة أن نلمح طبقة مسيطرة في كلا النظامين ، وطبقات كثيرة مقهورة ،في كلا النظامين أيضا. والفرق بينهما ليس أكثر من فرق في الأسلوب فقط.

الرأسمالية كنظام سياسي :

حقيقة إن الرأسمالية تطلق حرية الفرد ، لكن أي حرية هي ؟ إنها حرية الانطلاق الشهواني والفوضوي . . . الحرية الغرائزية الحيوانية التي لا تضبطها قيود إنسانية أو أخلاقية .

وهي حرية شكلية في محتواها الأخير ، لأن حرية العبث الأخلاقي عملية سهلة يستطيع أن يمارسها الإنسان في العالم الشيوعي وهو يمارسها فعلا . . .

• فضلا عن أن الحرية السياسية محكومة بالقهر الاقتصادي الذي تمارسه طبقات كبار الرأسماليين ! ! والرأسمالية نظام طبقي سياسي أيضا . . يقف في قمته حزب أو حزبان يتقاسمان الغنائم . وكثيرا ما تعتمد هذه الأحزاب على وسائل غير مشروعة في الوصول إلى السلطة كدفع الرشاوي وشراء أصوات الناخبين ، ومحاباة المناصرين وأهل الثقة وما إلى ذلك .

وللحرية السياسية في المجتمع الرأسمالي جانب سيء بارز ، فهي تزكي روح الفردية (الأنانية) في المجتمع ، وتنعدم بالتالي العواطف البشرية وفضائل النخوة والشجاعة والفروسية والكرم ،

ويكون البقاء للأقوى وحده . « السوبرمان » — وفي الرأسمالية لا مجال للدين والأخلاق ، سياسيا واقتصاديا « وميكا فيللي » الرأسمالي هو موصّل نظرية « الغاية تبرر الوسيلة » أي أن الطرق السياسية الدنيئة الرخيصة جائزة إذا كانت الغاية هي مصلحة الرأسمالية ، وقد تلقف هذا المبدأ اليهود وروّجوا له و « بروتوكلات » حكماء صهيون تقول بذلك : « يتحتم أن يكون حكم تلك الحكومات ماكرا خداعا . . إن هذا الشر هو الوسيلة الوحيدة للوصول إلى هدف الخير ، ولذلك يتحتم ألا نتردد لحظة في أعمال الرشوة والخديعة والخيانة إذا كانت تخدمنا في تحقيق غاياتنا [1] » .

الشيوعية كنظام سياسي :

• وأول ما يؤخذ على الشيوعية هو ماديتها المدمرة التي تقتل الروح والأخلاق وتنكر أشرف الولاءات وهو الولاء لله الواحد الخالق . وهذه الخصيصة تنسحب على الجانب السياسي كما تنسحب على غيره . ونتيجة لهذه الخصيصة سحق الشيوعيون الفرد وقتلوه معنويا ونفسيا وفكريا ، وحولوه إلى ترس في دولاب العمل الذي تحركه زمرة قليلة في اتجاه مصالحها وحدها مهما رفعت من شعارات . .

• وبتأثير هذه المادية النفعية لجأ الشيوعيون إلى نفس مبدأ

(١) البروتوكول الأول : ترجمة خليفة التونسي .

« ميكا فيللي » السابق فاستعملوا في السياسة أدنأ الطرق وأكثرها رجعية وحيوانية ويقول « لينين » في ذلك : يجب على المناضل الشيوعي أن يتمرس بشتى طرق الخداع والغش والتضليل . فالكفاح من أجل الشيوعية يبارك كل وسيلة تحقق الشيوعية ، ولهذا فإن الشيوعية تبارك شتى الوسائل المناهضة للأخلاق ، ما دامت هذه الوسائل تساعد على تحقيق الشيوعية .

وإلى جانب استخدام الشيوعية للوسائل الحيوانية — لجأت أيضا إلى ما عرف بالعنف الثوري الدموي — في مقابل الإباحية الديمقراطية — فقتلت شعوبا بأكملها ، ومن ضحايا الشيوعية الشعبان المسلمان : الألباني ، والشعب الاسلامي الكبير في الاتحاد السوفيتي ، بالإضافة إلى المسلمين في الصين . وفي البلاد الاشتراكية الأخرى . وقد بلغ ضحايا المسلمين في الاتحاد السوفيتي ثلاثة ملايين مسلم [1] ويقول — ستالين — أحد طغاة الشيوعين الكبار — بعد أن قتل خمسة ملايين نفس — يقول هذا الطاغية في تبرير الوسائل الدموية : « إنكم لا تستطيعون الهرب من الكوارث الطبيعية كالزلازل والعواصف التي تقتل الملايين ، ولكن تقبلونها صاغرين ، فكيف لا تقبلون عمليات التطهير التي تقوم بها السلطات الشيوعية » وفي النظام الشيوعي لا توجد أي صورة من صور الحرية السياسية ، فلا وجود

(١) تقول الاحصاءات إن عدد المسلمين تناقص ٥٠ ٪ في نصف القرن الأخير بالبلاد السوفيتية .

للمعارضة أو النقض ، ولا يوجد أي مظهر من مظاهر حرية العقيدة أو الفكر ، ولا ضمانات تحمي حقوق الإنسان الفطرية أو السياسية .

تفوق النظام السياسي في الإسلام :

ومن عرضنا لأسس النظام السياسي الإسلامي وللأسس التي تقوم عليها النظم المعاصرة يتضح لنا تفوق النظام السياسي في الإسلام .

* ذلك لأنه نظام لا يسحق الفرد ولا المجتمع . وهو يوازن بين مصلحتيهما في تناغم وانسجام تام . فهو يحفظ حرية الفرد وحقه في العدالة والمساواة ، ويحفظ للمجتمع ركائزه ودعائمه حتى لا تهتز أو تتداعى أمام طغيان الفردية .

* وهو نظام لا يبتر الصلة بالله ، وبالتالي يراقب الله في أساليبه وغاياته ، ولا يلجأ إلى الدموية العنيفة ، احتراما للإنسانية التي كرمها الله ، ولا إلى الوسائل الهابطة التي تنتجها المذاهب المعاصرة من يمين ويسار .

* وهو يحدد بوضوح العلاقة بين الدولة والشعب ، حتى لا يتصارعا أو يطغى أحدهما على الآخر . والأهم في هذه العلاقة أن الحاكم والمحكومين سواء أمام القانون ، فلا طبقية ممتازة ، للفرد أو للدولة ، ولا صراع بين طبقات .

* والضمير يحتل مكانا توجيهيا في السياسة الاسلامية ، وقد

أدى الضمير دوره في السياسة الاسلامية بطريقة لم تتكرر في التاريخ ، فتميز المسلمون في سياستهم بالوفاء بالوعود والتعفف عن الدماء ومناصرة المظلوم ومحاربة الطواغيت .

والنظام السياسي الاسلامي نظام عالمي متكامل ، وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ، فلا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى . وإذا كان اليهود ينظرون إلى غيرهم نظرتهم إلى « أميين » مستباحي العرض والمال ، وإذا كان الشيوعيون ينظرون إلى « البرجوازيين » النظرة نفسها ، فالإسلام انطلاقا من مبدأ « لا إكراه في الدين » يحترم الحقوق الإنسانية للبشرية كلها « ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم[1] » صدق الله العظيم .

الإسلام والعلاقات الدولية :

إذا كانت الجوانب الاجتماعية والاقتصادية تمثل السياسة الداخلية للدولة الإسلامية فإن العلاقات الدولية ، تمثل السياسة الخارجية لهذه الدولة .

وبإمكاننا — باطمئنان كبير — أن نقول : إن الخصائص الأخلاقية والإنسانية التي أرسى الاسلام دعائمها كمبادىء عامة ، تمتد من السياسة الداخلية إلى السياسة الخارجية . فالإسلام في كل تشريعاته وخصائصه — كل منسجم يهدف إلى غايات نبيلة ويعتمد — في وصوله إليها — على وسائل نبيلة كذلك .

---

(١) الحجرات ١٣ .

وفقهاء الإسلام يقسمون العالم ثلاثة أقسام :

١ — دار الإسلام . وهي كل البلدان الإسلامية . وعقيدتها واحدة وشريعتها واحدة .

٢ — دار الحرب . وهي الدولة المعادية للاسلام المتاخمة لبلاده التي لا يأمن المسلم فيها على دمه أو عرضه أو ماله .

٣ — دار العهد . وهي الدول التي بينها وبين المسلمين عهود .

وقد تحدثنا عن دار الإسلام حين تحدثنا عن المفاهيم الاجتماعية الاقتصادية والسياسية العامة في الصفحات السابقة .

أما دار الحرب ودار العهد فهما موضوع حديثنا هذا .

الأسس العامة للعلاقات الدولية في الإسلام :

يضع الإسلام قواعد عامة في تعامله الدولي . يبني على أساسها تعامله مع الإنسانية خارج دار الاسلام أي مع دار الحرب ودار العهد . .

فالإسلام — أولا — دين الله — لكل الناس — لم يأت لجنس دون جنس . فهو عقيدة منفتحة ، وليست مغلقة ، وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين . .

والإسلام لم يأت حرباً على الإنسانية ، بل ناشراً للواء السلم والرحمة والحب « ياأيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم

كافة [1] » « فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السَّلَمَ فما جعل الله لكم عليهم سبيلا [2] » .

والأمة الاسلامية مسئولة عن نشر الخير والمعروف بين الناسّ ، فليست هي بالأمة السلبية « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر [3] » .

وإعداد القوة — بالتالي — أمر هام بالنسبة للأمة الاسلامية . « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم [4] » .

والحرب في الإسلام إنما شرعت لمنع الطواغيت عن مقاومة الحق والعدل ولدفع الأذى عن المؤمنين ، ولإرهاب الباطل حتى لا يفكر في غزو الحق ، ومع ذلك فهذه الحرب لها آداب انسانية ، لم يشهد التاريخ تطبيقا لها يقارب التطبيق الإسلامي الإنساني الفريد

والحرب في الإسلام جزء من رسالته في تحرير المستضعفين في الأرض « وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا [5] » .

---

(١) البقرة ٢٠٨ .
(٢) النساء ٩٠ .
(٣) آل عمران ١٠٤ .
(٤) الأنفال ٦٠ .
(٥) النساء ٧٥ .

والمسلمون ملزمون بالوفاء بكل الوعود والعهود والمواثيق التي بينهم وبين الكفار ، ولا يجوز لهم اهتبال الفرص ونقض العهود « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها [1] » .

والتسامح ركيزة أساسية في سياسة الإسلام ، وكان له دوره في نشر الإسلام ، وإقبال الشعوب عليه .

هذه بإيجاز شديد هي الأسس العامة للعلاقات الدولية في الإسلام . وهي ليست شعارات مزيفة ، بل هي واقع تاريخي حيّ بهر الأوربيين أنفسهم فتحدثوا عنه بإطناب وجعلوه من أبرز مزايا الاسلام (والاسلام كله مزايا لو أبصروه بعين الحق)

من الواقع التاريخي :

ويؤكد الواقع التاريخي تطبيق المسلمين الحيّ النادر لهذه الأسس . . .

والصور التي يذكرها التاريخ لا تعطي الاسلام امتيازه في جانب العلاقات الدولية فحسب — بل هي في الوقت نفسه دليل على الجدب الناتج عن التدهور الخلقي الذي يتسم به أتباع الديانات الأخرى التي خلا تاريخها من كل صور الإنسانية.

وما مواقف الصليبيين عنا ببعيدة حين حاصروا معرة النعمان بسوريا ، وأعطوا أهلها عهوداً ثم غدروا بهم ،وقتلوهم

(٤) النحل : ٩١ .

عن آخرهم ، وهم أكثر من مائة ألف ، وما جرائمهم ببعيدة أيضا حين شددوا الحصار على مدينة القدس . وأعطوا أهلها الأمان فلما دخلوها ذبحوا كل من فيها حتى تحولت المدينة إلى أنهار من الدماء .

ولا نستطرد في ذكر هذه الصور الكريهة ، فليست ما نهدف إليه ، وإنما هدفنا توضيح الأسس التي كانت عليها العلاقات الدولية في الإسلام من الناحية التطبيقية والعملية .

* * * *

بعد تسعين سنة من مجزرة بيت المقدس الآنفة الذكر نجح صلاح الدين الأيوبي في أسترداد بيت المقدس من أيدي الصلبيين ، فماذا فعل بمن فيها من النصارى ؟

لقد كان فيها ما يزيد على مائة ألف أعطاهم صلاح الدين الأمان على أنفسهم وأموالهم . . فلم يقتل واحدا منهم ، وإنما سمح لهم بالخروج مقابل مبلغ زهيد يدفعه القادرون منهم . وقد تجاوز عن فقرائهم ، وكانوا أكثر من خمسين ألفا ، فلم يأخذ منهم شيئا ولما اراد البطريرك الفرنجي الخروج سمح له بالخروج ومعه من أموال الكنائس الكثير فاقترح أحد المسلمين أخذ هذه الأموال ، فأبي صلاح الدين . وقال : « لا أغدر بهم » والأكثر من ذلك أن كثيرا من النسوة النصرانيات ذهبن إليه يشتكين الفقر والحاجة إلى المأوى والعائل ، فأطلق الأسرى من

رجالهن ، وأعطاهن مالا كثيرا [1] . ولما فتح السلطان محمد الفاتح القسطنطينية دون عهد أمان دخل إلى كنيسة « أيا صوفيا » وكان قد لجأ إليها رجال الكنيسة ، فأحسن استقبالهم ، وأكد حمايته لهم ، وطلب من النصارى الفزعين الموجودين فيها أن يذهبوا إلى بيوتهم آمنين ثم نظم شئونهم ، وترك لهم حق اتباع كنائسهم الخاصة ، وقوانينهم الملّية ، وتقاليدهم المتعلقة بالأحوال الشخصية ، وترك للقساوسة انتخاب بطريرك لهم فانتخبوا « جنا ديوس » واحتفل السلطان بانتخابه بنفس الأبهة التي كانت متبعة في عهد البيزنطيين ، وجعل له حرسا خاصا من الانكشارية ، ثم أعلن السلطان اعترافه بقوانين الكنيسة الأرثوذكسية ووضعها تحت رعايته ، ثم جمعت واشتريت كل الآثار النصرانية التي نهبت يوم الفتح وسلمت للكنائس والأديرة [2] .

فهل يضم التاريخ الصليبي أو اليهودي في كل أدواره صورا تشابه هذه الصور أو تقاربها ؟

إن الخبائث والفتن وصور التخلف والتحلل وغيرها من المظاهر التي تركها الاستعمار الأوربي الحديث في كل البلاد التي دخلها أوضح إجابة حية شاهدة على طبيعة حضارتهم .

---

(١) نقلا عن المرحوم الاستاذ / مصطفى السباعي : من روائع حضارتنا ص ٩٩ — ١٠١ .

(١) المرجع السابق .

وإن الأخلاق الحضارية ، ومظاهر الفروسية ونواحي العمران التي تركها المسلمون في الأندلس وصقلية ، وجزر البحر الأبيض الأخرى والتي لا زالت حية يعترف الأوربيون بفضلها .، ويحتفلون بها [1] كتراث خالد عاش بينهم — هذه الأخلاق والآثار العمرانية التي اتصلت بنور الإسلام واستضاءت به هي اكبر دليل على طبيعة حضارتنا الاسلامية ذات الرسالة الانسانية الخالدة ، وهي المعلم الثابت الذي يحدد دورنا في التاريخ .

« يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ، والله متم نوره ولو كره الكافرون [2] » صدق الله العظيم .

---

(١) تقيم أسبانيا بين الحين والحين احتفالات ضخمة لأبطال حضارتنا الإسلامية والعربية من أمثال ابن حزم الأندلسي ، ولسان الدين بن الخطيب ، ومن الشعراء كابن زيدون ، وابن عباد ، وابن عمار ، وغيرهم .

(٢) الصف ٨ .

رقم الايداع
٨٤ / ٤٧٨٦

دار العدالة للطباعة والنشر

٣٩ ش الاخلاص من شارع الفيوم -
دار السلام - القاهرة